AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01008 7801

DT
70
H117
1933
c.3

حضارة مصر الحديثة

لنخبة من زعماء الرأى والثقافة فى مصر

عُنى بنشره

قسم الخدمة العامة

بالجامعة الامريكية بالقاهرة

والتزمت طبعه وبيعه ادارة

المطبعة العصرية

سنة ١٩٣٣

962
D642c
c.2

27383

فهرس

صفحة

٥ مقدمة — المستر وندل كيلاند

٩ ينابيع الثروة الزراعية — فؤاد بك اباظه
القطن — القمح — البصل — قصب السكر — الذرة — الأرز — الشعير — العدس — الفول — البرسيم — الكتان — فلاحة البساتين — النخيل — النحل — الحيوانات الزراعية

٢٥ الثروة المعدنية - الدكتور و. ف. هيوم
لمحه تاريخية عن التعدين فى مصر — الذهب — الفضة — النحاس — خامات الحديد — المنجنيز الرصاص — الفوسفات — زيت البترول — احجار الزخرفة والبناء

٤٣ تجارة وصناعة مصر الحديثة - الدكتور عبد الحكيم الرفاعى
تجارة مصر الخارجية — الصادرات والواردات — تجارة الترانسيت — الميزان التجارى — ميزان الحسابات — الصناعة فى مصر — صناعة السكر — صناعة الغزل والنسج — صناعات اخرى — مستقبل الصناعة فى مصر

٧٠ الفلاح والصانع — الاستاذ سلامه موسى
حال الفلاح والصانع قديماً — أثر استعمال الآلات فى حياتهما — البطالة — الفاقه واسبابها — الحركة النقابية فى مصر — اقتراحات للاصلاح

٧٩ التعليم والاتصال الفكرى — الاستاذ اسماعيل محمود القبانى

صفحة

٩٧ الحالة الصحية فى الوقت الحاضر — الدكتور محمد شاهين باشا

١١٥ أوقات الفراغ والحياة المنزلية — الدكتور بنيامين بهمن

علاقة الرجل بزوجته — علاقة الوالدين بابنائهم — المنزل المصرى الجديد — الرجل — أوقات الفراغ — العلاج

١٣٥ الفن والأدب — الآنسه مىّ

اللغة فى دور التطور — بواعث التطور — اللغة والصحافة — أثر الحركة القومية فى اللغة — من الجدل السياسى الى البحث الأدبى — الأدب الحديث — اقسام الأدب — الشعر والنثر — أدب العامة — التمثيل — النحت والرسم والتصوير — الموسيقى — الخلاصة

١٥١ الدين وأثره — الاستاذ على عبد الرازق

١٦٥ الرأى العام كأداة للرقابة الاجتماعية — الدكتور محمد حسين هيكل بك

١٧٧ التنظيم الاجتماعى بواسطة الحكومة — احمد بك صفوت

١٨٩ علاقة مصر الدولية — الأستاذ سابا حبشى

أهمية العلاقات الدولية كعنصر من العناصر المؤثرة فى نشوء المجتمع — أثر علاقات مصر الدولية فى تاريخها القديم — أثر علاقات مصر الدولية فى تاريخها الحديث — حفر قناة السويس — المنافسة الانجليزية الفرنسية وتغلب النفوذ الانجليزى وأثره فى حياة البلاد — نظام الامتيازات الأجنبية والقضاء المختلط .

مقدمة

يقول فردريك ليبلاى المهندس الفرنسى والاجتماعى الكبير فى نظريته المشهورة ان كل شعب من الشعوب هو نتيجة التفاعل بين ثلاثة عوامل ← المكان ← العمل ← السكان . وهذا ما دعا قسم الخدمة العامة الى الاهتمام بوضع كتاب (حضارة مصر الحديثة) الذى يدور حول نقطة واحدة ويبحثها من وجوه مختلفة . فيشمل هذا الكتاب اثنى عشر موضوعاً روعى فى ترتيبها قاعدة ليبلاى . ومع أنه لا يمكن تطبيق هذه القاعدة حرفياً الا أن جميع موضوعاته ترمى الى بيان تأثير هذه العوامل الثلاثة مجتمعة . فان حالة كل جماعة من الجماعات التى يتألف منها الشعب تتوقف الى حد كبير على المكان الذى يعيشون فيه أى طبيعة بلادهم وجوها ومواردها . أما طرق استغلال هذه الموارد أى العمل فانها تحدد نوع الأعمال التى تقوم بها الجماعة لكسب المعيشة . وهذه تؤثر فى علاقة الجماعة بغيرها من الجماعات لا سيما اذا كانت التجارة أحد هذه الأعمال . غير أن العامل الأخير هو أهمها لأنه الجماعة نفسها ، أى السكان . فان سبيل ائتلاف الجماعة وطرق استغلال مواردهم ونوع الحضارة التى يعملون على ترقيتها انما تتوقف على مبلغ إدراكهم ونبوغهم

دخلت الحياة المصرية فى عصر جديد منذ نشوب الحرب العالمية مما أدى الى اهتمام المصريين المتعلمين بأثر هذه العوامل الثلاثة التى يتوقف عليها تقدم البلاد فى المستقبل . فكانت الشؤون الزراعية من زمن بعيد أهم ما يشغل بال المصريين . غير أن الشؤون الصناعية أخذت تنال قسطاً وافراً من العناية فى عصرنا الحاضر وكذلك الأحوال التجارية التى يتوقف عليها رواج الزراعة والصناعة . ولم يكن اهتمام المصريين مقصوراً على الأمور المادية فان الحالة الاجتماعية والفكرية عنى بأمرها سواء ماكان منها متصلا بحاجات الأهالى الأساسية كالمعيشة والصحة والتعليم ، أو خاصاً بالتربية والتهذيب كاستعمالهم لأوقات الفراغ ، أو آدابهم وفنونهم ودينهم . هذه الموارد المادية والعقلية تحتم علينا أن نبحث فى الطرق التى تضمن نموها وتقدمها ، وهذا البحث يثير امامنا عدة مسائل كالأميال العامة وتقدم أنظمة الحكومة وعلاقتها بالأمم الأخرى .

فمن الموضوعات الأثنى عشر تتناول الثلاثة الأولى موارد البلاد المادية من زراعة ومعادن وتجارة وصناعة ، ثم يلى ذلك ستة موضوعات تبحث فى حالة مصر الاجتماعية وكيفية تقدمهما ، كعمل الفلاح والصانع ، وانتشار الآراء فى انحاء البلاد ، وتقدم المواصلات ، وحالة الأهالى الصحية ، واستعمال أوقات الفراغ ، والحياة المنزلية ، وبعد ذلك تعالج الحياة الروحية التى تتمثل فى أدب وفن مصر ، والحياة الدينية فى موضوعين . وأخيرا تبحث ثلاثة موضوعات فى التنظيم الاجتماعى . فيتناول الأول أثر التنظيم الاعتيادى ، العادة والرأى العام . ويتناول الثانى التنظيم الرسمى بواسطة الحكومة . ويعالج الثالث العلاقات الدولية وأثرها فى توجيه الحياة الأهلية

هذه الموضوعات القيت فى اثنتى عشرة محاضرة بقاعة يورت التذكارية فى فبراير ومارس وابريل سنة ١٩٣٢

وكتب كل موضوع منها متخصص له ومعروف بصحة البحث وسعة الأطلاع وطول الاختبار . وعليه سيكون كل موضوع مرجعاً وملخصاً لأحدث الحقائق والنظريات . ويمتاز هذا الكتاب بأنه من وضع المصريين الذين لا تشوب آراءهم صبغة أجنبية .

وقد عالج كل محاضر موضوعه على طريقته فى التفكير والأسلوب الذى ارتضاه ومن الواضح بناء على هذا ان المحاضرين غير متضامنين فيما تضمن هذا الكتاب من مختلف الآراء . وقسم الخدمة العامة يسره أن يعرض هذه الأبحاث فى حيدة تامة لأن مهمته ان يسعى لتنشيط الفكر لا أن يسيطر عليه

والأمل وطيد بأن يؤدى هذا الكتاب الى زيادة تفاعل العوامل الثلاثة ← المكان ← العمل ← السكان ، وتقدم المرافق الوطنية وازدياد أثرها حتى ينعكس ترتيب النظرية فتصبح ← السكان ← العمل ← المكان . أى أن السكان يصبحون العامل المسيطر فى انتاج العمل حسب ارادتهم وبكيفية تؤدى الى تحسين المكان وجعله جذاباً منعشاً وهو منتهى الفن الذى يتجلى فى سلسلة الموضوعات حيث تظهر عبقرية مصر الحديثة وطموحها ؟

ونرل كليلاند

مدير قسم الخدمة العامة

صاحب العـــزة فؤاد بك أباظه
مدير الجمعية الزراعية الملكية

ينابيع الثروة الزراعية فى مصر

لحضرة صاحب العزة فؤاد بك اباظه

يخيـــل الىّ حين أتكلم عن ينابيع الثروة الزراعية فى مصر اننى انما أتناول حديثاً معاداً وأروى قصصاً تناولتها الأفكار ، وأعتقـــد اعتقاداً جازماً انه ان كانت مصر فى حاجة ماسة وضرورة لازمة فان هذه الحاجة وتلكم الضرورة هما تعمق الافكار المصرية و بذل أقصى الجهود فى بحث ينابيع الثروة الزراعية ينبوعاً ينبوعاً ، وأن تكون العناية بهذه المباحث هى شغلنا الشاغل تتذكرها كلما أشرقت شمسنا المنيرة ونكرر ذكرها عند مغربها ايضاً . ومن تغـــذى بنعم مصر الزراعية لن ينكر ما لتوالى البحث فى ينابيع هذه الثروة من الفوائد الجليلة والنعم التى تتجاوز الحصر والعد . ولعلى بما سأبينه من قصص حدثنا التاريخ عنه نتبين ما نحن ملزمون به وما يجب أن نبـذل فى سبيله كل مرتخص وغال حتى ندفع عن أنفسنا ما تهـددنا الأيام به من الضوائق الزراعية .

وأتقدم بحثى بكلمة مجملة عن مصر الزراعية

مصر بلد زراعى

مصر وادٍ استوى بين صحراوين يشق وسطه نهر النيل الميمون الروحات المبارك الغدوات . الذى يفيض كل عام على هذا الوادى بما يملوه قوة و يزيد فى اخصابه واعداده للانبـات والاثمار معاً . لولاه لعم الجـدب وأقفرت الأرض وعم سطحها تراب تذروه الرياح وأصبحت جزءاً متمما للصحراوين اللتـــين تكتنفانهـا . فهى كما قيل بحق « هبـة من النيل » ونعمة من نعمه نرجو الله دوامها ونسأله أن يقدرنا على شكره بالمحافظة عليها ، والسعى فى مواصلة الانتفاع بها ، والعمـــل الدائم على زيادة الاثمار والانتاج بما نتخذه من التدابير الصالحة للارتواء بمائه ولادخاره لأوقات الحاجة ، حتى يعم النفع ويزداد الانتـاج .

تلك حالة مصر منذ عرفها التاريخ من أول عصوره الى اليوم. فان أسفاره تحدثنا عن الزراعة فى مصر ومبلغ عناية القائمين بالأمر فيها بهذا النهر الكريم — لا — بل النعيم الدائم . والخير المتتابع يتوالى علينا فيضه وبتكرار زيادته يستعاد فينا النشاط وتنشرح له صدورنا، ونقبل على هذه الأرض التى تنادينا للعمل وتستقبلنا بوعود لم تخلفها، فكأنما كلما روبت من ماء هذا النهر الكريم تقول لسكانها « هلموا الىّ ببذوركم أردها عليكم زرعاً مستوياً على سوقه يملأ جيوبكم نضاراً وبيوتكم خيراً »

ان مصر تعتمد فى ثروتها على الزراعة فهى رأس مالها منذ القدم ولقد تعلق مبلغ الرخاء فيها بالزراعة على تعاقب الأجيال فعم الرخاء كلما صاحت الزراعة . وحلت بالناس الضوائق وهددتهم الفاقة كلما اعتلت نظم الزراعة وتدهورت نتائجها وقلت حاصلاتها . كما أن الزراعة أثر من آثار النيل ونعمة من نعمه .

بقى علىّ أن أضم الى النيل تلك اليد العاملة والساعد المفتول والنفس المطبوعة على العمل والصبر المنتج ، أى الفلاح المصرى . فهو العامل الذى تتحقق على يديه نتائج العمران فى هذا البلد . ولا يفوتنى أن أضم الى العوامل التى جعلت مصر بلداً زراعياً منذ نشأته ، شمسها المشرقة تلقى بأشعتها على هذه الأرض فتنقى تربتها وتدفع غوائل البرد عن نباتها وتأخذ بيد ذلك النبات الى مستوى النماء الصالح ثم تعاونه على اخراج ثمره دائبة فى مساعدته على النضج حتى يحين حصاده وجنيه . ولا تقف آثارها عند هذا الحد بل أن الفلاح يستعين بضوئها وحرارتها على تجفيف ثماره حتى تصلح للحفظ

هذه العوامل مجتمعة هى التى جعلت مصر بلداً فريداً فى جميع الأدوار الزراعية . ففى العهد الأول عرفنا من التاريخ أن مصر رتبت حياتها الزراعية تبعاً لفيض ذلك النيل . فان الفلاح المصرى فى ذلك العهد كان ينتظر انكشاف الأرض ونزول الماء عنها بعد الفيضان حتى يهب مشمراً عن سواعده يلقى فيها بالبذور قبل أن تجف ، ثم يعمل على أن تتوارى هذه البذور فى طيات الأرض حتى تأخذ لنفسها الغذاء الصالح والماء الضرورى ، ثم لا يلبث أن يراها وقد لبست حلة خضراء تلاعبها الرياح وتساعدها حرارة الشمس على النماء . ولا تكاد تمر على هذه الحالة بضعة أشهر حتى يسعى هذا الفلاح لحصد ما زرعت يداه وجمع الثمرة التى كان يرجوها . وهذا النوع من الزراعة بقيت عهوده متتابعة فى مصر حتى عصرنا الحاضر فى بعض الجهات وهو المسمى « برى الحياض » فى

مصر العليا . ولقد عرفنا أيضاً أن المصريين فى العهـــد القديم طمعوا فى زيادة الثروة والانتاج فعمـدوا الى النيـــل و بسطوا بعض نفوذهم عليـه . وكان من آثار هندسة الرى لهم أن حولوا مجرى النيل ، وأقاموا عليه المقاييس ، ومدوا منه الفروع تشق جنبات الأرض البعيدة عنه لتصل ماء النيل بها.ولما لم تتحقق كل رغباتهم فى هذه الاعمال وحدها اعتزموا عملا يعـد من اكبر الأعمال الهندسيـة فى أيامهم فأنشأوا بحيرة الفيوم ليختزنوا فيها كميات عظيمة من ماء النيل يروون بها أرضهم رياً دائماً حتى يتمكنوا من التنويع فى الحاصلات . ولقد اجمعت المصادر التاريخيـــة ، أو كادت ، فيما تحدثنا عن المقدار المزروع فى هذا العهد السحيق . فان الأرض المزروعة فى هذا العهد كانت أوسع من الأرض المزروعة الآن . فقد أربت المساحة المزروعة فى عهد الأسرات على السبعة ملايين من الأفدنة ، و بلغ ما أنتجته الأرض من القمح والشعير فى السنـة الواحدة نحو اربعين مليوناً من الأرادب ، وذلك يقارب خمسة أمثال ما تنتجه البلاد المصرية فى السنة فى الوقت الحاضر . حتى لقـد كانت مصر فى هذا الوقت ينبوعاً غذائياً لجاراتها ، تصدر اليهـا القمح وتقف فى وجه القحط الذى كان يهاجم هذه الأقطار المجـاورة فى سنوات متعاقبة . وتلك قصة يوسف عليه السلام حينما جعله عزيز مصر على خزائن الأرض تنبئنا بأفصح بيان وأصدق خبر عن سيارات الأمم المجاورة حينما هبطت مصر تشـــترى منها القمح وتعود به الى بلادها . وأحب أن تذكروا أن سكان مصر فى هذا العهد لم يكونوا حفنة من الناس بل كانوا اكثر عدداً من سكانها الآن ، فقد بلغ عددهم حينئذ ثمانية عشر مليوناً ، عمتهم غلات مصر وفضلت حتى وسعت الأقطار الاوربية وأخص بالذكر منها روما

ذلكم مبلغ ارتقاء مصر فى العصور القديمة ، ولـكن شأنها شأن غيرهـا فى الخضوع لنواميس العمران وسنن الحياة فقد اعتورتها حوادث الأيام ودال ملـكها ونزلت الى عصور الجهالة المظلمـــة حتى كان عدد سكانها فى أول القرن الماضى — أى القرن التاسع عشر — ٣,٤٣٠,٠٠٠ نسمة وانحطت مكانة الزراعة وأقفرت مساحاتها الواسعة حتى هبط المزروع من أرضها فى ذلك الوقت الى ٣,٦٨٥,٦١٣ فداناً .ثم بدأت من ذلك الحين تسترد عظمتها وما كان لها من الرخاء ونماء الثروة الزراعية على يد ذلك المصلح العظيم منشىء مصر الحديثة صاحب الآثار الخالدة والنعم المشكورة رأس الأسرة المالكة محمد على باشا

فما تبوأ أريكة الولاية المصرية فى أوائل القرن الماضى حتى نهض بمصر وسعى سعياً متواصلا فى تحسين زراعتها فتكاثر سكانها واتسعت مساحة الزراعة فيها . وانى أرى قياماً بالواجب واعترافاً بالجميل لهذه الصفحة الخالدة أن أستعرض بعض ما قام به من الاصلاح الزراعى وتنظيم الرى فأقول :

عمد محمد على باشا الى إصلاح نظام الرى وجعله دائماً فى الدلتا ، والى تغيير زراعة الحياض بالزراعة الدائمة والمتنوعة . فكان أول ما قام به تطهير الترع حتى يتسع مجراها لحمل كميات كبيرة من الماء . ولما لم يحقق هذا بعض رجائه عمد الى النيل نفسه فأخذ يرفع مناسيب مياهه ، فأقام عند القناطر الخيرية هذه القناطر العظيمة التى ضمنت للوجه البحرى كله رخاء دائماً بما شقه من الترع والرياحات التى تحمل مياه ذلك النهر الى أراضيه المترامية الأطراف . وضع الحجر الأساسى لذلك البناء العظيم (القناطر الخيرية) فى سنة ١٨٤٧ . ولما رأى من تولوا بعده أثر هذه القناطر بذلوا المال فى تقويتها سنتى ١٨٨٦ و ١٨٨٧ وهكذا استمرت أعمال تنظيم الرى فى الحكومات المصرية المتعاقبة ، فحفرت المصارف العمومية والفرعية وزيد فى عدد الترع . ومن أكبر أعمال الرى عوداً بالفائدة على الزراعة المصرية ذلك البناء العظيم الذى أقيم عند مدينة اسوان (خزان اسوان) عام ١٨٩٩ وما زالت الحكومات ساهرة على ذلك البناء توالى تعليته وتقويته وتتعهده بالصيانة الدائمة حتى كان من آثاره أن قلت زراعة الحياض واتسعت مساحات الرى الدائم فى مصر العليا أيضاً . ثم توالت بعد ذلك إقامة القناطر فانشئت قناطر اسنا عام ١٩٠٩ ونجع حمادى الجارى العمل فيها الآن . وأسيوط عام ١٩٠١ وقناطر زفتى عام ١٩٠٢ لرفع منسوب المياه خلفها وتغذية الترع المتفرعة من النهر عندها . وكان من آثار كل ذلك أن بلغت مساحة الأرض المزروعة فى مصر هذه السنة — ٣١٧و٦١٦و٥ من الأفدنة . وما زالت البلاد تنظر بعين الأمل الى المستقبل القريب الذى تتم فيه مشروعات الرى الكبرى فتنهض الزراعة نهضتها الأولى وتنجو البلاد من الضوائق الزراعية التى تهددها . فان عدد سكانها قد نما نماء سريعاً جداً حتى بلغ فى الاحصاء الأخير ٠٠٠و٢١٣و١٤ نسمة ، لكن مساحة الأراضى المزروعة ٣١٧و ٦١٦و ٥ فدانا وهو مقدار كما تعرفون قليل جداً بالنسبة الى عدد السكان ، ويدل دلالة صريحة على أن البلاد ما زالت مهددة بخطر القحط والمجاعة

وضروب البطالة والعمال العاطلين الذين لا بد لنا من ان نتدبر شأنهم ونسعى فى إيجاد أعمال لهم . ويكفينى دليلا على هذا أن اذكر النسبة بين عدد السكان وعدد الأفدنة فى أزمنة سابقة وفى الوقت الحاضر ، فان ما يخص كل خمسة أشخاص من السكان فى هذا الوقت هو فدان من الأرض — نسبة ضئيلة جداً — فقد كانت فى أول عهد محمد على باشا لكل شخص واحد فدانا وفى سنة ١٨٨١ كان لكل ثلاثة أشخاص فدانان . لذلك كان واجباً محتوماً علينا أن لا نتوانى فى مواصلة السعى فى توسيع المساحات المزروعة واصلاح الأراضى البور واقامة المشروعات الهندسية المساعدة على ذلك . وانى لكبير الأمل أن تكلل مشروعاتنا المستقبلة بالنجاح حتى تنجو البلاد من الأخطار وتتكافأ نسبة الأراضى الزراعية وحاجة السكان الذين ينمو عددهم نمواً مطرداً كل سنة

ولقد كان من اثار منشآت الرى ان نعمت مصر بكثير من صنوف الحاصلات الزراعية التى تحتاج الى الرى الدائم طول السنة . وكان أهم ما تمتعت به من الحاصلات الزراعية القطن .

القطن

قد يظن البعض ان زراعة القطن لم تعرفها مصر الا فى القرن الماضى ، ولكنى أقول أن زراعته كانت معروفة قبل ذلك من زمن بعيد . ومع انى لا أستطيع الجزم بوجوده فى عهد الفراعنة أؤكد أنه عرف فى مصر منذ الفتح الاسلامى ، وان لم يكن فى مقدمة الحاصلات الأخرى ولا فى مستواها ، فان عماد الثروة الزراعية فى هذه العهود كان على القمح والقصب وغيرهما من الحاصلات الأخرى . ولم يكن القطن حولياً كما هو الآن ، فقد كانت أشجاره تعمر فى الأرض وتستثمر فى كل عام شأن أشجار الفاكهة اليوم . ولقد ذكر ابن معاتى خراج مصر فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى (٥٧٢ هـ — ١١٧٦ م) ثم قام حضرة صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسون بتقدير قيمة ذلك الخراج الذى كان يتقاضى عن الفدان الواحد فكانت حسبته ٤٢ قرشا لفدان القطن و٢١٢ قرشا لفدان القصب و ٦١ قرشا لفدان القمح و ١٢٧ قرشا للكتان و ١٢٧ قرشاً للنيلة (من كتاب مالية مصر صحيفة ٢٣٣ و ٢٣٤) ومن ذلك يرى أن القطن لم يكن من الحاصلات الرئيسة فى ثروة البلاد فى ذلك العهد .

فلما استولى محمد على باشا على البلاد المصرية ونهض بها، كما أشرت الى ذلك، كان من آثار نهضته هذه ان استقدم من فرنسا المسيو جومل سنة ١٨٢١ ليستعين به على تنظيم مصانع الغزل والنسج فى مصر. وكان النوع الغالب من القطن اذ ذاك رديئا لا يكاد يصلح الا للتنجيد ولكن مسيو جومل عثر مصادفة فى بعض جولاته على نوع جيد من القطن فى حدائق محوبك، أحد ولاتها، فاعجب برتبته وعرضه على محمد على باشا وأشار عليه أن يزيد مقدار المزروع من نوعه. وأدرك محمد على باشا بثاقب رأيه ما يعود على البلاد من الفوائد الجمة اذا انتشرت زراعته فعمل على تنشيط المزارعين بشراء محصولاتهم القطنية بأثمان مرتفعة. ولم يمض على ذلك الا سنوات قليلة حتى انتشر هذا النوع من القطن وأطلق عليه قطن محوبك أو قطن جومل. ولما أدرك محمد على باشا الثمرة العظيمة من هذا المحصول استورد نوعاً آخر من أمريكا كان يزرع بجزيرة «سى ايلند» فأخذ القطن المصرى بأنواعه يحتل مكانة رفيعة فى الأسواق العالمية وتهافتت على طلبه مصانع النسيج فى فرنسا وانجلترا، ومن جراء ذلك أخذت زراعته تزداد سنة فسنة. فبعد ان كان محصوله فى سنة ١٨٢١ — ٩٤٤ قنطاراً وصل بعد ست سنين أى سنة ١٨٢٧ الى ٣٤,٤٠٠ قنطارا. ثم استمر فى زيادة مطردة حتى وثب وثبة سريعة فى الزيادة بعد حرب أمريكا الأهلية عام ١٨٦٦ حين كثر عليه الطلب فنشط المصريون فى زراعته فاستكثروا منه، ومن ذلك الوقت أصبح القطن الدعامة الأولى فى ثروة مصر الزراعية، ودأبت البلاد فى المحافظة عليه فثابرت على تحسين أنواعه وايجاد أصناف جديدة اختص كل صنف منها بمنطقة من المناطق المصرية. فاختص الوجه البحرى بالأصناف الطويلة التيلة مثل السكلاريدس وغيره والوجه القبلى عنى بزراعة الأشمونى والزاجورا. وكان من سهر البلاد وعنايتها بهذا المحصول ان عملت على تجديد أنواعه كلما شاخ نوع وفسدت تيجته، وكان من هذه الأنواع الجديدة «قطن المعرض» الطويل التيلة والناعم الشعرة الذى أخرجته الجمعية الزراعية الملكية ليأخذ محل السكلاريدس الذى أصابه الانحطاط فى مناطق كثيرة من مناطق الوجه البحرى. كما عملت وزارة الزراعة من ناحيتها على ايجاد «جيزه ٧» وغيره من الأصناف. واشتغل أفراد فى إخراج أقطان أخرى ولا تزال مصر متفوقة بأقطانها من حيث جودة النوع على أقطان الدنيا، مع أن نسبة المحصول المصرى تعادل ٥٪ مما ينتجه العالم وهى نسبة ضئيلة جداً، وعلى رغم ضآلة هذه النسبة فان القطن هو المورد الوحيد العظيم الشأن للثروة المصرية، يرتبط رخاؤها به، فهو

محور سعادتها وشقائها . فقد بلغت قيمة القطن وبذرته ما يناهز ٩٠٪ مما تصدره مصر جملة . وامتازت سنة ١٩١٩ بظاهرة بارزة فانه بعد أن خرج العالم من الحرب كان فى شبه مجاعة قطنية فزاد الطلب على القطن وارتفع ثمنه حتى باعت مصر محصولها منه بما زاد على ١١٧ مليون من الجنيهات . غير أن الطفرة التى طفرها العالم فى سبيل الانتاج انتكست من جميع النواحى فزاد الأنتاج وقل الأستهلاك وأصبح العالم يعانى أزمة طاحنة ، فهبطت اسعار القطن وتقاص ظل الرخاء عن البلاد . وبعد ان كانت مصر تجنى ثمناً لقطنها الذى بلغ نحو ثمانية ملايين قنطار فى كل من سنتى ١٩٢٨ - ١٩٢٩ ما يزيد على خمسين مليونا من الجنيهات اصبحت وما جنته فى كل سنة من السنتين الأخيرتين لا يكاد يزيد على ثلث هذا المبلغ

ان شبح الازمات المخيف والخراب الذى يحتل نواحى البلاد فيقض علينا المضاجع ، ويهزم جند الرخاء ، يفيدنا بما يثيره من الهمم ويبعثه من قوى النشاط الفكرى ، ويحمل المصلحين من اهل هذا البلد على الاحتيال فى تخفيف ويلات هذه الضائقة ، وانقاذ البلاد مما وقعت فيه وابتكار ما تتسلح به ضد هذه النكبات فى المستقبل . واظهر اثر لهذا الدرس ان اتجهت نفوسنا جميعاً الى البحث عن عمد كثيرة يرتكز عليها بناء الثروة الزراعية المصرية . وكان أول ما اتجهت افكار المصلحين اليه ان لا يعتمد المصريون فى ابتناء ثروتهم على القطن وحده ، ورأوا البلاد وهى تستورد من مواد الغذاء ما يستنزف اموالا كثيرة من أيدى اهليها فى غير ضرورة لو انهم عولوا على الاكثار من زراعة الحبوب ، والتنويع فى الحاصلات الزراعية الاخرى حتى تغنى البلاد بمنتجاتها اولا وترسل ما يفضل عن حاجاتها الى البلاد الاجنبية ثانيا فتكسب بذلك توازنها الاقتصادى الذى تعرفون أن اساسه زيادة الصادر على الوارد . وكان ايضاً من اثر عناية المصلحين فى البلد ان أنشأوا مصانع للغزل والنسج ، وصناعات زراعية متنوعة ، لتغنى بها البلاد ولو قليلا عن استيراد منسوجات البلاد الاجنبية . وهى نهضة مباركة ترجو البلاد الخير كل الخير منها . فانها وان كانت تبدو ضئيلة فى مبدئها فذلك شأن الأعمال الكبيرة تبدو ضئيلة ثم تنمو حتى تبلغ مستوى رقيها انشاء الله .

ولم تقصر جماعة المتخرجين من مدرسة الزراعة العليا التى اتشرف برآستها فى اداء ذلك الواجب المقدس عليها نحو البلاد ، فقد نشطت عقول رجالها الى البحث فيما حل بنا

من ازمات خطيرة واتجهت الى الحكومة بندائها المتوالى لانقاص زمام القطن حتى تنزع البلاد عن عنقها نير الاستعباد القطنى اثروتها . كما طلبت اليها رفع الرسوم الجمركية على الواردات الزراعية وخصوصا القمح والدقيق لتحمى حاصلات البلاد من تدهور اثمانها . ولقد اجتمعنا مرات كثيرة ، اذكر من بينها اجتماعنا بالنادى الزراعى القيت فيه كلمة جاء بها « انه من العيب الفاضح بل من الاجرام الوطنى فى حق بلادنا الزراعية أن تخرج من جيوبنا كل عام ملايين الجنيهات لشراء القمح والدقيق »

القمح

تزرع مصر قمحاً نحو مليون ونصف مليون من الأفدنة ، ومحصول ذلك المقدار يزيد على سبعة ملايين أردب من القمح . قيمته ٥ و١٢ ٪ من قيمة الحاصلات الزراعية المصرية جميعها كما دل على ذلك متوسط الاحصاء فى العشر سنوات الماضية ، ونسبته الى محصول القمح فى العالم تساوى ١ ٪ وثمن ذلك المحصول فى مصر يبلغ اثنى عشر مليون جنيه . ومع أن هذا المحصول يستهلك جميعه فى البلاد فأنه لا يكفى حاجتها ولذلك تستورد قمحاً ودقيقاً تبلغ قيمتهما نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات فى كل سنة . وقد قدمت أن مصر ايام الفراعنة كانت تنتج من القمح اربعين مليوناً من الأرادب تسد به حاجاتها و يفيض عنها الى جيرانها ، حتى لقد بلغ روما فى ايطاليا . ولعل ذلك يبدو غريبا لاول نظرة ، ولكنى ازيل هذه الغرابة بأن مصر انصرفت عن القمح وشغلت نفسها بزراعة القطن حينما عرفت انه ثروة لا يستطيع القمح أن يدنو منها فقد كان يعوض على البلاد اضعاف ماتنفقه على ثمن القمح الذى ذكرته . ولكن الحالة فى هذه الأيام قد ساءت ونزل القطن الى مستوى لا تستطيع البلد معه أن تبذل المال فى ثمن القمح الاجنبى ، فالواجب عليها أن تسارع الى الأستغناء عن الواردات الاجنبية من القمح بما تنتجه ارضها المستعدة لهذا الانتاج

وبعد أن بينت أهمية القطن فى الأيام الماضية ، وأهمية الأكثار من زراعة القمح فى الأيام الحاضرة ، أرى حتما علىّ أن استعرض المحصولات الأخرى التى لها اثر ظاهر فى تكوين الثروة الزراعية

البصـــل

البصل حاصل مهم عرفه المصريون منذ أقدم عصورهم الى اليوم بتفوقه على جميع اصناف البصل فى البلاد الأخرى، ولذلك ترجو البلاد رواج سوقه فى الأقطار الأجنبية وتعمل على تنظيم اصداره وحفظه من التلف حتى يصل الى هذه الأسواق فى حالة حسنة تضمن رواجه. ومنه تصدر مصر الى الخارج نحو ثلاثة أرباع ما تنتجه ولذلك تعده فى المرتبة الثانية من المحصولات التى تصدرها

وتشغل زراعته فى البلاد نحو ٤١ ألف فدان تنتج اكثر من ستة ملايين قنطار تبلغ قيمتها مليون جنيه

قصب السكر

ومن المحصولات المهمة فى مصر قصب السكر، وتبلغ الأرض المزروعة قصباً أربعة وخمسين الف فدان تنتج محصولا قيمته نحو مليون وأربع ألف مئة جنيه. وقدعنى اولو الأمر بتحسين هـذه الزراعة من عهد محمد على باشا الى الآن. ومع انصراف البلاد عن زرعه قليلا لطغيان القطن عليه بقيت الحاجة الى السكر والعسـل تستحث الأهلين على زرعه حتى عاود النشـاط هذه الزراعة بعـــد أن اتخذت الحكومة التدابير الضرورية لحمايتها وحماية الصناعة الناشئة عنها اعنى تكرير السكر. واكثرما يزرع القصب فى اراضى الوجه القبلى لانها أصلح لانتاجه

الذرة

الذرة غذاء جمهور المصريين وتزرع فى أرض تكاد مساحتها تبلغ مليونى فدان يقدر محصولها بنحو ثلاثة عشر مليون اردب تختلف قيمتهـا باختلاف السنين، ولـكن متوسط القيمة السنوية لهـذا المحصول يزيد قليـلا عن اثنى عشر مليون جنيه

الذرة العويجه

الذرة العويجه تزرع فى الوجه القبلى . والمساحة المزروعة منها تبلغ ربع مليون فدان قيمتها مليون وسبعمائة وخمسين الف جنيه

الأرز

تختلف زراعة الأرز فى مصر بحسب كمية المياه التى يجود بها النيل . واكثر ما يزرع فى الأراضى الواقعة شمال الدلتا وفى جهات معينة من مديرية الفيوم . وقد اهتم المزارعون أخيراً لهذا النوع من المحصول رغبة منهم فى أن يجعلوا له مكاناً بين محصولات البلاد . ولجودة نوعه يصدرون كميات كثيرة منه الى البلاد الأخرى لارتفاع ثمنه هناك و يستوردون بدلها أنواعاً رخيصة يتحمل صغار المستهلكين أثمانها . ومساحة الأراضى المزروعة منه تبلغ ٣٤٥,٠٠٠ فدان ثمن ما ينتج منها يبلغ نحو ٢,٨٦٥,٠٠٠ جنيه

الشعير

يزرع الشعير فى الاراضى الضعيفة التى لا تنهض بزراعة القمح . وتبلغ الأرض المزروعة منه ما يزيد على ثلثماية الف فدان يقدر محصولها بنحو مليونى اردب ثمنها نحو مليون ونصف مليون جنيه

العدس

يزرع العدس فى أرض مساحتها ٧٤,٢٤٥ فداناً ، تنتج نحو ثلثمائة الف أردب تبلغ قيمتها نحو ٤٨٤,٠٠٠ جنيه و يزرع عادة فى الوجه القبلى

الفول

تغلب زراعته فى الوجه القبلى ، والأرض المزروعة منه نحو ٣٢٣,٧٥٨ فداناً تنتج نحو مليونى اردب قيمتها نحو ٣,٣٤٢,٠٠٠ جنيه .

البرسيم

وهو غذاء الحيوان غضاً وجافاً وتكثر زراعته فى البلاد المصرية . وله تأثير عظيم فى إخصاب الأرض وتجديد قواها

الكتان

لا تزال زراعة الكتان ضئيلة فى مصر ، وللبلاد أمل كبير بتنشيط هذه الزراعة ونجاحها بعد أن اتجهت عناية رجال بنك مصر الى انشاء شركة له تعمل على رواج سوق محصوله ، كما تعمل على تجهيز اليافه

وفى مصر محصولات شتى لها أهمية ثانوية. من بينها الحلبة ، والفول السودانى ، والحمص ، والترمس ، والسمسم ، والحناء ، وقيمتها فى الثروة الزراعية قيمة ثانوية

فلاحة البساتين والخضر

ولا يفوتنا أن نذكر شيئاً كبير الأهميـــة عظيم الفائدة وهو فلاحة البساتين والخضر فقد تنبه المصريون فى السنوات الأخيرة الى حاجة البلاد الى منتجات البساتين التى تحتل الأسواق المصرية من الخـــارج . فعمل كثير من الزراع على الاكثار من أنواع الفاكهة . وتوافرت الجهود فى تحسين أنواعها . وظهرت ثمرة تلك الجهود فى ما شهدته البلاد من الأنواع التى لا تقل جودة ان لم تزد على نظائرها مما تستورده البلاد . وقد عنى اولو الأمر بحماية هذه المنتجات فرفعت قيمة الضريبة الجمركية على الفواكه المستوردة من الخارج حماية لحاصلات البلاد . ولنا أمل كبير بأن يستكثر الزراع من هذا النوع من المحصول وأن يعملوا على اتخاذ أحسن التدابير وأمثل الطرق فى استثمارها والانتفاع بمصنوعات تتخذ منها حتى تستطيع أن تصدر ما فضل من حاجتها فتحقق بذلك مورداً جديداً للثروة تزيد فى نمائها وتكثر من مواردها ، ولعل هذا البحث يبـــدو تافهاً للنظر السطحى ، ولكنى أود أن اذكر ما دفعته البلاد فى سنة ١٩٣٠ ثمناً لما استوردته من الفواكه والخضر بأنواعها حتى يتبين عظم هذه المبالغ وكبرها ، ووجوب الاهتمام بهذا المورد العظيم الشأن .

(١) فواكه طازجة وجافة	١,٠٥٣,٥٩٢	جنيهاً
(٢) بطيخ	٨٨,٥٧٧	»
(٣) شمام	٢,٥٠٣	»
(٤) برتقال ويوسفى	٧٩,٧٣٢	»
(٥) خضروات طازجة	٨,٣٧٤	»
(٦) فاصوليا ولوبيا	٦٢,٧٦٠	»
(٧) بطاطس	١٣٥,٥٥٢	»

ولقد رأينا استغناء البلاد المصرية فى هذا العام عن بعض ما تستورده من الفاكهة كالبرتقال والبطيخ، ولنا أمل وطيد بتقدم زراعة الفاكهة والخضر فى بلدنا لما شاهدناه من اقبال الزراع عليها فى السنوات الأخيرة

النخيل ومحصوله من البلح

يقدر عدد النخيل بالقطر المصرى بنحو ١١ مليون نخلة تنتج نحو ١١ مليون قنطار من البلح تبلغ قيمتها نحو ١,١٠٠,٠٠٠ جنيه. وجميع هذا المحصول يستهلك فى داخلية البلاد.

ولقد سبق لى أن القيت محاضرة عن المباحث الزراعية بهذه القاعة فى السنة الماضية جاء فيها « فمن المباحث التى عملت تجفيف البلح حيث يظهر بكميات وافرة فى الأسواق وفى وقت واحد وفى فترة قصيرة، فسعت الجمعية الزراعية الملكية حوالى عام ١٩٢٠ فى تجفيفه، ولا يزال قسم البساتين التابع لوزارة الزراعة يوالى سعيه فى هذا الصدد وأعماله فى هذا الموضوع تبشر بالنجاح إذ تمكن من حفظ أنواع كثيرة فى حالة جيدة صالحة لاستعمالها فى مصر ولتصديرها الى الخارج »

وأظن أن بعضاً منكم إن لم يكن كلكم قد رأى نتيجة هذا المجهود، فقد ظهر هذا البلح المجفف فى الأسواق وكان الأقبال عليه عظيما جداً، حتى أن الكميات التى أخرجها قسم البساتين نفدت فى وقت قصير، وذلك راجع الى جودة الصنف ورخص ثمنه بالنسبة الى الأنواع التى نستوردها من الخارج. والأمل كبير بأن لا يمضى وقت طويل حتى تستغنى البلاد عن المقادير الكبيرة التى نستوردها سنوياً من الخارج وندفع

فيها مبالغ طائلة. فان مصر تستورد كل سنة من البلاد الأجنبية نحو ٣٠٣٢ طناً من البلح قيمتها ٢٧٠٦٨٢ جنيهاً كما تستورد من السودان ٣٩٢٤ طناً قيمتها ٤١٠٧٠٣ جنيهات

الآن وقد انتهى بنا البحث فيما تخرجه الأرض من الثروة الزراعية بما دعت الحال اليه من الاجمال والاختصار فى كثير من موارده فان استقصاء البحث فى كل مورد من الموارد التى أتيت عليها لا يتسع له هذا المجال، ولا بد له من كتب طوال يقضى قارئوها الأيام الطويلة فى الوقوف على الحقائق التى تدون فيها. غير انه بقيت لنا كلمة قصيرة نتناول فيها ملحقاً من ملحقات الثروة الزراعية وأثراً من آثارها وهى منتجات الحيوان الذى يعيش على الزراعة ويستخدم فيها، ومن ذلك:

النحل

ازدهرت هذه الصناعة فى السنتين الأخيرتين ازدهاراً يبشر البلاد بخير قريب تغنى به عن استيراد هذا الغذاء الطيب النافع. ولعل الحركة الجديدة تخرج البلاد منها ظافرة بقدرتها على الاصدار بدل الاستيراد فتخفف بذلك عبئاً ثقيلا من اعباء النفقات على نفسها، وتزيد فى موارد ثروتها زيادة جديدة، وتضم الى الصناعات التى اخذت تحيا فى النواحى الزراعية مثل حفظ الخضر والفاكهة وعمل الصلصة والنشاء صناعة جديدة هى هذه الصناعة التى اتحدث عنها

الحيوانات الزراعية ومنتجاتها

ولا يسعنى وانا اتكلم عن تربية النحل أن اترك المنتجات الحيوانية الاخرى كصناعة الزبد والجبن التى لا اشك فى انكم قد رأيتم انواعاً كثيرة منها فى ما قدمته المصانع المصرية والمدارس الزراعية فى معرض الجمعية الزراعية الملكية الذى اقامته فى السنة الماضية. وهى صناعة يشعر كل مصرى بأمله ورجائه الحار فى تقدمها وترقيتها حتى تخلص البلاد من هذا الاحتلال الاقتصادى الغذائى الذى بقيت مصر من جرائه فى اسر كثير من البلاد القريبة لحاجتها اليها فى أمس ضروريا تها، وذلك هو الغذاء. فانه اذا تحقق لنا هذا الرجاء وهو لا بد (ان شاء الله) من تحققه، زال عن هذه البلاد كابوس الحاجة وتوفرت فى جيوب اهليها المبالغ الطائلة التى تستنزف كل سنة فى استيراد هذه الضروريات الغذائية.

ويحتاج التقـــدم فى الصناعة التى ذكرتها الآن الى العناية الكبيرة بالماشية ، فان الذى يتتبع الاحصاءات يرى أن عدد الأبقار لا تزال نسبتـــه ضئيلة بالنسبة الى عدد السكان ولا تزال بنا حاجة الى الاستكثار من عدده لســـببين . أما أحدهما فهو أنه يكثر فى مصر الزراع الصغار الذين يعتمدون على الماشية فى حرث الأرض وسقيها لأن ضيق زراعاتهم لا تساعدهم على استخدام الآلات الحديثة . وأما الثانى فهو حاجة الصـناعة المتقدمة الى الاكثار من صنوف هذا الحيوان ومن الجاموس أيضا ، مع العلم أن الصنف الأخير أعود بالفائدة على صناعة الزبد والجبن والألبان لغنى لبنه بالمادة الدهنية التى فيه ولوفرة الكمية التى تعطيها الجاموسة فى السنة

بقى أثر هذه الحيوانات من الناحية الغذائية ، فلحومها من المواد التى لا غنى للانسان عنها مهما نزلت به الدنيا ، ولولا وجود هـــذه اللحوم ورخص اثمانها لاحتلت جسومنا الامراض التى تعترى الفقراء الذين لا تساعدهم الأيام على نيل مقدار كاف من اللحم كل أسبوع

وما تقدم ذكره يكفى لاستنهاض الهمم وتضافر الجهود وعقد العزائم على مساعدة البلاد وانعاشها مما وقعت فيـــه من ازمة مخربة . فان الأعمال الجسام لا يرجى تمامها الا بتضافر الايدى العاملة عليها مهما كانت هذه الأيدى قليلة فقد علمتنا التجارب وتواريخ الشعوب أن الأتحادات والنقابات العظيمة ذات الآثار الخالدة فى الامم والنعم المشكورة فيها انما قامت على ايدى جماعات كانت فى البداءة قليلة ضئيلة ثم تداركها النماء وتلاحقت قواها حتى ظهرت فى جـلال مظهرها وجماله ؟

جناب الدكتور و . ف . هيوم
مستشار فنى قسم المساحة الجيولوجية

ثروة مصر المعدنية

لجناب الدكتور و . ف . هيوم

مستشار في قسم المساحة الجيولوجية

(ترجمها الاستاذ محمود ابراهيم عطيه مفتش المساحة الجيولوجية)

يضطرنى قصر الوقت وتشعب أطراف الموضوع للاكتفاء بالتحدث اليكم عن بعض النقط الهامة، وسأبدأ محاضرتى بمناقضة القول الشائع « بأن مصر ما هى إلا هبة النيل » . حقاً أن مصر تعتمد فى حياتها و بقائها واستقرارها على نهر النيل ، ولولاه لما وجد أحد منا هنا . ولكن مصر تدين بعظمتها وجاهها ومكانتها كقوة فى العالم ، للصحراء لا للنيل . فمن صخور الصحراء شيدت الأهرامات وأعظم الهيا كل المصرية . ولولا وفرة أحجار البناء فى الصحراء التى تكتنف مدينة القاهرة لما أمكن قيام هذه المدينة العظيمة

وقد استخرج من الصحراء الصوان والنحاس والذهب ومعادن أخرى استعملت لأغراض حربية أو تجارية أو كأدوات للزينة . وللصحراء تاريخ طويل وعجيب، وبخاصة تاريخ صحراء مصر الشرقية الواقعة بين نهر النيل والبحر الأحمر . فلقد تعاقبت على هذه المنطقة فترات انتعشت فيها حياة التعدين وأخرى أصيبت خلالها بالأضمحلال . ولا بد أن كان قدماء المصريين على علم تام بالثروة المعدنية . فهم أول من كشف عن كثير من المعادن القيمة ، ولقد أخذوا منها لسوء حظنا كميات عظيمة استعملت فى شئونهم الخاصة وتركوا لأحفادهم نصيباً ضئيلا من هذه الثروة . ومن عهد ملوك المصريين القدماء الى عهد سيادة العرب استمر التعدين فى الصحراء لمنتجات عديدة مثل الذهب والنحاس والبريل (الزمرد المصرى) . غير أنه لما ضعفت الحكومة المركزية واستعادت قبائل الصحراء حريتها أصبحت الصحراء أرضاً مجهولة ولم يزرها المستكشفون للبحث عن الثروة المعدنية ، وضاعت معالم الأمكنة التى وجدت بها المعادن . وانتعش التعدين بعد ذلك عند

بدء القرن التاسع عشر وذلك بظهور السياسى العظيم المعروف ببعد النظر وعلو الهمة المغفور له محمد على باشا الذى شجع المنقبين من مختلف الجنسيات على إعادة اكتشاف الأماكن الصحراوية، وبذا عاد عهد الاستكشاف واظهار ما كان مجهولا . فقد عثر « برتون » و « ولكنسون » على محاجر الحجر السماق الامبراطورى ثانية، ووجد «كايو» أماكن الزمرد، و زار « بروتشى » مناجم الرصاص القديمة وقام ببعض الاكتشافات الهامة.

ولقد أسدل الستار ثانية على هذه المناطق الصحراوية بموت المغفور له محمد على باشا الى ما يربو على نصف قرن فضاعت كل المعلومات التى اكتسبت فى الماضى ولم يعد أحد يعرف مواقع المناجم القديمة الا فى الحالات التى نشر فيها المستكشفون نتائج تجاربهم

وعندما حضرت الى مصر فى سنة ١٨٩٧ كان عهد انتعاش آخر على أبواب الابتداء فقام « جونسون باشا » و « الفورد » بأول مجهود لتحديد مواقع مناجم الذهب القديمة . على ان الصحراء كانت فى حالة جمود يشبه الموت عندما بدأ أعضاء المساحة الجيولوجية الناشئة القيام بأعمالهم . ففى سنة ١٨٩٧ — ١٨٩٨ اثناء الطواف فى الصحراء الشرقية المصرية لمدة سبعة أشهر قابلت البعثة الجيولوجية عدداً قليلا جداً من الأعراب يحملون ملحاً مهرباً . وكانت مدينة القصير فى حالة اضمحلال شديد يحكمها عدد من الموظفين الذين ابعدوا عن وادى النيل لأدمانهم الخمر أو لعدم كفاءتهم . ولم يكن على خليج السويس والبحر الاحمر سوى ميناءين :—القصير — على الساحل المصرى —والطور— على ساحل شبه جزيرة سيناء . وكان يندر أن تمر البواخر بميناء القصير، وكانت ميناء الطور مسرحاً لعمل مضطرب فى فترتين قصيرتين من السنة بسبب الحجر الصحى على الحجاج القادمين من مصر والعائدين اليها .

أما اليوم فالفارق عظيم ، إذ يمكن للمسافر بالبحر الأحمر، بعد مغادرته مدينة السويس بساعات قليلة، أن يرسو عند « أبى زنيمه» وهناك يرى مستعمرة جديدة انشئت لاستخراج المنجنيز ،فاذا واصل السفر حتى بضعة كيلو مترات شمالى الطور يرى «أبى دربه» وفيها يجرى العمل لاستخراج زيت البترول، أما الطور نفسها فلا تزال كما كانت مركزاً للحجر الصحى. واذا عرج المسافر على الشاطىء المصرى فسيلاحظ التقدم الصناعى الحديث عند ميناء الزيتية وكذا عند جسه . و باستمرار السفر نحو الجنوب يمر المسافر بميناء بعد أخرى من مراكز العمل النشيط. فالغردقة تنتج مئات آلاف الأطنان من زيت البترول سنويا

و « سفاجه » بها مناجم الفوسفات ولها سكه حديدية تتوغل لمسافة تزيد على العشرين كيلو متر فى قلب الصحراء . أما القصير فهى اليوم مدينـــة عامرة ترسو بها — كما هى الحال فى سفاجه — البواخر الكبيرة لشحن الفوسفات،وتربط المناجم بالشاطىء سكه حديدية يبلغ طولها سبعة كيلو مترات . وقد اكسبت صناعة تعدين الرصاص الحياة والانتعاش للمواقع التى على امتداد الشاطىء فى أقصى الجنوب وهى التى كانت لمدة طويلة قفراً موحشاً .

كيف حدث إذاً هذا التطور فى مدة لا تتجاوز خمسة وثلاثين عاماً ؟؟ اننا نعزى هذا الى السياسة الرشيدة التى اتبعتها الحكومة المصرية من ناحية . ولما أبداه الموظفون والأفراد من الهمـة والاخلاص من الناحيـة الأخرى . وسنذكر باختصار المؤثرات التى سببت هذا الانتعاش .

ففى سنة ١٨٩٦ عين الكابتن ليونز (الآن الاميرالاى سير هنرى ليونز) مديراً للمساحة الجيولوجية ،وفى وقت قصير استطاع أن يضع المساحة المصرية على أساسها الحالى. وكان الغرض من المساحة عمل خريطة عامة للملكة تكون على أعظم ما يمكن من الدقة ومبنية على نقط مثلثات غاية فى الضبط . ولقد قام الدكتور جون بول بهذا العمل بهمـة فائقة فى الصحارى المصرية يساعده موظفو قسم مساحة الصحارى ، وأصبح الآن من الممكن تحديد مواقع أى استكشافات معدنية جديدة بدقة متناهية .

ولقد أصابت الحكومة المصرية فى سياســـة البحث العلمى بانشائها قسم المساحة الجيولوجية . والغرض من هذا القسم من الوجهة الاقتصـــادية هو البحث عن رواسب جديدة ذات قيمة اقتصادية ودرس العلاقات بين المعادن الموجودة وتعيين المعـادن التى يجب البحث عنها من درس الأحجار المختلفـــة . وزيادة على ذلك يقوم هذا القسم تحت اشراف زميلى ا . ه . لتل بدرس جميع المسائل الجيولوجية المصرية بصرف النظر عن أى منفعة اقتصادية عاجلة .

وفى سنة ١٩٠٢ أنشئت مصلحة المناجم لمعالجة وتحسين صناعة التعدين وكانت قد بدأت فعلا بتقدم سريع . وكان أول مدير لها ذلك الرجل القـدير جون ويلز الذى أثار اهتماماً عظيما باكتشاف منجم أم جاريات فى صحراء مصر الجنوبية الشرقية به كمية عظيمة من الذهب ، وبدأ باعادة بحث المعادن القيمـــة التى سبق استغلالها فى الماضى ، وشجع الشركات للبحث عن زيت البترول بفحص الطبقات الحاملة له على سواحل البحر الأحمر .

والغرض الذى من أجله انشئت مصلحة المناجم هو دراسة جميع منتجات القطر المصرى ذات الفائدة الاقتصادية والعمل على ارتقائها، وكذا تحديد العلاقات بين الحكومة المصرية والشركات التى تعمل على استغلال المعادن . وبعد ان ترك المستر ويلز خدمة الحكومة المصرية تولى ادارتها لمدة تربو على العشرين عاماً مستر ر. ه جريفز والمراقب الحالى لمصلحة المناجم هو زميلى القديم الدكتور حسن صادق بك الذى لا يزال يعمل على تقدم ادارتها بهمة ونجاح عظيمين

وكان تقرير التعليم الجيولوجى فى مصر خطوة أخرى من خطوات التقدم فى سياسة الحكومة المصرية . ويرجع الفضل فى ذلك الى السير وليم جارستن الذى قام بقسط كبير فى انهاض الرى وأعمال الصحراء مما تستحق تقدير المصريين . ومن دواعى غبطتى أننى كنت أول مدرس انتخب لتدريس الجيولوجيا بمدرسة الهندسة بالجيزة . وقد هيأت لى هذه الفرصة التعرف على عدد كبير من الشبان المصريين يقومون الآن بخدمات جليلة لوطنهم فى مختلف الأعمال

وعندما يتم اكتشاف معدن يبدأ التساؤل عن امكان استغلاله من الوجهة التجارية . وهذا عمل يحتاج الى رأس مال ومخاطرات من جانب الحكومة أو الشركات أو الأفراد. ولقد لعب الرأسماليون دوراً هاماً فى انهاض مصادر المعادن فى الصحراء ، ويقوم بعضهم بمختلف الأبحاث (كالمساحة والدراسة العلمية الاقتصادية) كما هى الحال فى الحكومات المستنيرة المتقدمة.ولقد يكفى الدور الذى لعبه الأفراد لأنعاش صناعة التعدين بمصر لتحرير فصل شائق فى تاريخ الصحراء لولا ان معظم المادة اللازمة لكتابة هذا الفصل منطوية فى السجلات السرية للافراد أو الشركات التى قدمت المال اللازم للبحث والاستكشاف .

ولنعد الآن الى بحث المعادن فنقول : —

الذهب : للذهب الاعتبار الأول لجماله الحقيقى وقيمته — وتاريخ وجوده واستغلاله فى مصر شيق للغاية . فأن أقدم خريطة عرفت للآن هى التى وجدها « دروفيتى » فى طيبة وبها اشارات عديدة مكتوبة بالهيروجليفى تدل على وجود الذهب فى الصحراء الشرقية المصرية . وتحتوى هذه الخريطة على رسم لوحة منقوشة للملك سيتى الأول العظيم مما يدل على أنها ترجع الى ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد . ومن النقوش الموجودة على حيطان معبد الرديسية ، الواقع فى الوادى الصحراوى الذى ينساب فى وادى النيل عند أدفو ، نعرف أن

الملك سيتى الأول قد زار بعض مناجم الذهب التى استغلت فى الصحراء الشرقية . وتدل النقوش المرسومة عل حائط معبد مدينة هابو على وجود الذهب بمصر فى عهد رمسيس الثالث . وهذه النقوش عبارة عن مجموعة من الأوانى والأوعية كتب على معظمها أنها من الذهب وكذا اسم الموقع الذى أخذ منه هذا المعدن . وهذه الاسماء المصرية القديمة تشمل بعض البلاد المصرية المعروفة مثل « قفط » .

واعتماداً على الخرائط المصرية القديمة والمخطوطات قد أعيد زيارة المناجم القديمة المختلفة ، وفى أغلب الأحوال أعيد افتتاحها فى السنين الأخيرة . وتقع هذه المناجم فى المنطقة الجبلية بين وادى النيل والبحر الأحمر . ولقد تتبع المصريون القدماء عروق المرو (الكوارتز) الحاملة للذهب لأبعد حد ممكن . وكانوا يسحقون المرو فى مصاحن من حجر الديوريت الصلب ويفصلون مسحوق المرو عن الذهب بغسله على الواح مائلة . وكان يقوم بهذا العمل الشاق المسجونون وقد شرح حالتهم التعسة بوضوح تام كاتب قدير قديم

وتبين المعروضات الجميلة الموجودة فى غرفة المجوهرات بالمتحف المصرى بالقاهرة الأغراض التى استعمل فيها الذهب بعد استخراجه من المناجم . وأحد هذه المعروضات سكين من الصوان له يد من الذهب ويرجع عهده الى ما قبل الأسر الملكية القديمة . وهذه أقدم أداة للزينة من الذهب فى مصر ومن أقدم ، ان لم تكن أقدم ، شىء من الذهب عرف للآن . وهناك أساور من الذهب المرصعة بالفيروز والجمشت يرجع عهدها الى الأسرة الملكية الأولى . وفى مقابر الملكة « هتيفريس » والدة بانى الهرم الأكبر ، وجدت أدوات منتقاة من الذهب الخالص ، فهناك رأس صقر من الذهب المطروق له عينان من الزجاج الطبيعي الذى لم يوجد حتى الآن فى مصر ويغلب أنه استحضر من ارمينيا على أنه يوجد أيضاً فى بلاد الحبشة .

و بالقرب من اهرام دهشور وجدت كنوز الأميرة «خونوموت» وهى من الأسرة الثانية عشرة ودفنت هناك . وهذه الكنوز تحتوى على نماذج جميلة على شكل الفراش والأسماك النجمية والقواقع وكلها مصنوعة من الذهب المحبب مما يدل على المهارة الفائقة التى وصل اليها الصائغ المصرى القديم . ومن العصر نفسه توجد صورة لتاج من الذهب تعلوه أفعى ومرصع بالعقيق واللازورد والفيروز . وهناك معروضات أخرى

لبعض الأدوات الذهبية النادرة التى وجدت بمقـــبرة توت عنخ أمون بطيبه (الأسرة الثامنة عشرة) وأخرى لملكة من الأسرة التاسعة عشرة .

وفى خلال الثلاثين سنة الماضية كانت الأدوار التى مر بها تعـــدين الذهب فى مصر متقلبة جداً . فقـد أثار الاهتمام ذلك الا كتشاف العظيم للذهب بأم جاريات واتجهت المجهودات لاعادة فتح المناجم القـديمة وا كتشاف أخرى جديدة . ومن منـاجم الذهب المعروفة منجم البرامية وعطالله وأم جاريات وقد زادت قيمة الذهب الذى استخرج من منجم البرامية على ما صرف لتحسين المنجم .

ولا يستخرج الذهب الآن ،ولـكن بلغ ما استخرج منه فى سنة ١٩٠٧ — خمسة آلاف أوقيـة وفى سـنة ١٩١٥ عشرة آلاف أوقية . وبلغت قيمة كل ما استخرج من الذهب منذ سنة ١٩٠٠ — ٣٠٠٠٠٠٠ جنيهاً مصرياً

و يوجد الذهب فى حالة خاصة . ففى عروق المرو (الـكوارتز) يكثر الذهب قرب سطح الأرض و يقل بزيادة العمق وهذه حالة من حالات التركيز قرب سطح الأرض بتأثير عوامل كيمائية وطبيعية خاصة . وهذه حقيقة لا تسر من وجهة نظرنا الآن — لأن قدماء المصريين وجدوا ذهباً مركزاً قرب سطح الأرض وفى متناول أيديهم ولقد تتبعوه فى حالات عديدة لأعماق تزيد عن ٣٠٠ قدماً (١٠٠ متراً) تحت سـطح الأرض . وهذا مما دعى أن تجرى الأعمال الحديثة أسفل هذا العمق الذى وصل اليه القدماء وكانت نتائجها غير مرضيـــة . وربما وجدت أحجار تحتوى على الذهب تحت غطاء من الحجر الرملى كما وجد المصريون القدماء ولـكن ليس من السهل الجزم بصحة هذه النظرية . وبما أنه يغلب وجود الذهب فى مصر مع أحجار الجرانيت القاعدية وأحجار الديوريت فيجب أن نلاحظ بعناية الأماكن التى توجد بها هذه الأحجار والحجر الرملى جنباً الى جنب . ولقد تمنيت أن يتحقق هذا الا كتشاف فى أيام حياتى غير إنى أخشى أن لا تتحقق أمنيتى

الفضة : لم يكن تعدين الفضة بمصر ذو أهميـة فى يوم من الأيام ومع ذلك فان اكثر الذهب المستخرج من هذه البلاد يحتوى على جزء كبير من الفضـــة مرتبطة به ارتباطاً متيناً . وقد أطلق « بلينى » اسم الـكتروم على الذهب الذى يحتوى على ٢٠ ٪ من الفضة . وتحتوى خمسة مناجم هامة فى مصر على هذا النوع من الذهب . ولم يعرف الى الآن اذا كان قدماء المصريين قد توصلوا الى معرفة استخلاص الفضة من مركباتها

ولو أن الفضة استعملت فعلا – ولو قليلا – فى عهد الأسر المصرية القديمة ويحتمل أن معظم هذه الفضة استورد فى هذا الوقت من الممالك الخارجية و بخاصة آسيا الصغرى . ولم يكثر استعمال أدوات الزينة الفضية فى مصر الا فى عهد البطالسة فقط و زاد استعمال الفضة عن الذهب عندما تأثرت مصر بالحضارة الاغريقية

النحاس : قد لعب هذا المعدن دوراً هاماً فى تاريخ مصر و به استطاعت أن تكون أولى الأمم القوية . وقد بلغ « عصر النحاس » حد ارتقائه فى هذا القطر فى عهد الأسرة السادسة . ولقد بحث وعثر قدماء المصريين على خامات النحاس فى الأماكن النائية جداً. فقد وجدت آثار أعمالهم فى شرق وغرب شبه جزيرة سينا وكذلك فى قلب المنطقة الجبلية بالصحراء الشرقية المصرية وكان بحثهم عن كربونات النحاس (ملاكيت) الخضراء وسليكات النحاس (كريسوكولا) الزرقاء . وتوجد منطقة تعدين عند سفح جبل أبو حماميد أعيد فيها فحص خامات النحاس حديثاً .

والموقف الحالى لا يشجع على تقدم تعدين النحاس فى هذا القطر لوجود كميات عظيمة جداً من خامات النحاس فى أسبانيا والولايات المتحدة وغيرها قريبة من طرق الملاحة العالمية الهامة . وتدرس المصالح الحكومية المختصة باستمرار احتمال الأنتفاع بهذا المعدن والمعادن الأخرى . ويوجد فى منطقة جبل أبو حماميد ارتباط بين الكالكوبيريت (كبريتور النحاس والحديد) وبين كبريتور الزنك . وتتحول هذه الى خامات النحاس الخضراء التى كان يبحث عنها المصريون القدماء

خامات الحديد : قد دلت دراسة الصحارى المصرية فى السنين الأخيرة على أن خامات الحديد ليست نادرة فى المناطق الصحراوية وانها توجد فى بعض المواقع التى ينتشر فيها الحجر الرملى النوبى . وفى الجزء الشمالى من الواحة البحرية وجدت مساحات عظيمة من خام حديد جيد

ودلت أعمال الاستكشاف التى قام بها لبيب افندى نسيم فى الصحراء شرق اسوان على انتشار خام الحديد المحبب فى تلك المنطقة وقد سررت لمعاينتها مع زميلى الدكتور صادق منذ أسابيع قليلة . ويستعمل نسيم افندى هذه الخامات الآن فى صناعة الالوان . وتدرس الآن طرق الأنتفاع بهذه الخامات ، وقد استخرج منها ما زنته ٨٣٠ طناً فى العام الماضى و ١٠٠٠ طناً فى العام السابق له

المنجنيز : يعتبر تعدين خامات المنجنيز حديثاً بالنسبة لمصر . وكان أول من لفت النظر الى وجودها فى غرب شبه جزيرة سيناء هو المرحوم المستر بارون أحد أعضاء المساحة الجيولوجية المصرية عند بحثه الجيولوجى لتلك المنطقة فى عام ١٨٩٨ — ١٨٩٩ وكان مستر بلاتنر وآخرون أول من درس هذه الخامات من الوجهة الأقتصادية وانتهى الأمر بتكوين شركة برأس مال انجليزى والمانى . وافتتح منجم أم بوجما وأقيم سلك معلق يبلغ طوله عشرة كيلو مترات و يمتد فوق وديان عميقة متسعة . وينقل الخام المستخرج وهو مخلوط من خامات الحديد والمنجنيز بواسطة هذا السلك الى حافة الجبل ومن هناك ينقل بواسطة سكة حديد يبلغ طولها نحو سبعة كيلو مترات مخترقة سهل « مرخا » وتنتهى عند ميناء ابو زنيمه

وفى سنة ١٩١٨ بلغ ما استخرج من خام المنجنيز ٢٧٠٠٠ طناً وزاد فى سنة ١٩٢٩ الى ما لا يقل عن ١٩١٠٠٠ طن . وكان فى العام الماضى ١٠١٠٠٠ طن ولكن طرأت بعد ذلك ظروف عديدة أوقفت حركة تعدين المنجنيز و بيعه . و يبلغ المخزون منه الآن نحواً من ٣٠٠٠٠٠٠ طن وهذه لا يمكن شحنها وتصديرها لأسباب سيئة أولها أن خامات المنجنيز الغنية لا يمكن استغلالها بفائدة نظراً لمنافسة روسيا الشيوعية بتوريدها خامات من أعلى درجة تستخرجها من القوقاز . وثانيها أن الضريبة الجمركية التى فرضتها الولايات المتحدة قد أثرت كثيراً على الخامات التى من الدرجة الثانية فقد كانت خامات الحديد التى تحتوى على نسبة تساوى ٣٠ ٪ من اكسيد المنجنيز يصرح بدخولها الولايات المتحدة خالية من الرسوم الجمركية أما الآن فهذه النسبة يجب ألا تزيد عن ١٠ ٪ ونظراً لهذه الظروف ولفداحة الضريبة على الشحنات التى تمر بقنال السويس فلا يمكن لخامات الدرجة الثانية أن تنافس غيرها بنجاح فى الأسواق الحرة . ومع هذا فان خام المنجنيز هو أحد المعادن التى تكون الثروة المعدنية فى مصر وهو فى هذه الحال ينتظر الوقت الملائم ليصبح مصدر كسب للبلاد ولمن يشتغل بتعدينه

الرصاص : لقد نشطت حركة البحث عن خامات الرصاص مدة الثلاثين سنة الماضية فى المنطقة الشاطئية للبحر الأحمر جنوب القصير وقد افتتحت هناك مناجم عديدة، ولو أن سوق الرصاص فى الوقت الحاضر ليس فى حالة انتعاش من الوجهة التجارية الا

أنه ينتظر أن يصبح أحد موارد الثروة المعدنيـــة فى مصر عندما تتحسن الأحوال الاقتصادية . وتوجد خامات الزنك مع خامات الرصاص فى المنطقة الواحدة

وقد استغل الرومان مناجم جبل الرصاص وأعيد العمل فيها بنجاح فى السنين الأخيرة

وهناك بعض المعادن التى لو وجدت بكميات وافرة لأمكن أن تكون ذات قيمـــة عظيمة . يطلق على بعض مجموعة أحجار اسم « الأحجار فوق القاعدية » وهذه فى الممالك الأخرى يغلب أن تحتوى على معـادن ذات قيمة اقتصادية أو تلازمها معـادن مثل خام الحديد المحتوى على الكروميوم وبعض مركبات النيكل وقد وجد هذان المعدنان فى الأحجار الفوق القاعدية المصرية التى تنتشر انتشاراً عظيما فى الصحارى الجنوبية الشرقية . وفى جزيرة القديس يوحنا (جزيرة الزبرجد) قرب رأس بناس يوجد « الجارنيريت » وهو خام أخضر للنيكل فى أحد العروق . واستخرج من هذا المعدن نحو من ٨٠ طناً . وفى ثنايا الأحجار الفوق القاعدية بالجزيرة نفسها توجد بلورات الزبرجد التى تجمع بين جمال الشكل واللون الأخضر الرقيق وهذا الحجر الكريم غير مطلوب فى الوقت الحاضر وتوجد كميات كبيرة من هذه البلورات لم يمكن بيعها بعد .

و « البريل » هو أحد المعادن الذى بحث عنه كثيراً فى الزمن الماضى . والنوع الشفاف الأخضر الصافى منه هو الزمرد . ويوجد هذا الحجر الكريم فى منطقة سيكيت بالصحراء الشرقية على مقربة من شبه جزيرة راس بناس ويغلب أن يكون الزمرد فى المرو (الكوارتز) داخل السيشت الميكائى وقديماً استخرجت كميات عظيمة من هذا السيشت ويشاع عن بعض المؤلفات العربية أن أحجاراً جميلة جداً من الزمرد كبيرة الحجم قد وجدت ولكن معظم المجهودات الحديثـة التى بذلت للحصول على نوع جيد من الزمرد لم تصادف نجاحاً حتى الآن

ولقد تناول بحثنا حتى الآن المعادن التى تلازم الأحجار النارية القديمة أو الأحجار الراسبية المتحولة . الا أنه يوجد نوعان من الرواسب تكوّن جزءاً من تكاوين راسبيـــة منتشرة جداً وهما الآن من موارد الثروة فى البلاد ويحتوى الأول على فوسفات الجير أما الثانى فهو مصدر زيت البترول الخام — وتعتبر الفوسفات وزيت البترول من أهم منتجات الصحراء المصرية .

الفوسفات : لم يكن وجود الفوسفات معروفاً فى مصر عند انشاء قسم المساحة الجيولوجية فى سنة ١٨٩٦ وفى نفس السنة أثبت المستر بارون وجود صخر الفوسفات بجبل قرن قرب جبل قفط . وفى السنة التالية عندما كنت والمستر بارون ندرس المنطقة بين قنا والقصير من الوجهة الجيولوجية تبين لنا أن صخر الفوسفات يوجد فى طبقات سميكة كثيرة الأمتداد كما وجدنا به كذلك حفرية خاصة بالعصر الكريتاهى وبذلك تحدد موقع الفوسفات فى السلسلة الجيولوجية و بهذا الدليل تمكنت البعثات الجيولوجية فى عام واحد من تعقب الفوسفات فى طبقات قرب القصير وفى الواحة الداخلة أيضاً وأمكننا الارشاد بأن البحث عن الفوسفات يجب أن يبدأ من الوجه القبلى قرب المحاميد . وقد نتج عن ذلك اكتشاف فوسفات عظيمة الأهمية عند السباعية جنوبى اسنا . وتحتوى الفوسفات الموجودة عند سطح الأرض على ما يقل عن ٥٠ ٪ من فوسفات الكلسيوم وقد أرسل مستر أندرو كروكستون الذى يهتم بالفوسفات الموجودة فى شمال افريقيا من الوجهة المالية مستر ت . جريفز ليدرس هذه الرواسب دراسة تفصيلية . وقد وجد الأخير أن الفوسفات السطحية الرديئة تخفى تحتها فوسفات منوعة وجيدة فكان ذلك سبباً فى استغلال عظيم للفوسفات فى منطقة ميناؤها سفاجه وعقب ذلك افتتاح مناجم الفوسفات عند جبال ديووى وجبل نخيل بالقرب من القصير ومناجم أخرى فى وادى النيل مركزها السباعية جنوبى اسنا .

وقد ابتدىء باستخراج الفوسفات فى سنة ١٩٠٨ وبلغ مجموع ما استخرج فى ذلك العام ٧٠٠ طناً وزاد هذا المقدار فى سنة ١٩٣٠ الى ما زنته ٣١٣،٤٧٨ طناً وبالرغم من الصعوبات المالية الحالية فان مجموع ما استخرج فى سنة ١٩٣١ هو ٢٥٧،٠١١ طناً

زيت البترول : كان زيت البترول معروفاً منذ عهد الرومان بجبل الزيت على خليج السويس وأطلق على هذه المنطقة اسم « مونز بترولوس » . وفى سنة ١٨٦٨ اهتم مجلس شركة تعدين فرنسية بأمر الانتفاع بالكبريت الموجود بجمسا وعلى بعد كيلو مترات قليلة جنوبى جبل الزيت . ولم يصادف تعدين الكبريت نجاحاً غير أنه عند فتح أحد السراديب تجمع زيت البترول الخام مكوناً بركة فيه . وفى سنة ١٨٨٠ بذلت الحكومة المصرية مجهوداً عظيماً بحفر الآبار التجريبية وذلك لانعاش استخراج زيت

البترول ولكن هذه المجهودات لم تصادف نجاحاً تاماً . وقد تقدم المستر جون ويلز فى سنة ١٩٠٦ الى الشركات المختلفة التى تبحث عن زيت البترول لكى تعيد حفر الآبار فى هذه المنطقة نفسها وفى أول بئر حفرت وجد زيت بترول خام خفيف وجيد وكان ذلك فى سنة ١٩٠٨ . وحفرت بعد ذلك آبار عديدة كان النجاح نصيب اكثرها . وقد بلغ ما استخرج من زيت البترول فى منطقة جمسا فى العشرين سنة الأخيرة نحو ١٨٠،٠٠٠ طناً . ولكن طغيان الماء على آبار الزيت أوقف استخراجه فى هذه المنطقة .

وفى نفس الوقت كانت الحكومة المصرية تستخدم رجالها الفنيين فى دراسة منطقة حقول البترول دراسة عميقة ووجه كل الاهتمام لمنطقة الغردقة . وكانت الشركات من جانبها تقوم بنفس المجهود ، فحفرت شركة حقول البترول الانجليزية المصرية بناء على تقرير خبيرين جيولوجيين من الألمان أول بئر فى بقعة وجد فيها صخر يشتم منه رائحة زيت البترول . ووجد زيت البترول فى البئر على بعد ١٢٠٠ قدماً من سطح الأرض . وبذلك انتعشت صناعة استخراج زيت البترول فى مصر وتعد الآن من أهم الصناعات فيها . وانه لمن المدهش حقاً أن يستخرج ما يزيد عن ١٠٠،٠٠٠ طن من زيت البترول سنوياً منذ سنة ١٩١٧ من منطقة صغيرة جداً تظهر لأول وهلة بأنها صحراء قاحلة . وكان أعظم انتاج فى سنة ١٩٣١ اذ استخرج نحو ٢٨٩،٤١٩ طناً من زيت البترول

وبذلك أصبحت الفوسفات وزيت البترول فى السنين القلائل الأخيرة أعظم موارد للثروة فى هذه البلاد وقد كانا غير معروفين للمصريين القدماء .

أحجار الزخرفة والبناء : يوجد بالقطر المصرى مختلف أحجار الزخرفة استعملها قدماء المصريين والرومان بكثرة نذكر من بينها : —

١ — **شيست الحمامات الأخضر :** يختلف لون هذا الشيست الدقيق التبلور من الأخضر الى الاسود وهو يوجد على الطريق بين قنا والقصير . وقد استغله قدماء المصريين بكثرة ابتداء من الاسرة الرابعة الى الاسرة الثالثة عشرة . ويوجد بالمتحف المصرى عدد كبير جداً من التماثيل وخلافها مصنوعة من هذا الحجر الذى عرف قديماً باسم « بخن » . ويوجد فى نفس الموقع بريش مكون من أنواع مختلفة من الصخور الملونة

(مثل الجرانيت والشيست الأخضر وخلافها) وكان معروفاً للمصريين القدماء فى العصور المتوسطة باسم البريش الأخضر . ومن المحتمل أن يستعمل هذا الحجر ثانية يوم من الأيام قريباً كان أو بعيداً نظراً لمتانته وجمال منظره

٢ — **الحجر السماقى الامبراطورى** : قدر الأباطرة الرومان مثل « كلوديوس » و « هارديان » ، وغيرهما هذا الصخر حق قدره وهو أحمر أو أرجوانى اللون منتشرة به بلورات بيضاء . والموقع الوحيد الذى يوجد به هو جبل الدخان فى الصحارى المصرية الشمالية. وفى كل المتاحف العظيمة توجد تماثيل مصنوعة من هذا الصخر وصنع منه أيضاً عمود القسطنطينية ذو الشهرة العالمية. وهذا الحجر يلفت النظر لأول وهلة وحديثاً طلبت سيدة انجليزية الى مصلحة المناجم أن تستحضر لها قطعة منه لعمل نصب تذكارى لزوجها الذى فقدته وربما كانت هذه أول مرة يفتح فيها هذا المحجر ثانية منذ عهد الرومان

٣ — **جرانيت اسوان الأحمر المستعمل للتماثيل** : أصبح لهذا الصخر شهرة عالمية لكثرة استعمال قدماء المصريين له فى تماثيلهم واهراماتهم ومعابدهم . وتكوّن نماذج جيدة منه الغطاء الخارجى لقاعدة الهرم الثالث . ويقتلع منه الآن كميات عظيمة لاستعمالها فى تعلية خزان اسوان .

٤ — **الرخام** : يوجد نوع جيد من الرخام فى وادى ميا بالصحراء الشرقية وعلى بعد ١٢٠ كيلو متراً شمال شرقى ادفو . وقد اقتلع بعضه فى الماضى ولو ان موقعه كان أقرب الى وادى النيل من موقعه الآن لكان من المحقق استعماله بكثرة فى القطر المصرى كحجر للزخرفة .

٥ — **الألباستر المصرى** : أو المرمر المصرى وهو حجر زخرفة له شهرة عالمية اكتسبها من كثرة استعمال المصريين القدماء له فى صنع الأوانى وخلافها . ويتكوّن هذا الصخر تدريجياً فى فجوات فى جوف الأرض بالرسوب من مياه مذاب بها كربونات الكلسيوم كما هو الحال فى « الاستلاكتيت » . وأحسن المواقع التى يوجد بها هى الصحراء

جنوب شرقى بنى سويف وشرق اسيوط . وقد اقتلع بعضه شرقى تل العمارنة . والأخير لم يحدد موقعه بالضبط ولم تدرس خواصه بعد .

و يمر المسافر بالنيل من وادى حلفا الى القاهرة بمراكز نشاط صناعى نشأت من استغلال سكان وادى النيل للمواد الموجودة بالصحراء وأهمها ما يأتى : —

٦ — **الطين** : وهو يستعمل فى صناعة مختلف أنواع الخزف . ففى دمهيت جنوبى اسوان يصنع الخزف الاحمر والاسود المنقوش والذى يعيد الى ذاكرتنا صناعة المصريين قبل عهد الأسر . وقد سبق أن أشرنا الى جرانيت اصوان وصناعته . ويستخرج بكثرة من التلال قرب شمالى اسوان الطين الملوّن وهو نوع جيد جداً ويستعمل فى صناعة الأدوات المختلفة التى تحتاج الى الصلابة وطول البقاء

وفيما بين المحاميد وقنا يتحول الطين الى طفل وهذا يحتوى على نسبة طيبة من كربونات الجير و يستعمل فى صنع الأوانى المسامية « كالبلاص » المشهور استعماله فى مصر لخزن وترطيب المياه . وتعتمد صناعة الآجر (الطوب) على رواسب الطين النهرية فى وادى النيل . وهذه المواد يحملها النيل الى مصر من اعالى الحبشة وهى ليست من منتجات الصحارى المجاورة

٧ — **النترات** . يشاهد المسافر القوى الملاحظه الذى يتطلع من القطار و يتابع حافة الصحراء بين ادفو واسنا جمالا وحميراً تهبط من التلال الواقعة شرقى السكة الحديدية تحمل « الطفلة.وهى عبارة عن طفل أو طين يحتوى على النترات وتغطى به الحقول كسماد ولكن نسبة النترات لسوء الحظ حوالى ٥ ٪ ويخالطها كثير من ملح الطعام والاخير عنصر ضار للسماد . ولو وجد الطن محتوياً على نترات بنسبة اعلى لكان من اهم منتجات الصحارى التى تحف بالنيل نظراً لتأثيره فى خصوبة الأراضى الزراعية .

٨ — **احجار البناء** : استعملت احجار الصحراء منذ عصر الاسرة الثالثة فى المبانى التى تتطلب الصلابة وطول البقاء فقد استعمل الحجر الرملى الموجود بين وادى حلفا وأسنا فى بعض المعابد المصرية الهامة ولا تزال محاجر قدماء المصريين موجودة بقرب

السلسلة . اما الأحجار الجيرية التى تمتد على حافة الصحراء من الأقصر الى القاهرة فقد اقتلعت باستمرار تقريباً منذ العصور التاريخية القديمة . وتدين مقابر الملوك بوجودها لحجر جيرى ابيض دقيق يسهل اختراقه وتلوينه . وقد بنيت قناطر أسيوط ومنشآت اخرى حديثة وهامة من حجر جيرى مسامى المنظر ولكنه فى الحقيقة متماسك و يوجد بالقرب من العيساوية بالوجه القبلى . وتخرج المحاجر التى بين حلوان وشرق القاهرة انواعاً عديدة من الحجر الجيرى تختلف اختلافاً عظيما فى كيفية تركيب اجزائها . فمنها ما يستعمل لحرق الجير ومنها ما يستعمل « بلاط ».وتقتلع كل احجار البناء اللازمة لمبانى القاهرة من الأماكن المجاورة

وتستعمل الاسكندرية حجر المكس الجيرى وهو نوع غير جيد. بينما توجد محاجر هامة للحجر الجيرى عند جبل عتاقه قرب السويس وعند جبل فريد بين السويس والاسماعيلية

٩ — **الرمال** : اصبح للرمال اهمية خاصة فى السنين الأخيرة نظراً لكثرة استعمالها فى الانشاءات المختلفة وفى صناعة القراميد وخلافها وظلت القاهرة مدة طويلة وموارد الرمال الجيدة موجودة على ابوابها فى العباسية والجبل الأحمر الا أن هذه نفدت اخيراً .

وتوجد موارد أخرى للرمال على حافة الصحراء الغربية قرب الاهرامات . والمسألة التى تشغل مصلحة المناجم وقسم المساحة الجيولوجية فى الوقت الحاضر هى الحصول على نوع جيد من الرمال يكون على مسافات قريبة من المدن التى تستعمله .

ويدور البحث الآن على الرمال البيضاء لاستعمالها فى صناعة الزجاج وتدل الدلائل على ان هذه المجهودات ستكلل بالنجاح .

١٠ — **حجر الجبل الاحمر الرملى** : يستعمل هـذا الصخر السيليسى بنوع خاص فى بناء الأساسات و يقتلع من الجبل الأحمر فى شمال شرقى القاهرة . ومن المناطق المجاورة يستخرج الرمل الأحمر لتفرش به الطرقات و يستعمل فى أغراض أخرى

١١ — **بازلت ابى زعبل** : يختلف لون هذا الصخر الصلب المتماسك من الأزرق

القاتم الى الاسود و يستعمل فى رصف شوارع القاهرة والاسكندرية . وسنحتاج قريباً لموارد أخرى للبازلت خصوصاً أن ما يقتلع منه فى المناطق المجاورة غير جيد وعليه يلزم اعادة البحث فى الصحراء عن موارد تكفى لسد النقص الذى سنشعر به فى القريب العاجل

١٢ — **الجبس** هو : أحد المنتجات الهامة جداً لاستعماله أما فى أصلاح الأراضى الزراعية عديمة النفع لاحتوائها على كربونات الصودا أو فى صناعة المصيص الذى يكثر استعماله فى مصر . ولقد استغلت ولا تزال تستغل رواسب الجبس الموجودة قرب سطح الأرض فى التلال الصحراوية جنوب شرقى حلوان وفى الغربانيات فى منطقة مريوط وفى البلاح بين الاسماعيلية وبورسعيد . والرواسب فى الموقع الأخير لها علاقة بأمتداد بحيرة المنزلة

١٣ — **النطرون** : أحد المنتجات الهامة التى تستعمل فى صناعة الصابون والزجاج وله فوائد أخرى و يستخرج من البحيرات القليلة الغور بمديرية البحيرة ومن منطقة وادى النطرون الشهيرة

١٤ — **ملح الطعام** : يوجد بكثرة ويستخرج بواسطة التبخير فى مناطق البحيرات شمالى الدلتا ونذكر على سبيل المثال المكس قرب الاسكندرية وضواحى بورسعيد

و يقل فى الاهمية عما سبق المواد الآتية :—

الطلق : استخرج فى الماضى من جبل عمرو ويبعد بضعة كيلو مترات شرقى اسوان ولا يزال يوجد بكميات كثيرة فى تلال الصحراء الشرقية المصرية

حجر الشب : استخرج من وقت لآخر من الواحات و بخاصة الواحة الخارجة

سلفات المغنيسيوم (الملح الانجليزى) : يوجد هذا ايضاً فى الواحات .

وقد أثار الأهتمام فى السنين الأخيرة وجود رمال على شاطىء البحر قرب الاسكندرية

وهذه تحتوى على الماجنتيت (اكسيد الحديد الممغطس) واكسيد حديد آخر يحتوى على التيتانيوم .

ولعلى ذكرت ما فيه الكفاية لأبين الى أى حد يتوقف كيان مصر وتقدمها على المواد التى تستخرج من المناطق المقفرة التى تحيط بنهرها العظيم وواهب حياتها . وليس فى هذه المملكة المترامية الأطراف منطقة واحدة لا تعود على سكانها بفائدة ما .وستظل الزراعة حياة مصر وقوامها كما تبقى الصحراء المحيطة بها مورداً لما يزيد فى رفاهيتها وسعادتها

الدكتور عبد الحكيم الرفاعى
مدرس الاقتصاد السياسى بكلية الحقوق

تجارة وصناعة مصر الحديثة

لحضرة الدكتور عبد الحكيم الرفاعى

(مدرس الاقتصاد السياسى بكلية الحقوق)

تمهيـــد

١ . — الأمة — كما بينه الكاتب الفرنسى الشهير لبلاى Le Play — نتيجة اشتراك ثلاثة عناصر : المكان ، والعمل ، والسكان . فالمكان ، أو البيئة الطبيعيـــة ، له أثره فى حياة الامم ، لأن الحالة الاقتصادية فى أية أمة تتوقف على مناخها ، ودرجة خصوبة أرضها ، ومقدار غنى طبقاتها الارضية بالمناجم وموقعها الجغرافى ، والقوى التى تساعد الانسان على عمله ، ومن هذا يتبين مقدار صلاحيتها لأنواع النشاط الاقتصادى المختلفة . كذلك عمل الانسان وكيفية استفادته من الثروات الطبيعية لا يقل أهمية عن العامل الأول ، فيقوم باستغلال الارض ، واستخراج الثروات الكامنة فى الطبقات الارضية ، ويسخر القوى الطبيعية لخدمته . أما عن العنصر الثالث ، وهو السكان ، فيلاحظ أن كل شعب له ميزات خاصة وصفات كامنة ، هى مجموعة الصفات الفردية لأبناء الأمة ، وهى التى توجهها فى النهاية الى المركز الاقتصادى الجدير بها ، اذ يعمد السكان الى التأثير فى الظروف الطبيعية حتى تصبح ملائمة لأطماعهم .

٢ . — وان الباحث فى تطور الحالة الاقتصادية فى الامم يلاحظ أن الشعوب تمر بعدة مراحل ، ففى المرحلة الأولى نجد الناس فى حالة الهمجيـة ، وفى المرحلة الثانيـة ، نجدهم فى حالة الرعى ، ثم يتلوها طور الزراعة . ومتى بلغوا درجة كبيرة من الحضارة ينتقلون الى دور آخر هو دور الصناعة . وقد بين أحد الكتاب الألمان لست List أن الأمة لا تصبح

امة عادية الا اذا كانت زراعية وصناعية وتجارية فى آن واحد . فالى بلوغ هـذه المرحلة يجب أن توجه الأمم جهودها. (١)

٣ . — هذه المبادىء العامة ، اذا طبقناها على حالة مصر ، اتضح لنا أن البيئة الطبيعية كان لها أكبر أثر فى حالتها الاقتصادية . فاعتدال مناخها ، وخصوبة ارضهـا ، وانتظام مياه الرى فيها ، جعل منها أمة زراعية ، معظم اعتمادها على ما تنتجه الأرض ، كما أن موقعها الجغرافى بين الشرق والغرب جعل منها مركزاً تجارياً مهماً . كذلك من يتصفح تاريخ مصر يمكنه أن يلاحظ العلاقة الوثيقة بين درجـة انتشار الصناعة فيهـا ، ومقدار حضارتها . ففى وقت ازدهار المدنية ، كنت ترى الصناعة بالغة شأوا بعيداً . وفى أوقات الانحطاط كان يعتورها الكساد .

وسأحاول أن أبين فى ما يلى تطور تجارة مصر الخارجيـــة وصناعتها ، وحالتها فى الوقت الحاضر ، ووسائل انهاضها ومستقبلها .

١

تجارة مصر الخارجية (٢)

٤ . — كانت مصر ، منذ العصور القديمة ، نظراً لموقعهـا الجغرافى ؛ مركزاً للتجارة الدولية . وكانت الاسكندرية فى عهد اليونان والرومان مستودعاً للبضائع التى ترسل بين الغرب والشرق . وفى عهد البطالسة نشطت الحركة الاقتصادية فى مصر . وكانت تصدر للخارج منسوجاتها الدقيقة ، وأوراق البردى على أن أهم سلعة كانت تصدرها هى القمح . وقدر ما كانت تصدره منه فى ذلك الوقت الى روما بما يقرب من مليونى هكتولتر .

---

(١) راجع كتاب فردريك لست فى النظام القومى للاقتصاد السياسي (الترجمة الفرنسية)
F. List : Système national d'économie politique.

(٢) أهم المراجع : تقرير لجنة التجارة والصناعة ، المطبعـة الاميرية سنة ١٩٢٥ . أرمنجون : حالة مصر الاقتصادية والمالية (بالفرنسية) باريس سـنة ١٩١١ . — كريج : تجارة مصر الخارجية ، ملحق المانشستر جارديان الخاص بمصر فى أول مارس سنة ١٩٣١ . — تريمن : تجارة بريطانيا مع مصر ، ملحق الفاينشيال نيوز الخاص بمصر فى ٢٥ يناير سنة ١٩٣٢ ، عبد الحـكيم الرفاعى : تأثير الازمات النقدية الانجليزية في النظام النقدى المصرى . مجلة القا والاقتصاد ، السنة الاولى ، العدد الخامس ، نوفمبر سنة ١٩٣١ ص ٧٦٦ — ٨٤٦ . — الدكتور ليفى : تجارة مصر الخارجية ، مجلة مصر العصرية سنة ١٩١٩ .

وقد احتفظت مصر بمكانتها فى عهد الاسلام ، الى أن جاء المماليك ، فتدهورت فى أيامهم الدولة المصرية ، وتدهورت ايضاً تجارتها . وظل الأمر على ذلك فى عهد الترك . ولما جاء نابليون الى مصر ، لاحظ العلماء الملازمون للحملة الفرنسية ماطرأ على تجارة مصر الخارجية من الانحطاط ، وما نتج عن ذلك من نقص ايراد الجمارك . وعلى العموم يمكن القول أن مصر وصلت فى عهد الترك ، بسبب المظالم واستبداد الحكام الى الدرك الأسفل من التأخر وارتبكت حالتها الاقتصادية والمالية .

٥ . — ولما ولى محمد على باشا حكم مصر ، عمل على انقاذها من الفوضى ، وعنى بترقية الزراعة ، ووسع نطاق زراعة القطن والقصب ، وعمل على نشر الصناعة ، فزادت تجارتها الخارجية ، فبعد أن كان مجموعها ، فى اوائل عهده ، من صادرات وواردات يقدر بخمسة عشر مليوناً من الفرنكات ، تجاوزت قيمة التجارة فى أواخر عهده ١٢٢ مليون فرنك : منها ٦٧ مليوناً للصادرات و ٥٥ مليون للواردات . وقد نشطت تجارة مصر بعد ذلك وبلغت أقصى حد لها فى سنة ١٩٢٠ أذ بلغت ٢٠٢٠٧١١٠٧٩٢ من الجنيهات المصرية .

٦ . — واذا حللنا الاحصائيات الخاصة بالتجارة الخارجية ، نجد أن مصر — نظراً لاعتمادها على محصول واحد هو القطن — تتأثر صادراتها ووارداتها بثمن القطن وكمية محصوله . لأن نحو ٨٥ ٪ من تجارة الصادرات تتكون من القطن وبذرة القطن . وفى السنوات التى يرتفع فيها ثمن القطن ، تزيد قوة شراء الأهالى ، ويستوردون مقادير كبيرة من السلع . وفى السنوات التى ينخفض فيها ثمنه ، تضعف قوة شراء الأهالى . وتقل الواردات تبعاً لذلك . وهذا ما حصل بالفعل فى سنة ١٩٣١ اذ انخفضت قيمة تجارة مصر الى مستوى ما كانت عليه فى سنة ١٩١٣ (١) .

٧ . — على أن المتأمل فى الأرقام الخاصة بالتجارة الخارجية ليندهش حينما يرى أن مصر ، وهى بلد زراعية ، تستورد من الخارج كميات كبيرة من المحصولات الزراعية . واليك بيان أهم ما استوردته مصر فى السنوات الأخيرة مقدراً بالجنيهات المصرية :

---

(١) بلغ مجموع الصادرات والواردات فى سنه ١٩٣١ : ٦٠٠١٩٢٠٠٠٠ جنيه وهذا الرقم يقترب من قيمة تجارة مصر في سنة ١٩١٣ اذ بلغت ٦٠٠١٠٥٠٠٠٠ جنيه .

أهم المنتجات الزراعية المستوردة	١٩٢٦	١٩٢٧	١٩٢٨	١٩٢٩	١٩٣٠	١٩٣١
القمح	١٦٤,٦٢٢	٤١٩	١١٥,٦١٦	٣٥٦,٧٨٥	١٢٦,١٨٥	٢١٥,٠٠٠
الدقيق	٣,٣٢٢,١٨٥	٢,٤٣١,٧٨٣	٢,٢١٩,١١٢	٣,٠٠٠,٤٧٥	٢,١٥٠,٣٤٨	١,١٦٦,٠٠٠
الأرز	٦٦٩,٣١٦	٢٠٩,١٥١	١٩٠,٩٩٨	٢١١,٤٢٤	١٣٤,٠٧٣	٢٥٨,٠٠٠
الدرة والذرة العويجه	٥١,٨٨٩	٢,٥٢٠	١,٦٩٩	٧,٦٣٣	١٤,٠٢٩	٦٤,٠٠٠
الفول	٩٣,٢٠٠	٣٨,٧١٦	٢,٥٨٩	٥,٦٨٤	٢٤,٦٨٦	٩,٠٠٠
الشعير	١٢٠,٨٩٨	١٦,١٩٧	٥٦٣	٢,٤٤١	١٧,٠٣٤	٧٢,٠٠٠
السكر	٩٠٦,٧٥٥	٨٥٢,٠٨٦	٩٩٧,٩٥٧	١,١٧١,٠٧٣	١,٥٠٦,٤٧٥	٣٨,٦٠٠
البطاطس	١٥٤,٠٣٤	١٦٧,٤٥٨	١٥٣,٨٥٤	١٥٣,٦٥١	١٣٥,٥٥٢	١٠٣,٠٠٠
الفواكه	٤٦٤,٨٩٠	٤١٢,٧٢٣	٣٧٧,٧١٤	٤٤٤,٥٧٣	٥٨٨,٤٠٩	٦٣٧,٠٠٠
الفواكه المحفوظة	٤٧١,٥١٦	٤٨٢,٨٧٩	٤٧٢,٩٢٤	٤٧٤,٨٢١	٤٢٣,٣٥٩	
المواشى واللحوم	٧٨٧,٥٤٨	٥٤٣,٧٦٨	٧٥٧,٢٠٤	٧٠٥,٦٣٧	٥٨٨,٦٢٩	٢٢٥,٠٠٠

والأزمة الحالية تبين مقدار الخطر الذى تتعرض له الأمة المصرية فى اعتمادها على محصول واحد مستهدف للتغيرات العالمية ، ولمنافسة بعض المواد الأخرى مثل الحرير الصناعى . ولتوالى نقص اثمان القطن أصدرت الحكومة اخيراً مرسوماً بتاريخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣١ يقضى بتحديد المساحة القطنية : فى منطقة السكلاريدس بنسبة ٣٠ ٪ وفى غيرها بنسبة ٢٥ ٪ من المساحة القابلة للزراعة . وسيكون من شأن هذا القرار الاكثار من زراعة القمح والفواكه وغيرها من المواد الغذائية حتى تسد حاجة القطر وتغنيه عن استيراد كثير من المواد الغذائية من الخارج .

٧ — واذا رجعنا الى تاريخ التجارة الخارجية المصرية وجدنا أن مصر فى أوائل القرن التاسع عشر كانت من الممالك التى تصدر المواد الغذائية ولكنها أصبحت الآن تعتمد على الخارج فيما يلزمها من الحبوب والدقيق وغيرها وتستورد منها مقادير كبيرة . وهذا ناتج طبعاً من بذل كل العناية الى ترقية محصول القطن . كذلك كانت مصر تصدر الى الخارج فى سنة ١٨٣٦ من المنسوجات القطنية ما قيمته ٦٢٠٠٠ جنيه أى نحو ٣ ٪ من مجموع الصادرات . ولكن هذه النسبة أصبحت الآن فى حكم العدم . وقد لاحظت ، بحق ، لجنة التجارة والصناعة التى ألفت فى سنة ١٩١٦ : « ان المكانة الاقتصادية لتجارة الصادرات المصرية قد ضعفت وانحطت ، لأن تنوع المواد التى تتكون منها تلك الصادرات ، آخذ فى النقص بدل الزيادة . وهذا يجعل اعتماد القطر على البلاد الأجنبية أشد واعظم منه فى أى زمن سابق كما أنه يجعل دائرة الانتاج قاصرة قصوراً لم يسبق له نظير فى تاريخ البلاد » .

٨ — **صادرات مصر** — أهم صادرات مصر الى الممالك الأجنبية هو القطن . وقد بلغت قيمة الصادر منه فى سنة ١٩٢٩ مبلغ ٤١,٣٦١,٠٠٠ جنيه ، وفى سنة ١٩٣٠ ، ٢٣,٧٨٨,٠٠٠ جنيه ، وفى سنة ١٩٣١ ، ١٩,٦٨٨,٠٠٠ جنيه . وهذا بالنسبة الى مجموع الصادرات يمثل ٥و ٨٠ ٪ فى سنة ١٩٢٩ ، ٤و ٧٤ ٪ فى سنة ١٩٣٠ ، ٥و ٧٠ ٪ فى سنة ١٩٣١ . هذه الأرقام تدلنا على مقدار نقص قيمة الصادر من القطن فى السنتين الاخيرتين نظراً للازمة العالمية الحاضرة وكساد الصناعة القطنية . ومع ذلك يمكن أن نلاحظ أن نقص قيمة الصادر من القطن يرجع الى انخفاض الأثمان اكثر منه الى نقص

الكمية المصدرة إذ لم يقل الصادر منه فى سنة ١٩٣١ عن سنة ١٩٢٩ الا بمقدار ٣ ٪ ، وفى الجدول الآتى بيان كمية الصادر من القطن فى الثلاث سنوات الأخيرة ، ومتوسط ثمنه:

السنة	كمية القطن المصدر (بالقنطار)	متوسط ثمن القنطار (بالريال)
١٩٢٩	٧و٦٢٥و٠٠٠	٢٧و١٣
١٩٣٠	٥و٩٢٧و٠٠٠	٢٠و٠٨
١٩٣١	٧و٣٩٧و٠٠٠	١٣و٣١

وأهم صادرات مصر ، عدا القطن : بذرة القطن . الأرز ، البصل ، زيت بذرة القطن ، والسجاير ، والفوسفات والبيض ، والكسب واليك بيان قيمة الصادر منها فى السنوات الثلاث الأخيرة (بآلاف الجنيهات المصرية) :

أهم الصادرات	سنة ١٩٢٩		سنة ١٩٣٠		سنة ١٩٣١	
	قيمة الصادر	النسبة المئوية لمجموع الصادرات	قيمة الصادر	النسبة المئوية لمجموع الصادرات	قيمة الصادر	النسبة المئوية لمجموع الصادرات
بذرة القطن	٢و٨٦١	٨و٥ ٪	١و٨٦٥	٨و٥ ٪	١و٤٣٧	١و٥ ٪
الأرز	٩٦٧	٢ ٪	٦٣٣	٢ ٪	٣٥٠	١و٢ ٪
البصل	٨٧٢	١و٧ ٪	٥٤٠	١و٧ ٪	٧١٧	٢و٥ ٪
زيت بذرة القطن	٤٧١	٩و ٪	٤٢٥	١و٣ ٪	٢٨٨	١ ٪
السجاير	٣٥٢	٧و ٪	٣١٢	١ ٪	٢٤٨	٨و ٪
الفوسفات	١٧٧	٣و ٪	٢٥٨	٨و ٪	٢١٧	٧و ٪
البيض	٣٢٠	٦و ٪	٢٥٨	٨و ٪	٣٢٢	١و١ ٪
الكسب	٦٠٧	١و٢ ٪	٩٠٧	٢و٨ ٪	٧٩١	٢و٨ ٪

ويلاحظ أن تجارة الصادرات المصرية عانت فى المدة الأخيرة عناء شديدا من القيود والرسوم الجمركية المرتفعة التى فرضتها بعض الدول عليها مثل الولايات المتحدة . فان ضريبة السبعةسنتات التى فرضتها على كل رطل من القطن المصرى قد انقصت مقدار الصادر اليها منه من ٢٧٧و٠٠٠ و ١ قنطارفى سنة ١٩٢٩ الى ١٨٦و٠٠٠ قنطار فى سنة ١٩٣١ . وقد نقصت ايضاً صادرات القطن الى فرنسا نظراً للضائقة الشديدة التى تعانيها تلك الصناعة فيها .

وقد قامت الحكومة فى العام الماضى بالدعوة للاقطان المصرية والعمل على التعامل بها فى البورصات الأجنبية . وعلى اثر ذلك زاد ما تستورده بعض الدول من القطن المصرى خصوصاً المانيا ، والهند ، واليونان ، والسويد ، وكندا ، والصين ، واسبانيا. وتبذل الحكومة مجهودات كبيرة للحصول على الغاء الضريبة الاميريكية على القطن .

٩ — **واردات مصر** — تتبع واردات مصر ثمن القطن وكمية محصوله ، لأن قوة شراء الأهالى من الخارج تتوقف على ذلك المحصول .

وقد نقصت قيمة واردات مصر فى السنتين الأخيرتين ، بسبب هبوط اسعار القطن من جهة ، ومن جهة أخرى فأن التجار فى مصر كانوا قد استوردوا مقادير كبيرة من السلع قبل تطبيق التعريفة الجمركية الجديدة التى نفذت فى ١٧ فبراير سنة ١٩٣٠ . ويقدر ما استوردته مصر فى سنة ١٩٢٩ بمبلغ ٥٦ مليون جنيه ، وفى سنة ١٩٣٠ بمبلغ ٤٧و٤٨٠و٠٠٠ جنيه وفى سنة ١٩٣١ زاد نقص الواردات فلم تتجاوز قيمتها ٣١و٥٢٩و٠٠٠ جنيه أى بنقص ١٥و٩٥٩و٠٠٠ عن سنة ١٩٣٠ . وهذا النقص يمكن تعليله بالأسباب السابق ذكرها ، اذ أن ما يقرب من ٩٠ ٪ من سكان مصر يشتغلون بالزراعة وقد تأثرت مقدرتهم على الشراء بسبب نقص اثمان المحصولات الزراعية ، ويمكن ان نزيد على ذلك ازدياد هبوط الأثمان فى سنة ١٩٣١ . ويرجع نقص الورادات أيضاً الى تشجيع انتاج بعض الحاصلات القومية .

وأهم واردات مصر هى : المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية ، والحديد ، والصلب والسماد ، والقمح ، والدقيق ، والسكر ، والشاى . والبن والفلفل والنبيذ . والزجاج والكحول والبترول والآلات والروائح والبنزين والمازوت والأسماك ، والجبن والاحذية وخشب البناء والفحم والصابون وخيوط القطن والحقائب والتبغ والفواكه والخضروات . وفى

الجدول الآتى بيان قيمة أهم الواردات فى المدة من أول سبتمبر سنة ١٩٣٠ لغاية ٣١ اغسطس سنة ١٩٣١ . (١)

أهم الواردات	القيمة بالجنيهات المصرية
الخضروات والفواكه	٤و٣٧٢و١١٤
المواد المعدنية	٢و٨١٨و٠٨٣
المواد الكيماوية	٣و٣٢٧و٩٧٢
المنسوجات	٨و٤٦٣و٣٩٠
المعادن العادية (المصنوعة والخام)	٢و٩٤٥و٥٢٥
الآلات والقطع الميكانيكية (الخ)	١و٩٦٢و٩٨٧
مواد التغذية والتبغ	٤و٠٤٤و٨٦٤
مواد أخرى	٦و٣١٧و٤٣٩
الجملة	٣٤و٢٥٢و٣٧٤

١٠ — **تجارة الترانسيت** — كانت مصر مستحوذة على جانب كبير من تجارة الترانسيت بين أوروبا والشرق ، وذلك نظراً لموقعها الجغرافى. الا أن الاحصاءات فى السنوات الأخيرة تدل على نقص هذه التجارة . وربما كان منشأ ذلك الأزمة العالمية التى نتج عنها قلة المبادلة بين الأقطار (٢) . كذلك تدل الاحصاءات على نقص البضائع المعاد تصديرها فى سنة ١٩٣١ (٣) .

(١) هذه الارقام مأخوذة من احصاءات البنك الاهلى .

(٢) كانت الاحصاءات لا تتضمن بياناً عن البضائع التى تمر برسم الترانسيت الا الفحومات وزيت الوقود . ولكن ابتداء من سنة ١٩٣٢ شرعت مصلحة الجمارك فى اتخاذ التدابير التى تمكنها من نشر البيانات الخاصة بها .

(٣) أهم الاصناف المعاد تصديرها : الكيروزين ، والبنزين ، والمازوت والفحم الحجري والسجاجيد ، والبسط ، والاكياس الفوارغ والسيارات والسجاير .

١١ — **الممالك التى تتجر معها مصر** — هي انجلترا ومستعمراتها ، وفرنسا ، وايطاليا ، والمانيا ، والولايات المتحـــدة ، وشيلى ، والبلجيك ، بلجيكا ، ورومانيا ، وتشكوسلوفاكيا ، واليابان ، واليونان ، وروسيا ، وفلسطين ، وسوريا ، وسيام ، والهند ، والهند الصينية الفرنسية ، والمستعمرات الهولندية ، والنمسا ، وسويسرا ، وهولندا ، والسويد ، وبلغاريا ، وتركيا .

ويلاحظ أن لانجلترا المقام الأول فى تجارة مصر الخارجية . فهى أكبر دولة تتعامل معها مصر سواء فى المبيعات أو فى المشتروات . الا أنه بمقارنة الأرقام الخاصة بالتجارة الخارجية قبل الحرب ، بمثيلاتها بعـد الحرب نرى أن نصيبها من التجارة المصرية آخذ فى فى النقص : ففى سنة ١٩١٣ كانت بريطانيا تشترى من صادرات مصر نحو ١ و٤٣ ٪ . وتبيع لها من وارداتها نحو ٥ و ٣٠ ٪ . وقد انخفضت هذه النسبة فى سـنة ١٩٣٠ الى ٥ و ٣٤ ٪ بالنسبة الى الصادرات والى ٧ و٢٣ ٪ بالنسبة الى الواردات . على أننا لو أنعمنا النظر لوجدنا أن نقص تجارة الواردات الانجليزية فى مصر يرجع الى سنة ١٩٢٥ . إذ فى السنين التى تلت الحرب مباشرة لم ينقص نصيب انجلترا بل بالعكس وزادت وارداتهـا فى سنة ١٩٢٢ الى ٣٤ ٪ ، أى بزيادة ٥ و ٣ ٪ عما كانت عليه فى سنة ١٩١٣ . ولـكن ابتداء من سنة ١٩٢٥ ، وهى الســـنة التى أصلحت فيها انجلترا نظامها النقدى ، أخذت وارداتها فى النقصان . وذلك يرجع الى أن نفقـة الانتاج فى انجلترا أعلى مما هى فى غيرها ، لارتفاع أجور العمال . ولذا لايمكن أن تزاحم الممالك الأخرى فى الأسواق الدولية . وعلى أثر ذلك أخـذ نصيب انجلترا فى الواردات المصرية يقـل شيئاً فشيئاً فانخفضت الواردات الانجليزية فى سنة ١٩٢٥ الى ٢ و ٢٥ ٪ وفى ســـنة ١٩٢٦ الى ٨ و ٢١ ٪ وفى سنة ١٩٢٧ انتعشت بعض الشىء فاصبحت تعادل ٦ و٢٥ ٪ ولـكنها أخذت فى الانخفاض بعد ذلك فـكانت نسبتها ٧ و ٢١ ٪ فى سنة ١٩٢٨ ، وكانت ٧ و ٢٣ ٪ فى سنة ١٩٣٠ . وهذا ما أدى فى العام الماضى الى ارسال بعثة تجارية انجليزية تحت رئاسة الســـير بلفور لتوثيق العلاقات التجارية بين مصر وانجلترا .

الا أن عدول انجلترا عن قاعدة الذهب فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣١ وانخفاض الجنيه الانجليزى والجنيه المصرى تبعاً له مما يؤدى الى اتساع نطاق العلاقات التجارية بين مصر

وانجلترا لأن المصرى ليس من مصلحته أن يشترى من الممالك التى لا تزال متبعة قاعدة الذهب . اذ أن أثمانها تعتبر مرتفعة بالنسبة اليه ، نظراً لتدهور نقوده ، فهو مضطر بناء على ارتباط النقد المصرى والانجليزى أن يستورد منها ما تنتجه من المواد . وقد نشطت قليلا صناعة القطن فى لانكشير على أثر هبوط الجنيه وزاد مقدار ما صدر اليها من القطن المصرى فى المدة من ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣١ الى نهاية الأسبوع الثانى من يناير سنة ١٩٣٢ عما صدر فى نفس المدة من الموسم السابق بمقدار ٢٩٦،٠٠٠ قنطار .

١٢ — أما نصيب الممالك الأخرى فيتبين من الجدول الآتى ومنه يتضح الفرق بين نصيب أهم الممالك فى تجارة مصر الخارجية قبل الحرب ، وفى سنتى ١٩٣٠ و١٩٣١ :

اولا : تجارة الصادرات(١)

الدولة	النسبة المئوية فى سنة ١٩١٣	النسبة المئوية فى سنة ١٩٣٠	النسبة المئوية فى سنة ١٩٣١
فرنسا	٨٫٨ ٪	١٤٫٤ ٪	١٢٫٨ ٪
المانيا	١٢٫٨ ٪	٧٫٩ ٪	٩٫١٢ ٪
ايطاليا	٣٫٢ ٪	٦٫٢ ٪	٥٫٩٩ ٪
الولايات المتحدة	٧٫٨ ٪	١٫٦ ٪	٢٫٥ ٪
روسيا	٧٫١ ٪	٥٫٤ ٪	٦٫٠٨ ٪
سويسرا	٣٫٢ ٪	٣٫٩ ٪	٣٫٥ ٪
الهند	—	٣٫٤ ٪	٤٫٥٤ ٪
اليابان	٢٫٣ ٪	٣ ٪	٤٫٧٥ ٪

(١) راجع مقالة مستر كريج عن تجارة مصر الخارجية فى المانشستر جارديان : اول مارس سنة ١٩٣٠ . وراجع تقرير ادارة الجمارك عن سنة ١٩٣١ .

ثانياً : تجارة الواردات(١)

الدولة	النسبة المئوية فى سنة ١٩١٣	النسبة المئوية فى سنة ١٩٣٠	النسبة المئوية فى سنة ١٩٣١
فرنسا	٩٪	٩و٤٪	٩و٨٪
ايطاليا	٥و٣٪	٩و١٪	٩و١٧٪
المانيا	٥و٨٪	٧و٩٪	٨و٠٥٪
الولايات المتحدة	١و٩٪	٤و٧٪	٤و٣٤٪
البلجيك	٤و٢٪	٣و٩٪	٣و٨٧٪
اليابان	٠و٢٪	٣و٦٪	٤و٨٧٪
الصين	١٪	٠و٦٥٪	٠و٧٤٪
الهند الصينية	٤و٨٪	١و٢٤٪	٠و٧٧٪
استراليا	١و٣٪	٢و٧٪	٣و١٢٪
روسيا	٣و٢٪	١و٩٪	١و٤٪
سويسرا	٥٪	١و٢٪	١و٣٪
رومانيا	٤٪	٣و٨٪	٣و٦٪

١٣ — **حالة الميزان التجارى المصرى** — يتأثر الميزان التجارى بسعر القطن . ولذا نجد أنه كان فى مصلحة مصر فى مدة الحرب وفى السنتين التاليتين لها . وذلك لأن القطن ارتفع ثمنه فى مدة الحرب لزيادة الطلب عليه . فبعد ان كان متوسط ثمنه فى سنة ١٩١٣ نحو ٣ جنيه و٣٠٨ مليمات زاد فى سنة ١٩١٩ الى ١٧ جنيه و٥٦٢ مليما . وفى الجدول الآتى بيان حالة الميزان التجارى فى أثناء الحرب ، وفى السنتين التاليتين لعقد الصلح :

(١) راجع مقالة مستر كريج السالفة الذكر وراجع ايضا ارمنجون . حالة مصر الاقتصادية والمالية . باريس سنة ١٩١١ . وتقرير ادارة الجمارك عن سنة ١٩٣١ .

(بالجنيهات المصرية)

السنة (من أول سبتمبر الى ٣١ أغسطس)	الواردات	الصادرات	الميزان التجارى زيادة (+) او نقص (—) الصادرات عن الواردات
١٩١٥ — ١٩١٦	٢٧,٥٤٥,٣٤٠	٢٩,٨٨٢,٣٩٣	+ ٢,٣٣٧,٠٥٣
١٩١٦ — ١٩١٧	٣٠,٠٩٥,٣٧١	٤٤,٥٨٧,٩٥٠	+ ١٤,٤٩٢,٥٧٩
١٩١٧ — ١٩١٨	٤٧,٢٨٥,٢٢٦	٤٨,٠١٩,٩٥٢	+ ٧٣٤,٧٢٦
١٩١٨ — ١٩١٩	٤٤,٣٣٤,٧٢٠	٤٨,٨٢٩,٩٥١	+ ٤,٤٥٩,٢٣١
١٩١٩ — ١٩٢٠	٨٧,٥٧٧,٩٨٥	١١٣,٤٦١,٨٠٦	+ ٢٥,٨٨٣,٨٢١

على أنه ابتداء من سنة ١٩٢٠—١٩٢١ رجع الميزان التجارى فأصبح فى غير صالح مصر ، وذلك لانخفاض أثمان القطن وكان مقدار العجز فى تلك السنة ٣٤,٠٥٤,٤١٧ جنيه ثم تحسن فى السنوات التالية ، ثم تغير بعد ذلك وأصبح فى غير مصلحة مصر من سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٦ الى سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ (أى عدا سنتى ١٩١٧ — ١٩٢٨) ، و (١٩٢٨—١٩٢٩) . وقد بلغ العجز اكثر من ١٤ مليوناً فى سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ و يعلل ذلك أولا بتدهور أثمان القطن كما بيناه من جهة ، و بكثرة ما استورده التجار قبل تطبيق التعريفة الجمركية الجديدة من جهة أخرى . فى الجدول الآتى بيان حالة الميزان التجارى من سنة ١٩٢٠ — ١٩٢١ الى سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ :

(بالجنيهات المصرية)

السنة (من أول سبتمبر الى ٣١ أغسطس)	الواردات	الصادرات	الميزان التجارى زيادة (+) او نقص (—) الصادرات عن الواردات
١٩٢٠ — ١٩٢١	٧١,٧٢٥,٦٧٧	٣٧,٦٩٠,٢٦٠	— ٣٤,٠٣٥,٤١٧
١٩٢١ — ١٩٢٢	٤٦,٠٠٦,٥٢٩	٥٠,١٨٥,١٤٠	+ ٤,١٧٨,٦٦١
١٩٢٢ — ١٩٢٣	٤٤,٤٥٣,١١٦	٥٣,٥٦١,٧٨٨	+ ٩,١٠٨,٦٧٢
١٩٢٣ — ١٩٢٤	٤٧,٤٤٠,٥٩٠	٦٤,١٠٩,٦٩٦	+ ١٦,٦٦٩,١٠٦
١٩٢٤ — ١٩٢٥	٥٦,٢٥٧,٥١١	٦٧,٩٥٢,٨٠٨	+ ١١,٦٩٥,٢٩٧
١٩٢٥ — ١٩٢٦	٥٥,٩٧٣,٠٧٥	٥٢,٨٥٥,٦٣٠	— ٣,١١٧,٤٤٥
١٩٢٦ — ١٩٢٧	٤٨,٢٣٠,٢٢٣	٤٥,٨٢٣,٠٣٥	— ٢,٤٠٧,١٨٨
١٩٢٧ — ١٩٢٨	٥١,٥٦٥,٣٨٨	٥٤,٣١٠,٩٨٣	+ ٢,٧٤٥,٥٩٥
١٩٢٨ — ١٩٢٩	٥٥,٢٨٤,٣٩٧	٥٧,١٩٥,٣٨٨	+ ١,٩١٠,٩٩١
١٩٢٩ — ١٩٣٠	٥٤,٠٥٦,٩٨٨	٣٩,٧٢٢,٠٢٩	— ١٤,٣٣٤,٩٥٩
١٩٣٠ — ١٩٣١	٣٤,٢٥٢,٣٧٤	٢٩,٣٣٠,٦٩٥	— ٤,٩٢١,٦٧٩
متوسط العشر السنوات الاخيرة من سنة ١٩٢١ — سنة ١٩٢٢ الى سنه ١٩٣٠ — ١٩٣١	٤٩,٣٥٢,٠١٩	٥١,٥٠٤,٧١٩	— ٢,١٥٢,٧٠٠

نستخلص من هذه الاحصاءات أن الميزان التجارى غير متوازن وأنه يجب معالجة هذا الاضطراب. وقد عملت الحكومة على السعى لايجاد أسواق جديدة لتصريف المحصول المصرى ونشر الدعاية له فى الخارج وادخاله فى التعامل فى البورصات الأوربية ونأمل أن تثمر هذه المجهودات قريباً . وهى الآن شارعة فى العمل على تشجيع صادراتنا من الفواكه والخضروات . وقد وضعت رقابة على المحصولات الرئيسة المعدة للتصدير . إذ أنشأت مصلحة التجارة والصناعة مكتباً لمراقبة الصادرات . وسيقوم هذا المكتب فى أول الأمر بمراقبة البيض والبصل ، لتحسين سمعة هذين الصنفين فى الخارج .

على أن توازن الميزان التجارى لن يتم على وجه مرضى الا بتنويع الزراعات والعمل على انهاض الصناعة . وسأعالج فى القسم الثانى من هذا البحث موضوع الصناعة وطرق انمائها فى مصر . انما يحسن قبل بحث هذا الموضوع أن نقول كلمة موجزة عن حالة ميزان الحسابات المصرى .

١٤ . — **ميزان الحسابات المصرى** : لا ينحصر ميزان الحسابات فى الميزان التجارى بل يشمل أيضاً عناصر أخرى متنوعة ، هى التى يطلق عليها العناصر الغير المنظورة invisibles ، ومن الصعب تقويمها بدقة ، ومن هذه العناصر : مصاريف السائحين الاجانب فى مصر ، ونفقات الحجاج ، والسائحين المصريين فى اوربا زمن الصيف ، وعددهم يختلف باختلاف السنوات ، وأقساط الديون المصرية ، والمبالغ التى تدفع لسد نفقات الجيش البريطانى ، وما يدفع فى مصر لسد قيمة الكوبونات التى يحملها سكان القطر ، والمبالغ التى تدفعها الشركات لمساهميها وحملة سنداتها فى الخارج ، والمبالغ التى تدفع بمصر نظير خدمات شركة قنال السويس للملاحة ، ونفقات التمثيل السياسى الأجنبى فى مصر ، ونفقات تمثيل مصر فى الخارج . والمبالغ التى تدفع لأعضاء البعثات العلمية ، ونفقات المراكب الأجنبية فى الموانىء المصرية ، وفوائد السندات الضامنة لأصدار البنكنوت المصرى . هذه العناصر كلها يجب مراعاتها فى تقدير ما لمصر وما عليها من الديون .

ويمكن القول أن مصر تكون دائنة للخارج غالباً فى فصل الشتاء إذ تصدر مقادير كبيرة من القطن فى ذلك الوقت ، كذلك يكثر عدد السائحين الأجانب فى مصر . وبالعكس تكون مدينة فى فصل الصيف اذ تقل فيه الصادرات المصرية ، ويكثر سفر المصريين لقضاء فصل الصيف فى الخارج .

ويكاد يكون من المستحيل أن نبين بدقة حالة ميزان الحسابات المصرى . الا أن البنك الأهلى يرى فى تقاريره السنوية أنه قد يصح القول بتعادل العناصر التى يتألف منها الميزان الحسابى بعضها مع بعض فى السنوات العادية .

وقد كان ميزان الحسابات فى مصلحة مصر فى مدة الحرب ، وذلك لارتفاع ثمن القطن ولكثرة ما أنفقته انجلترا على جيوشها فى مصر . وانه وان قل قدوم السائحين الى مصر فى فصل الشتاء فى تلك المدة ، فان هذا النقص قد عوضه وجود الجيوش البريطانية فى مصر ، كما أن المصريين الذين كانوا ينفقون فى الخارج أموالا طائلة فى فصل الصيف ، اضطروا

الى ملازمة بلادهم ، كذلك قلت الواردات الى مصر ، بسبب صعوبة المواصلات و بطئها كما أن الحكومة المصرية وضعت قيوداً على الاستهلاك ، وحددت الحصة التى يستهلكها كل فرد من بعض السلع ، كما أنه كان لمصر رؤوس أموال كبيرة فى الخارج منها بونات الخزينة البريطانية التى كانت تأتى بربح كبير للدولة وقد زاد مقدار هذه البونات نظراً لزيادة الاصدار فى مصر .

وقد قدر ما كسبته مصر فى مدة الحرب ، نظراً لأن ميزان الحسابات كان فى صالحها ، بمبلغ ١٠٠ مليون جنيه .

الا أنه ابتداء من سنة ١٩٢١ فقدت مصر معظم ما كسبته فى أثناء الحرب ، إذ غالت فى الاستيراد و كان عجز الميزان التجارى وحده فى سنة ١٩٢٠ — ١٩٢١ يقدر بنحو ٣٤,٠٣٥,٤١٧ جنيه .

ولما كان مسألة توازن الحسابات لها أهمية حيوية نأمل أن تهتم الحكومة بوضع إحصاءات شاملة وأن تعمل على الحصول على المعلومات اللازمة من شركات الملاحة ، والفنادق ، والمصالح المختلفة (١) .

---

(١) وقدر المستر كريج السكرتير المالى للحكومة المصرية ما ينفقه السائحون الاجانب في مصر بما يتراوح بين مليونين وثلثة ملايين جنيه . وهذا المبلغ يعادل تقريبا ما ينفقه السائحون المصريون بأوربا فى فصل الصيف ، والحجاج . وقدر الفوائد التى تدفع للماليين الاجانب الذين يستثمرون أموالهم فى مصر بما يتراوح بين ثمانية ملايين وتسعة ملايين جنيه . على أن هذا التقدير اساسه المدة التى قبل الحرب . وقدرت مذكرة اللجنة المالية عن مشروع الميزانية سنة ١٩٣٢ — ١٩٣٣ المبالغ المدفوعة نظير البضائع المستوردة أو الخدمات المؤداة للجيش البريطاني بمبلغ ١و٦ مليون فى سنة ٩٢٩ ، ١و٩ مليون في سنة ١٩٣٠ ومليونين في سنة ١٩٣١ . وقدرت أيضا المبالغ التى تدفع فى مصر نظير خدمات شركة قنال السويس للملاحة من جهة ، ولسد قيمة الكوبونات التى يحملها سكان القطر المصرى من جهة اخرى فى سنة ١٩٢٩ ، بمبلغ ٢و٦ مليون ، وفى سنة ١٩٣٠ بمبلغ ٢و٤ مليون وفى سنة ١٩٣١ بمبلغ ٢و٣ مليون راجع كريج : تجارة مصر الخارجية فى المانشستر جارديان . العدد الخاص بمصر — أول مارس سنة ١٩٣١ .

٢

الصـــناعة فى مصر

١٥ــان عدد سكان القطر المصرى آخذ فى الازدياد . و بحسب تعداد سنة ١٩٢٧ يبلغون ١٤٫٢١٧٫٨٦٧ . ولما كانت مساحة الآراضى المنزرعة تبلغ نحو ستة ملايين فدان ولا يمكن زيادتها عن ذلك الا قليلا ، وجب التفكير فى ايجاد موارد عمل لهذا العدد الكبير من السكان ، والاهتمام بترقية الصناعة . اذ أن التطور الاجتماعى يتوقف على التطور الصناعى . وأن دولة تهمل الصناعة لهى دولة متأخرة .

و ربما كان التعبير ، بأن دولة ما صناعية أو غير صناعية ، غير دقيق ، بل الأصح أن نقول أن دولة وصلت أو لم تصل بعد الى المرحلة الصناعية. فالأمة كما بينا تنتقل من مرحلة الرعى الى مرحلة الزراعة ومن الطور الزراعى الى الطور الصناعى .

١٦ — وان تاريخ القطر المصرى ، من عصر الفراعنة الى الآن ، يبين لنا بدقة ذلك التلازم بين درجة رقى الدولة ، وحالة الصناعة فيها .

ففى عصر الفراعنة تدل الأبحاث على مبلغ حضارة المصريين ، وكيف أنهم كونوا فكرة صحيحة عن نظام الحكم ، وقد ازدهرت الصناعة فى عصرهم . و كانت تتميز اذ ذاك بصفة الابتكار . فلم يكن الصانع المصرى مقلداً فى عمله للغير بل كان يتميز بسبقه فى ذلك الميدان . وأهم الصناعات التى وجدت فى ذلك العهد : صناعة التعدين ، وسبك المعادن . يدلك على تقدمها تلك التماثيل والآلات الزراعية المصنوعة من النحاس ، كذلك صناعات النقـــل (السفن الصغيرة والعجلات) ، وصناعة البناء ، يشهد بعلو كعبهم فيها الاهرامات الخالدة ، وصناعة النجارة ، والفخار ، والمصوغات ، والمجوهرات والزجاج . وان آثار قدماء المصريين لتبين مبلغ المامهم بفن الكيمياء . الا أن رقى الصناعة فى مصر كانت تعتوره فى بعض الأحيان ، فترات من الخمول ، تبعاً لتحكم الدول الفاتحة لها .

وفى عهد البطالسة كانت مصر أرقى مملكة فى البحر الأبيض المتوسط ، فكان المصريون ينسجون أدق الخيوط ، وانتشرت فى ذلك العصر صناعة الزجاج ، وأوراق البردى....الخ

١٧ — وبعـــد انتهاء عصر الأسرة اليونانية المصرية ، أخذت الصناعة فى التدهور ، الى أن جاء الاسلام ، فأعاد الفتح الاسلامى لمصر مركزها الصناعي . وقد كانت مصر

مركزاً تجارياً مهماً فى ذلك العصر نظراً لموقعهـــا الجغرافى . والصناعات ، التى كانوا يزاولونها ، : اما صناعات مدنيـــة مثل صناعة البناء ، إذ اشتهرت مصر فى ذلك الوقت بالتبليط والترخيم والنحت ، مثل صناعة الجلود والمصوغات والأثاث والزجاج ، والورق والحصر ، والشمع ، والصـابون ، والسكر ، والدقيق ، والحلوى . واما صناعات حربيـة مثل صناعة الأسلحة ، والسروج ، والتروس والخيـــام والسفن[1] . وكانت الصناعات المصرية خاضعة لنظام الطوائف ، فكان لكل طائفة شيخ يشرف على أعمالها .

على أن أهم عصر اسلامى لرقى الصناعة هو عصر الفاطميين ، ويرجع ذلك الى عناية الخلفاء بها وما كانوا يوالونها به من اعانات وجوائز صناعية ، وتشجيعها بالمشتروات منهـا

١٨ — هذا العصر الذهبى للصناعة المصرية ما لبث أن انتهى فى عهـــد المماليك والترك . ويمكن تعليل ذلك بتعسف الأتراك فى فرض الضرائب على المصريين . فكانوا يبذلون جهدهم فى ابتزاز اكبر ما يمكن من الأموال دون نظر الى مصلحة الشعب ، كذلك أخذ الأتراك ، عند فتحهم لمصر ، عدداً كبيراً من الصناع المصريين . كما أن تحول مجرى التجارة عن مصر ، بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، أضعف مركزها التجارى . وفى هذا العصر ضعفت روح الأختراع عند الصانع المصرى . وبعد أن كانت الصناعة أساسها الابتكار ، تغيرت مهمة الصانع فأصبح مقلداً ، ولذا يسمى هذا العصر ، عصر التقليد

١٩ — ولما ولى محمد على باشا على مصر عمل على انقاذها من حالة الفوضى ، وسعى الى استقـــلال مصر سياسياً واقتصادياً . واستعان بالخبراء الاجانب خصوصاً الفرنسيين والايطاليين (الا أنه ما لبث أن طرد الايطاليين لمنازعات سياسية) . وقد عمل هؤلاء الاجانب على مساعدة مصر بمعلوماتهم الفنية والزراعية والصناعية .

وقد كانت المشروعات الصناعيـة ، فى عهد محمد على ، مشروعات حكوميـة ، أهمها : صناعة السفن ، إذ أنشأ داراً لصناعة السفن ببولاق . وأنشأ مصانع للنسيج والغزل وكان يصدر ما يزيد عن حاجة مصر الى سوريا ، واوربا ، وعنى بصناعة الحرير ، واكثر من

---

(١) راجع تقرير لجنة التجارة والصناعة . المطبعة الاميرية سـنة ١٩٢٥ . وراجع أيضا أرمنجون . حالة مصر الاقتصادية والمالية . باريس سنة ١٩١١ ، وراجع كتاب المقريزي ومقال نوس بك فى مجلة مصر العصرية ، يناير سنة ١٩٣٠ .

زراعة أشجار التوت . وأنشأ كثيراً من الصناعات الأخرى ، مثل صناعة الجوخ ، والطرابيش ، والزيوت .

ولم يهمل محمد على باشا الجانب العلمى والمعنوى للحركة الصناعية . فانشأ مدرسة الفنون والصنائع . وبث فى نفوس الناس روح تشجيع الصناعات الوطنية .

هذا البناء ، الذى أقامه محمد على باشا ، لم يلبث أن انهار بعد وفاته . اذ أهمل الحكام الذين قاموا بعده تعهد ذلك العمل العظيم الذى بدأ به .

٢٠ — وعلى أثر انشاء المحاكم المختلطة أخذت رؤوس الأموال الأجنبية تفد الى مصر لتستغل فيها . وانشئت عدة شركات صناعية ، منها شركات الترام ، وشركات الماء ، وشركة السكر ، وشركات الكهرباء ... الخ . وقد استعانت بالعمال المصريين ، والاجانب النازحين من بعض بلاد البحر الأبيض المتوسط . وأظهر العامل المصرى نبوغاً فى العمل تحت اشرافهم ، حتى أنه يمكن القول ان الصانع المصرى ، ورث اليوم شيئاً عن مهارة أسلافه ، التى حازت اعجاب العالم فى ما مضى .

٢١ — ولما نشبت الحرب العظمى ، أوجدت فى نفوس المصريين روح الاعتماد على النفس ، إذ أن صعوبة المواصلات ، وقلة الانتاج فى مصر ، أجبرت الشعب على القيام بسد حاجياته . خصوصاً أن مصر كان يجب عليها أن تنتج ما يكفي حاجة سكانها ، والجيوش المرابطة فيها فى ذلك الوقت . فنشأت عدة صناعات منها صناعة الأخشاب ، والتغذية ، وصنع الملابس ، والفخار ، وأدوات البناء وبعض صناعات التعدين ، والجلود وبعض الصناعات الاستخراجية والزجاج .

ويمكن أن نقارن تأثير الحرب فى الصناعة المصرية بحالة الحصر البحرى فى اوربا أيام الحرب النابليونية ، إذ امتنع دخول المنتجات الانجليزية فى القارة ، فأنشئت عدة مصانع للقيام بانتاج السلع التى تعذر استيرادها . كذلك كان الحال فى مصر . إذ أصبح من المتعذر استيراد كثير من المواد المصنوعة فانشئت عدة مصانع لانتاج ما كانت البلاد تشتريه من أوربا .

ويلاحظ أن تلك الصناعات كانت وليدة الحاجة فلم تقم الحكومة فى بادىء الأمر بتعضيدها . ولكن لما طالت مدة الحرب ، ألفت الحكومة لجنة فى سنة ١٩١٦ تسمى لجنة التجارة والصناعة برئاسة حضرة صاحب الدولة اسماعيل صدقى باشا ، وصدر قرار

مجلس الوزراء بتشكيلها فى ٨ مارس سنة ١٩١٦ . وكانت مهمة تلك اللجنة بحث تأثير الحرب فى الصناعة والتجارة فى مصر . واقتراح التدابير المؤدية لتشجيع وايجاد أسواق جديدة ، لتصريف الحاصلات المصرية ، واستبدال الأصناف التى انقطع ورودها بغيرها مما يصنع فى مصر ، و بحث طرق التعليم الفنى والتجارى . وقد زارت اللجنة معظم المصانع ووضعت اللجنة تقريراً مسهباً مفيداً ، بينت فيه الطرق التى يمكن اتخاذها لتشجيع الصناعات المصرية وتوسيع نطاقها . ولكن ما جاء بتقرير اللجنة لم يعمل على تنفيذه ولم يوضع لنا برنامج اقتصادى ثابت نسير عليه .

٢١ — وفى سنة ١٩٢٠ فكر عدد من المصريين فى انشاء بنك مصرى ، تكون كل عناصره مصرية ، رأس ماله يكتتب فيه المصريون وحدهم ، مديروه وموظفوه مصريون . هذا هو بنك مصر الذى يعتبر الخطوة الأولى لاقبال المصريين على المشروعات المالية والتجارية ، وقد زيد رأس ماله الى أن أصبح مليون جنيه . وعمل البنك على انشاء مشاريع صناعية . لها شخصية متميزة عن شخصيته ، وميزانية مستقلة عن ميزانيته . ولكنها تتمتع بمساعدته وتعضيده . وقد عمل البنك على استجلاب ثقة أصحاب الأموال . وبلغ عدد الشركات التى أنشأها عشرا هى : مطبعة مصر ، شركة مصر لتجارة وحلج القطن ، شركة مصر للنقل والملاحة ، شركة مصر للسينما والتمثيل ، شركة مصر لغزل القطن ونسجه ، شركة مصر لنسج الصوف ، شركة مصر للكتان ، شركة مصر لصيد الأسماك ، شركة مصر للتصدير ، شركة مصر لصنع الورق ، وأخيراً قام البنك بانشاء شركة للطيران[1].

هكذا عمل بنك مصر على اجتذاب المصريين نحو الصناعة ، وعلى تشجيعهم على توظيف رؤوس أموالهم فى المشروعات المالية والتجارية فمصر مدينة له بتلك الروح الجديدة التى بثها فى النفوس .

---

(١) وقد قررت الحكومة منح شركة الطيران التسهيلات الآتية (١) ايجار الاراضى اللازمة لها بأجور مخفضة (٢) استخدام الراديو الكهربائى بلا مقابل (٣) دفع اعانة لتشجيع تعليم الطيران عن كل فرد من المصريين (٤) اعفاؤها من رسوم الواردات على الطائرات وجميع المواد التى تستوردها للقيام بعملها (٥) منحها اعانة سنوية .

٢٣ — **حالة الصناعة فى مصر فى الوقت الحاضر** — بعد تلك المقدمة الموجزة عن تاريخ الصناعة فى مصر ، يحسن بنا أن ندرس حالتها فى الوقت الحاضر .

يدل تعداد السكان الذى حصل فى سنة ١٩٢٧ على أن فى بلادنا حركة صناعية قابلة للاتساع . وقد زاد عدد المشتغلين بالصناعة بعد ان كان عددهم يقدر فى سنة ١٩١٧ بـ ٩١١و٤٢٨ زاد الى ٩٦٩و٥٥٥ فى سنة ١٩٢٧ أى نسبة الزيادة فى عشر سنوات تبلغ ٢٩،٦ ٪ ، بينما بلغت نسبة زيادة السكان فى نفس المدة ١١،٥ ٪ (زاد عدد السكان من ٩١٨و٧٥٠و١٢ فى سنة ١٩١٧ الى ٨٦٧ر٢١٧ر١٤) . كذلك زادت نسبة التعليم الصناعى ، فعدد طلبة المدارس الصناعية زاد من ٢٦٥٠ فى سنة ١٩١٧ الى ٦١٧٥ فى سنة ١٩٢٨ أى بزيادة ١٣٢ ٪ فى بحر أحدى عشرة سنة .

وهاك بيان أهم الصناعات فى مصر :

٢٤ — ١ : **صناعة السكر**[1] — هى أكبر الصناعات فى مصر . ويبلغ عدد المشتغلين بها نحو ٢٧ الف عامل . وتقوم بهذه الصناعة ، شركة مؤسسة برؤوس أموال أجنبية . وقد كانت حالة الشركة فى تدهور مستمر قبل الحرب . وقد أفلست فى سنة ١٩٠٥ اذ كانت تنتج بخسارة ، نظراً لمزاحمة السكر النمسوى ، الذى كانت توليه حكومته بالمنح (primes) . ولأن رئيس مجلس ادارتها كان يغالى فى المضاربات . الا أنه عقد صلح بين الدائنين والشركة . وقامت على أثر ذلك إدارة جديدة اتبعت فى ادارتها روح الاقتصاد والطرق الحديثة فى الانتاج .

ولما نشبت الحرب العظمى ، وترتب عليها وقف صناعة السكر فى أوربا ، نظراً لتخريب بعض الأقاليم التى تزرع البنجر ، نشطت تلك الصناعة وزاد الانتاج المصرى وبلغ مقدار ما تصدره الى الخارج نحو ٢٠٠٠٠ طن وقد زادت أرباح الشركة فى ذلك الوقت ، نظراً لارتفاع أثمان السكر ووقف حركة التجارة النمسوية فى البحر الأبيض . ففترة الرخاء الحقيقية للشركة هى مدة الحرب .

ولما تأثرت شركة السكر بالأزمة الحالية ، عقدت معها الحكومة اتفاقاً فى شهر فبراير

---

(١) راجع عبد الحكيم الرفاعى ، حماية صناعة السكر فى مصر ، مجلة القانون والاقتصاد ، السنة الاولى صفحة ٦١١ — ٦٤٨ .

سنة ١٩٣١ ، على أن تنتج ما يكفى حاجة القطر على أن تفرض الحكومة رسوماً جمركية مرتفعة ، تمنع مزاحمة السكر الأجنبى للسكر المصرى . وتمكن الشركة من توزيع حصة عادلة من الأرباح على أسهم رأس المال وحصص التأسيس . ونظير ذلك تشترك الحكومة فى الأرباح اذا زادت عن حد معين ويكون لها الرقابة على الشركة .

٢٥ — ٢ : **صناعة الغزل والنسيج** — كانت هـذه الصناعة فى عهد محمد على . ولكنها اندثرت من بعده . وفى سنة ١٨٩٩ أنشئت الشركة الانجليزية المصرية للغزل والنسيج باسكندرية ففرضت الحكومة على منتجاتها رسما مساوياً للرسم الجمركى ، عاق هذا الرسم الشركة فصفيت . وحل محلها شركة الغزل الأهلية بالاسكندرية . ومن وقت تأسيس الشركة فى سنة ١٩٠٢ الى الآن ، أخذت تستعمل الأساليب الحديثة فى الصناعة وقد أعفتها الحكومة من رسم الانتاج .

وقد انشأت حديثاً شركة مصر لغزل ونسج القطن مصنعا مزوداً بأحدث الآلات . وأتخذت الاجراءات لجعله مستوفياً للشروط الصحية . وبدأ المصنع عمله الا أنه لا بد أن تمضى فترة من الزمن ، حتى ينتج كل المقدار الذى يستطيع انتاجه أذ أن تدريب عدد كاف من العمال يستغرق وقتاً طويلا .

وتحت اشراف بنك مصر انشئت ايضاً شركة مصر لنسج الحرير . وقد أتى لها باحدث طراز من الآلات . ولم تجد شركة مصر لنسج الحرير صعوبة كبيرة فى اختيار العمال ، لأن عدداً من أهالى دمياط تدرب على هذه الصناعة منذ زمن طويل .

وانا نرجو أن يكون لصناعة غزل ونسج القطن نجاح كبير فى مصر . ولذلك لتوافر المادة الأولية . فغزل القطن ونسجه يعود بربح اكبر مما لو استوردنا الأقمشة أو الخيوط المغزولة من الخارج أذ نوفر مصاريف النقل والجمارك وارباح الوسطاء . ولأن أجر العامل المصرى أرخص من اجور العمال فى الممالك الاخرى وذلك لكثرة الايدى العاملة فى مصر .

على أنه قد يعترض على هذه الصناعة ، بان جو القطر المصرى جاف . ولكن يلاحظ أن متوسط درجة الرطوبة فى بعض الجهات يكفى للقيام بتلك الصناعة . ومن المتيسر استعمال وسائل الترطيب الصناعى .

وقد عملت الحكومة على تشجيع الشركتين القائمتين بهذه الصناعة (صناعة غزل القطن ونسجه) وذلك بمنحها اعانة قدرها ٣٠ قرشاً عن كل قنطار من القطن يستعمل فى صناعة الغزل والنسج مهما كانت رتبته ووضعت لمنح الاعانة شروطا أهمها : (١) ان تكون الأعانة على سبيل التجربة لمدة سنة قد تجدد أولا تجدد أو تعدل (٢) الا تدفع الأعانة الا بعد تحقق وزارة المالية من المقدار المستهلك من القطن (٣) أن تقطع دفع هذه الأعانة متى بلغت الأرباح الممكن توزيعها على رأس المال المدفوع ٥ ٪ (١).

وقد اتفق اخيراً على تخفيض الأعانة الى ١٠ قروش تدفع الى أن تصل أرباح الشركة الصافية الى ٥ ٪ كذلك منحتها الحكومة تسهيلات خاصة فى شراء القطن.

ويشتغل فى صناعة غزل المنسوجات القطنية نحو ٨٠٠٠ عامل وفى نسج الحرير نحو ٢٠٠٠ عامل.

٢٦ — ٣ : **صناعة المبانى** : صناعة الأدوات اللازمة للمبانى على جانب كبير من الأهمية. وأهم المصانع القائمة بذلك مصنع سورناجا. ويعمل به نحو ١٥٠٠ عامل ويقوم بصنع الطوب، والبلاط، والجبس، والأسمنت.

٢٧ — ٤ : **صناعة التعدين والتحجير** : وأهم المعادن التى تشتغل بمصر هى البترول والفوسفات والمنجنيز والمغرة واكسيد الجير وفى الجدول الآتى بيان مقدار المستخرج منها بالطن

السنة	البترول	الفوسفات	المنجنيز	المغرة واكسيد الجير
١٩٢٩	٢٧٢و١١٤	٢١٥و٣١١	١٩١و٤٧٧	١٠١٧
١٢٣٠	٢٨٥و٠٨٨	٣١٢و٠٨٢	١٢١و٢١١	١١٨٤
١٩٣١	٢٩٠و٠٠٠	٢٤٢و٢٠٥	١٠٠و١٩٥	٨٥٠

٢٨ — ٥ : **صناعة السجاير** : تنتج مصر أفخر السجاير فى العالم، ومعظم المصانع تابع لشركات أجنبية. وقد بلغ المصدر منها فى سنة ١٩٢٩ ما قيمته ٣٥٢٠٠٠ جنيه وفى سنة ١٩٣٠

(١) راجع مذكرة اللجنة المالية عن مشروع الميزانية ١٩٣٢ — ١٩٣٣.

مبلغ ٣١٢ الف جنيه ، وفى سنة ١٩٣١ يقدر الصادر بـ ٢٤٨ الف جنيه و يلاحظ أن الدول الاجنبية تفرض رسوماً عالية على السجاير المصرية وهذا ما يقلل استهلاكها فى الخارج .

٢٩ — ٦ : **صناعات الاطعمة** : من هـذه الصناعات صناعة استخراج الزيت . ويوجد بمصر عـدة معاصر ، فهو يستخرج من بذور الخس و بذور القطن والسمسم والقرطم .

ومنها صناعة المكرونة وقد تقدمت اخيراً فى مصر وبعض مصانعها مملوكة للمصريين.

ومنها صناعة البيرة.وتقوم بها شركة « بومونتى والاهرام » ومركزها بالاسكندرية ولها فرع فى الجيزة .

٣٠ — **صناعات أخرى** : ولا يتسع المقام هنا لدراسة جميع الصـــناعات الباقية فنكتفى بالاشارة الى أهمها وهى: صناعة السجاد — وقد أنشأت مصلحة التجارة والصناعة مصنعاً نموذجيا لتعليم وتدريب الفتيات حتى تصبح من الصناعات المنزلية. والصباغة وهى من الصناعات الملحقة بصناعة النسيج . وصناعة المواسير . وصناعة الأحذية وقد تقدمت فى المدن الكبرى ولا سيما فى دمياط . وصناعة دبغ الجلود وصناعة الاثاث وقد انشأت مصلحة التجارة و الصناعة معرضاً للاثاث يسترشد به الصناع فى أعمالهم . والطبع ، والروائح والاسمنت ، والصابون والشمع وضرب الأرز ، والورق إذ يوجد فى الاسكندرية مصنع لورق اللف يشتغل به نحو ٥٠٠ عامل منهم ٤٥٠ من المصريين . وصناعة الكحول . وصناعة العاج . وصناعة البضائع الجلدية . وصناعة صيد الأسماك . وقد انشأ بنك مصر شركة مصر لمصايد الاسماك لاستغلال مصايد الأسماك وتحويلها الى منتجات صناعية .

هـذه النبذة الموجزة تدل على أن فى مصر حركة صناعية وانها قـد تقدمت تقدماً محسوساً وان كان معظم المصانع لا يتبع الطرق الحديثة فى الانتاج .

٣١ — **مستقبل الصناعة فى مصر** : ان الزراعة عاجزة كما بينا عن الوفاء بمطالب شعب يزداد سكانه ازدياداً مضطرداً ، و يحتاج الى ترقية مستوى المعيشة لافراده . فلا بد اذن من الاهتمام بالصناعة لا سيما وعناصر الانتاج الصناعى متوافرة لدينا فالأيدى العاملة موجودة بكثرة وهى أرخص منها فى الممالك الأخرى . وقد ورث العامل المصرى شيئاً

من نشاط اسلافه الأقدمين ، فلا ينقصه الا التعليم الفنى والتمرين وهو ما نرجو أن تزداد عناية الحكومة به . كذلك الخامات النباتية متوافرة .فمصر تنتج اغنى الحاصلات النباتية . كما أن الطبقات الأرضية فيها كميات وافرة من البترول والمانجنيز والفوسفات الخ . ويمكننا أن نستخدم القوى المائية المدخرة فى خزان أسوان لتوليد الكهرباء . فلم يبق الا أن يقبل المصريون على استخدام رؤوس اموالهم فى المشروعات الصناعية .

أما القول بأن عدم وجود الفحم فى مصر يمنعها من أن تكون قطـــراً صناعياً ، فمما لا شك فيه أن بعض الآلات الحديثة تدار بالبترول، ووجود آبار البترول فى بلادنا يحل مشكلة الوقود الى حد ما ، كذلك امكان توليد الكهرباء من خزان اسوان يخفف كثيراً من مضار عدم وجود الفحم فى بلادنا .

والأزمة العالمية الحاضرة تبين لنا بكل جلاء خطر الاعتماد على محصول واحد.فواجب الأمة اذن هو السعى فى أن نكون أمة صناعية وأن نعمـل على تشجيع مصنوعات بلادنا . أليس من المحزن أن نرى المصرى يحتقر صـناعات بلده ولا يهتم الا بكل ما هو أجنبى ؟ لاحظت ذلك لجنة التجارة والصناعة فقالت فى تقريرها بعبارة بليغة : « واذا اعتبرنا الأمر، من حيث شرف الأمة ومجدها فهل يليق بأولئك الذين يطمحون الى اعلاء شأن بلادهم ألا يحركوا ساكناً وهم يشاهدون مع زوال الصناعة الوطنية زوال تلك الروح الفنية وذلك الذوق البليغ الذى طالما بالغ أسلافهم فى تهذيبه وارهافه ؟ كان للصناعة المصرية طابع مخصوص تمتاز بها طوائفها وتقدر به فى جميع الآفاق مآثرها . وقد كانت أخلاق المصريين مؤتلفة مع أساليب الصناع وأذواقهم موافقة لمنازع أرباب الفنون. فلما تدفقت على البلاد واردات البضائع الأجنبية فقد القطر مميزاته الذاتية وعدم استقلاله من الوجهة الفنية والاجتماعية. ففى أى مظهر من مظاهر الحياة نظرنا سواء فى الأثاث أو فى الملابس أو فى المبانى وجدنا الذوق الأجنبى سائداً متسيطراً وألفيناه متمثلا فى أوضاع مختلفة كل الاختلاف ومتنافرة أشد التنافر .كل ذلك والذوق المصرى مطرح فى زاوية الاهمال ، مقضى عليه بالانكار . وان فى قيام هذه الحال لاعتداء صريحاً على قومية الأمة وتحيفاً مبيناً لاستقلالها الأدبى وما أخلاق الأمة وثروتها الفنية الا جزء من المصالح العامة التى نحن حراس لها وأمناء عليها».

٣٢ ــ. فالحركة الصناعية فى مصر جديرة بالتشـجيع والمساعدة من جانب الحكومة وذلك بواسطة تدبير المال للصناعات. ويتحقق هذا بانشـاء بنك للقيام بعمليات الائتمان

الصناعي ، واعفاء المشاريع الصناعية من الضرائب بما فيها ضريبة المبانى فى السنين الأولى من انشائها ، وتخفيض أجور نقل المصنوعات الوطنية ، واعطاء منح للانتاج ، وفرض رسوم جمركية مرتفعة على الواردات الى الوقت الذى يتسنى فيه للصناعة أن تسير بدون معونة الدولة وانشاء مصانع نموذجية ومعارض ترشد الصناع فى أعمالهم ، وتفضيل المصنوعات الوطنية فى مناقصات المصالح الحكومية .

٣٣ . — وقد عمدت الحكومة الى اتباع سياسة تعضيد الحركة الصناعية . وذلك أنها أبدلت النظام الجمركى الموروث عن تركيا بنظام جعلت فيه الرسوم نوعية وراعت فى تحديدها حماية الانتاج الزراعى والصناعى بفرض رسوم مرتفعة على الأصناف التى ينتج مثلها فى مصر . كذلك عدّلت فى أجور النقل لمصلحة المنتجات الوطنية ، وقررت تفضيل العروض الوطنية فى المناقصات الحكومية ، وقامت مصلحة التجارة والصناعة بانشاء مصنع نموذجى للسجاد ومصبغة نموذجية وهى على وشك أن تنشىء مصنعاً لدبغ الجلود وآخر للزجاج . ولم تهمل الحكومة الجانب الاجتماعى فى الحركة الصناعية فانشأت مكتباً للعمال يبحث فى طرق معالجة البطالة .

٣٤ . — واذا فكرنا فى الصناعات التى يجب أن نبدأ بها فى مصر فأرى أن نختار الصناعات التى تتوافر فيها الشروط الآتية (١) أن تكون مادتها الخام موجودة فى مصر (٢) ألا تحتاج الى وقود كثير (٣) وأن تكون لهذه المصنوعات سوق فى مصر أى يمكن تصريفها داخل البلد . ومتى تقدمنا فى تلك الصناعات أمكن أن نخطو خطوات أخرى . وهذه الشروط متحققة فى الصناعات الآتية : الزجاج ، الورق ، غزل ونسج الصوف ، الأطعمة المحفوظة ، الطرابيش ، العلب الصفيح ومخلفات الحيوانات .

٣٥ . — والخلاصة أن بلداً كمصر تتوافر فيه الأيدى العاملة النشيطة الصابرة ، والمواد الأولية التى تقدمها له الزراعة ، وفى طبقاتها الأرضية كثير من الثروات الكامنة ، ويمكنها موقعها الجغرافى من استيراد المواد التى تحتاج اليها بسهولة لجديرة بأن يكون لها قسط كبير فى الحركة الصناعية .

وربما كان الوقت الحاضر مناسباً لتشجيع الصناعات الوطنية ، نظراً لانخفاض قيمة الجنيه المصرى تبعاً للجنيه الانجليزى ، إذ يؤدى هذا الانخفاض الى ارتفاع السلع

المستوردة من الممالك التى تتبع قاعدة الذهب فيجد المصريون من مصلحتهم أن يحصلوا على السلع التى تمس الحاجة اليها داخل القطر اذا كان ذلك متيسراً .

واذا كانت البيئة الطبيعية جعلت مصر قطراً زراعياً لخصوبة أرضها ، وانتظام مياهها ، واعتدال مناخها ، فان تضافر سكانها و بذل جهودهم فى سبيل رقيها سيوجههم الى الناحية الصناعية ، فيقدمون على توظيف رؤوس أموالهم فى المشروعات الصناعية ويقبلون على التعليم الصـــناعي ، ويجعلون من بلادهم قطراً زراعياً وصناعياً حتى تستطيع أن تتبوأ مكانها اللائق بأقدم مدنية فى التاريخ ؟

الاستاذ سلامه موسى

الفلاح والصانع

لحضرة الاستاذ سلامه موسى

لم يكن العامل المصرى يختلف فى بداية القرن الماضى من العامل الاوربى فى نهاية القرون الوسطى . كما لم تكن الهيئة الاجتماعيـــة المصرية تختلف من الهيئة الاجتماعية الاوربية . فقد كان هناك نظام للصنـاعات يدعى نظام الجايلد . وكان يقابله فى مصر نظام الطوائف .

والطائفة هى هيئة ينتظم فيها العامل أى الصانع يدخل صبياً ثم يرتقى الى صانع ثم يرتقى بعد ذلك الى معلم . وللطائفة شيخ له حق معاقبـة العامل وتحصيل الضرائب منها . والوساطة بينها و بين الحكومة .

وهذا النظام عاش فى اوربا ومصر فى القرون الوسطى وهـذه القرون قد امتدت إلى بداية القرن الماضى فى مصر . وهو نظام يوافق الصناعات اليدوية . وقد مات فى اوربا عقب ظهور الآلات . وكذلك مات فى مصر لهذا السبب نفسه . فقد تزعزع أيام محمد على الذى أسس مئات المصانع التى افلست فى حيـاته . فلما جاء سعيد باشا حرم على شيوخ الطوائف معاقبة العمال . ثم لما كانت أيام اسماعيل عين موظفون حكوميون لجباية الضرائب من العمال فزال شيخ الطائفة بازالة حقوقه وواجباته .

هذا هو حال الصانع فى المدن . ولا يمكن أن نصفه بأنه كان حالا سيئاً بل ارجح الظن انه كان الفرد الوحيـــد الذى يتمتع فى مصر بحقوق يسهر عليها شيخ الطائفة . اما حال العامل فى الريف أى الفلاح فكانت سيئة بل غاية فى السوء لأنه كان يعمل وكأنه يسخر . وكان الفرار من الزراعة مألوفاً . ويجب الا يبرح من أذهاننا أن العلة التى تعلل بها محمد على لشن الحرب على تركيا هى ايواء الجزار لبعض الفلاحين الذين فروا الى عكا . وحالة الفلاح فى ذلك العهد يكفى فى بيانها هذه الكلمة التى ننقلها عن تاريخ مصر للاسكندرى وسفدج « وكانت حالة الفلاح المصرى فى هذه الفترة غاية فى الشقاء والبؤس . اذ أثقل عاتقه محمد على بالضرائب وبتسخيره فى حفر الترع وتجنيده تجنيداً اجبارياً . وقد أثرت فيه هذه

العوامل تأثيراً سيئاً فكان يهلك من المصريين الآلاف فى حفر الترع وتحت تعذيب محصلى الضرائب . ولما ضاقت الحال واشتد الكرب بالناس هاجر خلق كثير من سكان الوجه البحرى إلى بلاد الشام »

ولم يكن الفلاح على هذه الحال من البؤس أيام المماليك ولكنه كان فى حالة قريبة منها.

ومنذ أيام محمد على الى الآن نجد تطوراً جديداً أخذ يعكس الحال القديمة . فان الفلاح كان مدة المماليك ومدة محمد على فى أسوأ حال ليس له أى حق معترف به . يفر من الريف ويهجر مصر إلى الشام ، بينما كان للصانع حقوق يسهر عليها شيخ الطائفة .

ولكن هذه الحال أخذت تتطور لمصلحة الفلاح وخاصة بعد الاحتلال الانجليزى . بينما حالة الصانع أخذت تسوء لأن الصناعات الوطنية صارت تموت لغارة المصنوعات الأجنبية عليها . فقد كانت صناعة الغزل والنسج منتشرة فى انحاء البلاد يعيش منها ألوف الصناع . كل منهم صانع ومالك فى آن واحد ، له مهارة الصناع وكرامة المالك . ولكن عندما اخترعت آلات الغزل والنسج فى اوربا ركدت هذه الصناعة عندنا واضطر كثير من النساجين أن يبحثوا عن عمل آخر . وهكذا الحال فى صناعات أخرى يدوية. فانها ماتت او ركدت لأن المصانع الاوربية قتلتها بما أوردته وما زالت تورده الينا من مصنوعاتها .

ان ظهور الآلات هو عامل كبير جداً فى تطور العمل سواء للصانع او الفلاح . فقد أحالت الآلات صانعنا القديم إلى عامل أجير . وقد بدأت منذ نحو عشرين سنة تنتشر بين الفلاحين وخاصة فى التفاتيش أى الضياع الكبيرة التى يملكها كبار الأغنياء . فان هذه التفاتيش تستعمل الآلات البخارية والكهربائية والموطرية للرى والحرث والحصاد والنقل . وأصبح كثيرون من المتوسطين يستعملون المحراث الموطرى للحرث والرى .

ونشأ من هذه الحالة الجديدة أن تفشت البطالة بين الفلاحين حتى لقد اكتسبت الصناعات فى المدن فى السنوات العشر التى تقع بين سنتى ١٩١٧ و ١٩٢٧ : ٠٥٨ و ١٢٧ عامل معظمهم من الريف . والدليل على ذلك أن الزيادة فى هذه الصناعات بلغت ٣٠ ٪ بينما هى لم تبلغ فى سكان القطر سوى ١٢ ٪ فكأن الفرق وهو ١٨ ٪ قد جاء من الريف.

ولماذا جاء هؤلاء من الريف ؟

جاءوا لأن التفاتيش الكبيرة استعملت الآلات فاستغنت عن الايدى العاملة . فهجر العمال قراهم إلى حيث يجدون عملا فى المدن . وقد وجدوه فى هذه الصناعات

ان عالم العمال فى مصر الآن بما فيه من بيئة القرية و بيئة المدينة يجابه مسألتين —
الأولى هى تفشى البطالة.
والثانية هى الفاقة البالغة.

فاما تفشى البطالة فيرجع فى الريف والمدن الى استعمال الالات التى تغنى عن الايدى العاملة. ولو كان عندنا صناعات يدوية أو حتى آليه فى المدن تبلغ من الكثرة والتقدم حدا تستطيع فيه أن تستوعب العمال العاطلين فى الريف لخفت ضائقة البطالة بعض الشىء. ولكن الواقع أن صناعتنا ما تزال قليلة ومتأخرة.

ويجب أن ننبه هنا الى ان البطالة الآن فى الريف اشد واخطر بين الفلاحين مما هي بين الصناع والعمال فى المدن. فاينما يوجد تفتيش يبلغ زمامه الفاً أو الفين من الأفدنه نجد الى جنبه مئات من الاهالى الفقراء الذين ترى على اجسامهم اعراض الامراض التى تنشأ من القحط. وذلك لانهم لا يعملون فى العام كله سوى سبعين أو ثمانين يوماً، وسائر ايامهم يقضونها فى بطالة ، جوع.

ولو كان هناك احصاء يجرى مع تبادل الثقة بين العمال والقائمين بالاحصاء لبلغ العاطلون على اقل تقدير نحو مليون نفس بين الفلاحين وحدهم. ونحن لا يمكن أن نسمى انفسنا امة متمدنة ما لم تنتظم لنا ادارة تحسن احصاء العاطلين وتعالجهم.

. . . . . .

أما الفاقة فهى المسألة الثانية التى يجب علينا جميعاً أن نجابهها. فان العامل العاطل نكبة واضحة وكارثة يعترف بها الجميع. أما العامل الذى يعمل ثم هو مع عمله لا يحصل الا على اسوأ المطعم والمسكن لان اجره قليل فان نكبته غير واضحة. وهى تحتاج الى تعليل وشرح.

واعظم اسباب الفاقة فى مصر اننا نقتصر على الزراعة ثم نحاول أن نعيش ونقتنى ادوات الحضارة التى لا يطيق النفقة عليها سوى الامم الصناعية. ولذلك نرهق الفلاح بضرائب باهظة لكى ننفق على ادارة حكومية تعد حتى فى الامم الصناعية غالية غلاء فاحشاً. فان مرتبات الوزراء وماهيات كبار الموظفين ثم وفرة هؤلاء الموظفين قد أصبحت عبئاً كبيراً على الأمة. ونحن الى الآن امة زراعية فقيرة لا تطيق هذه التكاليف وسبب آخر للفاقه انه يملك نصف الارض الزراعية اقل من ١٣٠٠٠ نفس.

وسبب ثالث أن الضرائب والرسوم المفروضة على الأرض كبيرة جداً .

وسبب رابع أن معظم الارض الزراعيـة مرهونة للبنوك تؤدى لهـا اقساط كبيرة كل عام

فهذه الاسباب مجتمعة تجعل الفلاح يعيش فى حال اسوأ الحـال من الفاقة . ولسنا نستطيع زيادة اجره الا اذا خفضنا الضرائب والرسوم والاقساط المفروضة على الارض أو اذا عمدنا الى نوع من التعاون ينقص التكاليف . ولـكن نقص التكاليف يزيد البطالة بين الفلاحين .

وربما يكون الحل الوحيد لمعالجة الفاقة فى بلادنا هو زيادة الحركة الصناعية قوة

. . . . . .

ولـكن علينا مع تشجيع الحركة الصناعية أن نعـاون العمال على أن ينهضوا وينظموا انفسهم فى نقابات تدافع عن حقوقهم وتكسبهم روح الجماعة وتساند العصبة . كما انه علينا ايضاً أن نقدم لهم معظم الاصلاحات التى نجح زملاؤهم فى اوربا فى تحقيقها .

وكثيراً ما نسمع كلما ذكرت الاصلاحات الاجتماعية التى يتمتع بها العمال فى اوربا انها لا تلائم عمالنا أو هى كما قيل منذ اسبوع بمثابة الثوب الكبير للطفل الصغير . والغريب أن هذا الـكلام لا يقال عن مرتب ضخم يتناوله موظف كبير يرى نفسه أن له الحق فى أن ينزل على قدم المساواة مع اكبر الموظفين فى العـالم المتمدن بل يزيد عليهم احيانا كما هو الواقع الآن اذ أن مرتب رئيس الوزارة عندنا اكبر من مرتب رئيس الوزارة البريطانية أو أى وزارة اخرى فى العالم

. . . . . .

أن كل من يقرأ تاريخ نهضة العمال فى اوربا لا يسعه الا أن يرى أن النقابة كانت اساس هذه النهضة ولهذا يجب أن نحزن طويلا للمقاومة العنيفة التى يجدها تأليف النقابات عندنا من الحـكومة .

وقد مضى على الحركة النقابية فى مصر مدة كانت يجب أن تكفى لنرى هذه الحركة الآن قوية منظمة . وكان يكون لنا فى نظامها كل خير . فانه لا شىء ادعى الى الاستتباب والبعد عن التزعزع من توجيه نظر العامل الى النظام فى العمل وتحقيق المطامع المشروعة عن سبيل النقابة . وليست النقابات فى زماننا سوى البدل الذى تقتضيه حاجة العصر

الجديد من تلك الطوائف التى كانت حية نشيطة ايام الصناعات اليدوية . وهى الطوائف التى قلنا انها ماتت فى القرن الماضى .

والواقع أن النقابة ألزم اليوم للعامل أو الصانع من الطائفة فى القرون الماضية . لأن العامل كان فى القرون الماضية مالكا أى يملك مصنعه أما الآن فهو أجير فى مصنع كبير يمكن لصاحبه أن يستبد به فينقص أجره أو يزيد ساعات عمله أو يطرده .

. . . . . .

وفى مصر حركة نقابية اذا وجدت تشجيعاً و رعاية من الحكومة سارت فى ضوء النهار . أما اذا وجدت عداء ومقاومة اضطرت بطبيعة الحال أن تستحيل الى حركة عصابية تسير فى الظلام . وليذكر ولاة الأمور عندنا انه ليس فى العالم دولة متمدنة لا يكون بين وزاراتها وزارة للعمال . بل فى ايطاليا وزارة للنقابات .

ويرجع تاريخ الحركة النقابية فى مصر الى سنة ١٨٩٩ حين أنشئت نقابة « عمال السجاير المختلطة » أى المؤلفة من عمال مصريين وأجانب . ثم ظهرت سنة ١٩٠٨ نقابة عمال الترام المختلطة . وفى سنة ١٩٠٩ الف عمر لطفى بك « نقابة عمال الصنايع اليدوية » ثم خمدت الحركة و بقيت فى خمودها الى سنة ١٩١٩ . وأخذت الحكومة تكافح هذه الحركة الى أن أوشكت أن تقتلها سنة ١٩٢٣ .

وقد ظهر أول اتحاد للنقابات سنة ١٩٢٣ على أيدى الشيوعيين فى الاسكندرية . ثم ظهر اتحاد آخر برياسة عبد الرحمن فهمى بك سنة ١٩٢٤ والآن ينضوى العمال الى الاتحاد الذى يرأسه عباس حليم . وهذا الاتحاد لا يجد للأسف أى عطف من الحكومة

. . . . . .

ليس للعامل المصرى مشاكل تختلف من المشاكل التى يواجها العمال فى العالم كله . فهو انسان مثلهم يؤذيه قلة الأجر وكثرة الجهد و يؤذيه المرض و يتألم فى الشيخوخة ، و يجوع و يتألم من الجوع عند البطالة . وله زوجة قد تصير أرملة أو أماً وفى كلتا الحالتين تحتاج الى معاونة . والعمال فى الأمم المتمدنة يجدون هذه المعاونة ولكن العامل المصرى لا يجدها من حكومته هنا .

١ — ففى بريطانيا قانون خاص بالمسنين اذا بلغ العامل سن السبعين حق له أن ينال معاشاً يبلغ نصف جنيه فى الاسبوع . واذا كان أعمى صار له هذا الحق وهو فى سن الخمسين

٢ - وفى بريطانيا قانون للأرامل يحق به للأرملة من أى سن أن تنال عشرة شلنات كل أسبوع وتأخذ عن ابنها الا كبر ستة شلنات وعن كل ابن آخر ثلاثة شلنات كل اسبوع .

٣ — وفيها أيضاً قانون خاص بالمرضى يمكن العامل أو العاملة من التعالج مجاناً .

٤ — وبها أيضاً قانون للبطالة يحق به للعامل العاطل أن ينال مساعدة معينة مدة عطله الى أن يجد عملا .

٥ — وبها أيضاً مكاتب العمال . وهى ليست للرقابة على العمال بل لمساعدتهم والبحث عن أعمال لهم .

٦ — وبها أيضاً حزب ونقابات منظمة قد اعترفت بها الحكومة لا لأنها حق للعامل بل لأن لها قيمة تهذيبية للامة كلها .

وكل هذه الاصلاحات يجب أن تكون حقاً للعامل المصرى اذا أردنا أن نتوقى الغلو الذى يؤدى اليه حرمانه مما يتمتع به اخوانه و زملاؤه فى اوربا .

اذا أردنا أن نتقى الشيوعية وجب علينا أن نتسامح فى الاشتراكية. واذا أردنا أن نتقى العصابة وجب علينا أن نتسامح فى النقابة. واذا أردنا أن نتقى نتائج الحقد الذى يشعر به العامل عندما يعرف أن نصف أرض مصر يملكها أقل من ١٣٠٠٠ نفس وجب علينا أن نرفه عنه باصلاحات اجتماعية مختلفة ولا نتركه هو وأولاده يجوعون وقد نعطله بينما يتمتع رجل واحد بنحو الف أو الفين من الأفدنة .

الاستاذ اسماعيل محمود القبانى

استاذ بمعهد التربية

لطريقة مكتشفة فى تعليم الهجاء

التعليم والاتصال الفكرى

لحضرة الاستاذ اسماعيل محمود القبانى

لعل كثيرين منكم تولاهم شىء من العجب عندما قرأوا العنوان الذى نشر فى أول الأمر لهذه المحاضرة ، وتساءلوا ما العلاقة التى تجمع بين التعليم والمواصلات فتجعل منهما موضوعاً لمحاضرة واحدة؟ * ولكن الصلة بينهما ليست فى الواقع بعيدة كما يبدو أول وهلة . ومع أن العنوان الحالى للمحاضرة ، وهو « التعليم والاتصال الفكرى » أوفى فى التعبير عن الغرض المقصود منها ، لأنه لا يصرف الذهن إلى المواصلات المادية وحدها ، لا يجوز أن ننسى ان المواصلات المادية وسيلة هامة من وسائل الاتصال الفكرى ، فتكون بذلك وسيلة من وسائل التعليم . وقد عرف الفيلسوف الانجليزى جون ستيوارت ميل التعليم بأنه « الثقافة التى يعطيها كل جيل متعمداً للجيل الذى يخلفه كى يؤهله للاحتفاظ بمستوى الرقى الذى وصل هو اليه على الأقل ، ولرفع ذلك المستوى ان أمكن » . فالتعليم ، اذن ، ليس محصوراً بين جدران المدارس ، بل يشمل كل ما من شأنه أن يؤثر فى عقول الأفراد ونفوسهم ، فيوسع مدى أفكارهم وتجاربهم ، ويزيد فهمهم للحياة وغاياتها ، ويسمو بمشاعرهم ووجداناتهم ، ويرسم لهم الامثال العليا لكى يعملوا على الوصول اليها . فالمطابع والمنابر ، ودور التمثيل والسينما ، والمتاحف والمعارض ، ووسائل المواصلات التى تسهل انتقال الأفكار هذه كلها عوامل للتربية والتعليم لا تقل قيمتها عن قيمة المدارس . بل انى أذهب الى أبعد من ذلك فأقول ان التعليم المدرسى ليس إلا إعداداً للتعليم الحقيقى الذى نحصل عليه من هذه العوامل الأخرى . فالكلام عن التعليم لا يكون كاملا إلا إذا شمل جميع هذه النواحى .

---

* أعلنت هذه المحاضرة في أول الامر بعنوان : « التعليم والمواصلات » .

على أنه يتعذر على فى محاضرة واحدة أن أتوسع فى الكلام عن كل عامل من هذه العوامل وكل ما أطمع فيه هو أن أرسم لكم صورة اجمالية تبين مقدار تقدم التعليم وحالة النهضة الفكرية فى مصر فى الوقت الحاضر .

ومع أن مصر كانت فى تاريخها الأول مهد الحضارة والمدنية ، وفى القرون الوسطى مناراً للعلم والعرفان ، فان النهضة التى نشاهدها الآن حديثة العهد جداً ، ولا تكاد تتصل بذلك التاريخ الماضى . فانه لما جاء نابليون بحملته الى مصر فى آخر القرن الثامن عشر ، كان أهلها غارقين فى ظلمات عميقة من الجهل وضيق الفكر . كان التعليم فيها مقصوراً على الجامع الأزهر وعدد من الكتاتيب المنشأة من أموال الأوقاف الخيرية . ولم تكن هذه الكتاتيب كثيرة إلا فى القاهرة ، كما أنها لم تكن تعلم غير القراءة والكتابة وشىء من القرآن . وأما الأزهر فكان منذ القرن السادس عشر فى حالة تأخر وعزلة فكرية . وكان الطلبة الذين يأتون اليه قليلى العدد ، والتعليم فيه لا يخرج عن دراسة ما ألف فى القرون الوسطى فى علوم اللغة والدين . أما العلوم المدنية الحديثة فلم يكن لها أثر فى مصر . ولم تكن فيها صحيفة أو مجلة تقرأ ، ولا مطبعة تطبع فيها الكتب . ولم يعرف فيها كاتب نابه ، ولو وجد كاتب كهذا لم يوجد من يقرأ له ، لأن الأهالى كانوا فى شغل شاغل عن العلم وأمور الفكر .

واستمر الحال هكذا الى أن استتب الأمر لمحمد على . فلما شرع هذا الرجل العظيم فى تنظيم شؤون البلاد واصلاح ادارتها ، شعر بالحاجة الى رجال متعلمين ، يمكنهم الاضطلاع بالأعمال الفنية فى الجيش والمصالح الادارية . فارسل البعوث الى أوربا لدراسة مختلف العلوم والفنون ، وفتح مدارس كثيرة للتعليم على النظام الغربى ، منها خمسون مدرسة ابتدائية وثانوية انشئت فى آخر حكمه على نمط مدارس الليسيه بفرنسا . ثم انه عهد الى رجال البعثات بعد عودتهم بترجمة الكتب الدراسية فى جميع العلوم ، وطبعت هذه الكتب فى المطبعة التى انشأها ببولاق .

وتقلبت حال التعليم الجديد فى عهد الولاة الذين خلفوا محمد على تبعا لنزعات كل وال وللحالة المالية فى عهده . فمنهم من كان يغلق المدارس ويضيق نطاق التعليم . ومنهم من عنى به وأنفق عليه بسخاء . ومع أن هذا التعليم كان له أثر محمود فى تنوير الاذهان ، وبدأت بوادر النهضة الفكرية تظهر فى عهد الخديوى اسماعيل ، فالدافع الحقيقى لفتح

المدارس لم يكن ، الى وقت قريب ، يختلف عن الغرض الذى قصده محمد علىّ منها ، وهو اعداد موظفين للآلة الحكومية .

ومما يجدر بالذكر ان لجنة الفت سنة ١٨٨٠ للنظر فى حالة المدارس وضعت تقريراً عظيم القيمة ، يشتمل على اصلاحات جمة وعلى برنامج قومىّ لنشر التعليم ، اقترحت فيه انشاء مكتب من الدرجة الثالثة بكل قرية يبلغ عدد سكانها من الفين الى خمسة آلاف نفس ، يعلم فيه القرآن والديانة والقراءة والكتابة والحساب ؛ ومكتب من الدرجة الثانية فى كل مدينة يبلغ عدد سكانها من خمسة آلاف الى عشرة آلاف نفس ، يعلم فيه ، علاوة على المواد السابقة ، التاريخ ومبادىء التاريخ الطبيعىّ والهندسة العملية والرسم ؛ ومدرسة ابتدائيـة على النظام الغربىّ لكل ١٠٠٠٠٠ نفس من سكان المحافظات وعواصم المديريات والمدن المهمة . وقد عاقت الحوادث السياسية التى حدثت عقب ذلك تنفيذ هذا البرنامج لسوء الحظ . ولكن لما استقر الأمر اخذت الحكومة ، ابتداء من سنة ١٨٨٥ تعمل على تنظيم التعليم ونشره ، مسترشدة بما فى تقرير اللجنة السالفة الذكر من الآراء والمقترحات .

ولما شعر المصريون بمزايا التعليم ، عظم اقبالهم عليه ، بعد ان كان التلاميذ فى ايام محمد على يجندون للمدارس كما يجند الشبان للخدمة العسكرية . وتمشت الحكومة مع هذا الاقبال بقدر ما سمحت به مواردها المالية . فحولت عدداً كبيراً من الكتاتيب القديمة الى مكاتب من النوع الذى سمته اللجنة مكاتب الدرجة الثالثة ، وفتحت عدة مدارس ابتدائية جديدة ، ووسعت نطاق التعليم الثانوىّ وأصلحت مناهجه ، واصلحت نظم المدارس العليا والفنية التى انشئت فى عهد محمد على واسماعيل ، وفتحت غيرها تدريجا بحسب حاجة البلاد ، واستمرت على ارسال البعوث العلمية الى اوربا ، وزادت العناية بتعليم البنات الذى بدأ فى عهد اسماعيل ، ولم تكن له تحت اشراف الحكومة حينئذاك الا مكاتب معدودة و مدرستان ابتدائيتان ، فزيد عدد هذه المكاتب والمدارس تدريجاً .

وفى أول القرن الحالى اشتد الشعور الوطنى فى الأمة المصرية ، وأخذت الطبقة المتعلمة فيها تشعر بالكرامة القومية ، واختلجت نفوسها بأمانىّ الحرية والرقىّ . وقد ادركت أن عظمة أية أمة لا يمكن أن تبنى الا على أساس متين من العلم والثقافة ، ورأت أن جهود الحكومة لا تروى عطش الأمة الى التعليم ، فهبّ الأهالى لتكميل النقص ، وفتحت مئات من المدارس الأهلية تحت اشراف الأفراد أو الجمعيات الخيرية . وتوج

هذا المجهود بانشاء الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨ بأموال اكتتب بها الاهالى وباشراف نفر من كبار المفكرين فى مصر . وبقيت هذه الجامعة مستقلة فى ادارتها الى سنة ١٩٢٣ ، وكانت فى خلال هذه المدة منبعاً للثقافة الحرة ، ومركزاً علمياً أمه الكثيرون ممن كانوا يطلبون العلم للعلم لا للوظيفة .

ولما رأت الحكومة هذا النشاط العلمى من جانب الأمة ، عملت على مسايرته ، فمنحت مجالس المديريات فى سنة ١٩٠٩ سلطة فرض ضرائب محلية وصرفها فى نشر التعليم . وقد أنشأت هذه المجالس مدارس ابتدائية فى كثير من المراكز ، واكثرت من فتح المكاتب فى القرى ، وتولت اعانة الصالح من المدارس والمكاتب الاهلية ، كما أنشأ بعضها مدارس صناعية وزراعية . فكان لعملها اكبر أثر فى نشر التعليم بين طبقات الشعب .

وهنالك صنف من المدارس لا ينبغى أن ننسى فضله ، وهو يشمل المدارس التى أنشأتها الجاليات الاوربية والبعثات الدينية الاجنبية فى مصر . وقد فتحت المدارس الاولى منها فى عهد محمد على ، وزاد عددها باطراد الى الوقت الحاضر . وكان الغرض الأصلى منها تعليم أبناء الجاليات الاجنبية التى تنتمى اليها . ولكنها لم تلبث أن اجتذبت اليها عدداً من المصريين قدروا التعليم فيها حق قدره ، لاسيما تعليم البنات الذى لم يكن له مكان يذكر فى المدارس الحكومية الى وقت قريب . وبعض تلك المدارس أنشىء للمصريين خاصة ، كالمعهد الذى نحن فيه الآن ، والذى أدى ، على رغم حداثته ، خدمات جليلة للتعليم والتقدم الاجتماعى فى مصر .

هذا مجمل نشأة التعليم على النظم الغربية . وقد بقى التعليم الدينى القديم الى جانبه ، محتفظاً بنظمه وتقاليده . نعم ان بعض الكتاتيب حولت الى مكاتب حديثة كما سبق الذكر ، ولكن الكثير منها بقى على حالته ، مكتفياً بتحفيظ القرآن مع تعليم القراءة والكتابة . ومن أتم ذلك كان له أن يلتحق بالأزهر أو بغيره من المعاهد الدينية . وقد تقلب الازهر طول القرن التاسع عشر فى أدوار شدة ورخاء ، وتأخر وازدهار ، ولكن التعليم فيه بقى على فطرته . فكان الطالب يدخله « مختاراً بلا قيد ولا شرط ، ويختلف الى من أراد من العلماء لتلقى العلم عنه ، ويبقى فيه ما شاء أن يقيم . واذا آنس من نفسه علماً كافياً وملكة يتمكن بها من إفادة غيره ، جلس الى التدريس حيث يجد مكاناً خالياً ، وعرض نفسه

على الراغبين من الطلبة . فكانوا اذا وجدوه على علم التفوا حوله وقبلوا يده ، واذا رأوا غير ذلك انصرفوا عنه . وتلك هى شهادة العالمية التى كان يعطاها العلماء » (١) .

وفى سنة ١٨٧٢ تفرعت عن الازهر مدرسة دار العلوم ، التى قصـــد منها اعداد المعلمين للمدارس الحديثة ، وأدخلت فيها نظم ودراسات لم يكن للازهر بها عهد. فكان لها أثر بارز فى النهضة الأدبيـة فى ذلك الزمن . وفى الوقت نفسه بدأت يد التنظيم تمتـد الى الازهر فى شىء من التردد . فوضعت له عدة قوانين على التوالى ، حتى كانت سنة ١٩١١ فأدخلت عليه تغييرات جوهرية إذ قسمت الدراسة فيه الى ثلاث مراحل ، مدة الدراسة بكل منها خمس سنوات ، وأدخلت العلوم الحديثة فى كل مرحلة منها ، ووضع نظام لتعيين المدرسين وقبول الطلبـــة ، وسنت للانتقال السنوى وللتخرج امتحانات مثل امتحانات المدارس . وقد طبقت هذه القواعد على المعاهد الدينية الأخرى التى كانت موجودة والتى أنشئت بعد ذلك . وبالجملة طلى التعليم الدينى بطلاء النظم المدرسية الحديثة ، ولكن روحه لم تكد تختلف فى الواقع عن الروح القديمـــة ، الا اذا كان ذلك فى السنين الأخيرة ، إذ إعيد تنظيمه على شكل جديد .

من هذه النظرة السريعة تتبين لنا حالة التعليم فى مصر الى سنة ١٩٢٢ ، عندما تسلمته الادارة الوطنية . وهو تعليم مزدوج : فمن ناحية مدارس أولية (مكاتب) يستطيع التلميذ بعدها أن يتمم دراسته فى المعاهد الدينية ، أو المدارس الشبيهة بالدينيـة كمدارس المعلمين الأولية ، وكان الى وقت قريب يستطيع أن ينتقل منهـا الى الورش الصناعية أيضاً . ومن الناحية الاخرى حلقة التعليم الغربى ، وهى تتكون من المدارس الابتدائية ، فالثانوية ، فالعليـا ، وتتفرع عنها مدارس التعليم الزراعى والصناعى والتجارى المتوسطة .

فلما آل أمر التعليم الى الأيدى المصرية ، تضاعفت العناية بنشره ، واتسع نطاقه مع الرغبة المتزايدة فيه من الأمة . وقد اتخذ فى تحوله اتجاهات معينة ، أهمها الاربعة الآتية :

الاتجاه الأول : محاربة الأمية :

نص الدستور المصرى على جعل التعليم الأولى الزامياً . فتنفيذاً لذلك وضعت وزارة المعارف برنامجاً لتعميم هذا التعليم للبنين والبنات ، بالاشتراك مع مجالس المديريات ، فى

---

(١) نقلا عن تقرير لجنة اصلاح الازهر المشكلة سنة ١٩١٠ تحت رآسة المرحوم احمد فتحى زغلول باشا .

مدارس تسمى المدارس الالزامية . والتعليم بهذه المدارس مجانى ، ومدة الدراسة بها ست سنوات ، من السابعة الى الثالثة عشرة . وهى تختلف عن المدارس الاولية (المكاتب) فى ان التعليم بها نصف يومى ، فيتعلم البنات فى الصباح ، والبنون بعد الظهر . والغرض من ذلك الاقتصاد فى النفقات ، وتمرين التلاميذ فى النصف الثانى من النهار على الاعمال الزراعية أو الصناعية التى يرغبون فى اعداد أنفسهم لها ، حتى لا يؤدى نشر التعليم الى هجر الفتيان للحقول والمصانع ، وسعيهم وراء الوظائف الكتابية . ويعنى فى هذه المدارس بتعليم القراءة والكتابة والديانة والحساب ، مع مبادىء بسيطة فى العلوم الاخرى التى تعلم بالمدارس الابتدائية ما عدا اللغة الاجنبية .

والمقرر الآن أن يتم انشاء المدارس اللازمة لجميع أطفال القطر فى سنة ١٩٤٧ . وكان عدد الموجود منها طبقاً لاحصاء التعليم فى سنة ١٩٢٩ ، ١٥٥٧ مدرسة تحت ادارة وزارة المعارف ومجالس المديريات والمجالس المحلية ، يتعلم فيها نحو ٢٠٠،٠٠٠ تلميذ وتلميذة . وهذا عدا المكاتب (المدارس الاولية) التى تديرها ، أو تشرف عليها ، الهيئات الرسمية ، وكان عددها يتجاوز ٣١٠٠ مكتب يتعلم بها نحو ٣٢٠،٠٠٠ تلميذ وتلميذة ، وعدا المكاتب التى يديرها أفراد أو جمعيات مستقلة .

ورغبة فى سرعة القضاء على الأمية ، أنشأت وزارة المعارف ، بالاشتراك مع مجالس المديريات كذلك ، أقساماً ليلية لتعليم العمال ، مدة الدراسة بها سنتان . وقد بلغ عدد طلابها فى سنة ١٩٢٩ نحو ٣٠،٠٠٠ .

الاتجاه الثانى : ترقية التعليم العالى :

زيد عدد المدارس الثانوية زيادة مطردة منذ سنة ١٩٢٢ ، وكثر عدد المتخرجين فيها ، ووجهتهم الطبيعية هى الاستمرار فى الدراسة العالية . وكان بمصر فى تلك السنة سبع مدارس عالية تعد الطلبة للمهن الراقية . ولم يكن بها معهد لنشر الثقافة الحرة ، التى لا يقصد منها الاعداد لمهنة خاصة ، الا الجامعة المصرية . ولكن فتور الهمم ونشوب الحرب العالمية وما جرته من ضيق أضعفا مواردها المالية ، فلم تعد قادرة على القيام بعملها على وجه مرضى . فرأى القائمون بشؤونها فى سنة ١٩٢٣ تسليمها الى الحكومة . وكانت دراستها محصورة فى المواد الأدبية ، فأنشأت الحكومة فيها كلية للعلوم ، وضمت اليها مدرستى الطب والحقوق ، وفتحتها للدراسة على نظامها الجديد فى سنة ١٩٢٥ . وقد استقدمت لها

كبار الاساتذة من اوربا ، وعملت على ترقية مستوى التعليم بها ، حتى أصبحت ، على رغم حداثتها ، مركزاً منتجا للبحث العلمى ، وبدأت تنشر روحهـــا فى الأوساط العلمية المصرية .

وأما المدارس العليا التى لم تلحق بالجامعـــة فقد عنيت وزارة المعارف باصلاحها وترقيتها حتى تكفى لاعداد الشبان المصريين للحلول محل الفنيين من الاجانب الذين أخذوا يخرجون من خدمة الحكومة المصرية منذ سنة ١٩٢٣ .

ورغبة فى ســـد الحاجة العاجلة الى مصريين متعلمين تعلما راقياً ، توسعت الادارة المصرية فى ارسال البعوث العلمية الى بلاد الغرب . ولكنها بدأت تعدل عن هذه السياسة الآن ، اكتفاء بالتعليم الراقى فى الجامعة المصرية والمدارس العليا بعد اصلاحها .

الاتجاه الثالث : العناية بالتعليم الفنى :

كان من نتائج التعليم النظرى ، بنظمه المألوفة عندنا ، اخراج فئة من الشبان يترفعون عن العمل اليدوى ، و يتهيبون الكفاح فى ميدان الاشغال الحرة ، ويعلقون كل آمالهم على وظائف الحكومة . وليست هذه الحال مقصورة على مصر ، ولكن خطب مصر بها اكبر من خطب غيرها . وقد ساعدت على ذلك طبيعة النفسية المصرية والاحوال التى بدأ فيها التعليم الحديث ، إذ كان الغرض منه ، كما بينتـــه ، مجرد إعداد الموظفين . وكان من السهل الى وقت قريب ايجاد الوظائف لكل من يحصل على قسط مناسب من العلم . ولكن الاقبال الشديد عليه أخل بالتوازن ، وزاد المتعلمون زيادة كبيرة على حاجة الوظائف . وهذه حال اذا استمرت فانها تهدد كيان الامة . فللخروج منها رأت وزارة المعارف أن تحول تيار المتعلمين الى التعليم الفنى ، من زراعى وصناعى وتجارى ، لأنه يؤهل الطلبة لأعمال الحياة والكفاح فى سبيل الرزق ، لاسيما وان البلاد قادمة على نهضة صناعية محسوسة . فأنشأت مدارس جديدة لهذه الأنواع من التعليم ، و وسعت المدارس الموجودة منها ، وعدلت من نظمها بما يرفع مستوى التعليم فيها . فأصبح يشترط لدخول الورش الصناعية الحصول على شهادة الدراسة الابتدائية ، وصار التعليم فيها هو التكملة الطبيعيـــة لتعليم التلميذ الذى ليس لديه الاستعداد للاستمرار فى الدراسة النظرية العالية . وهو تعليم عملى ونظرى معاً . و يستطيع الطالب بعدها أن ينتقل الى الاقسام الصناعية الثانوية ، أو مدارس الفنون والصنائع ، وهى تعـــده للاعمال

الصناعية الراقيـة . واذا كان من النابهين فيها ، وحصل على شهادة الدراسـة الثانوية قسم أول ، أمكنه دخول مدرسة الهندسة العالية .

و يقابلها فى التعليم التجارى مدارس التجارة المتوسطة . وسيكون دخولها بعد أن يتم الطالب القسم الأول من الدراسة الثانوية. ومثلها مدارس الزراعة المتوسطة فى التعليم الزراعى.

فهذه المدارس الصناعية والتجارية والزراعية يمكن فى الواقع اعتبارها أنواعاً خاصة من التعليم الثانوى ، تعد للحياة العملية ، لا للدراسة النظرية العالية . والمبدأ الذى تقوم عليه صحيح ما دام يراعى فى انشائها حاجة البلاد الاقتصادية .

الاتجاه الرابع : العناية بتعليم البنات :

ان نسـبة المتعلمات من الأناث فى مصر كانت فى سـنة ١٩١٧ أقل من ٢ ٪ . وفى احصاء سـنة ١٩٢٧ لم تتجاوز النسـبة ٤ ٪ بينما قد بلغت للذكور نحو ٢٠ ٪ . وهذا كاف للدلالة على تأخر تعليم البنات بالنسبة الى البنين . ومهما تكن الاسباب التى ادت الى هذا التأخر فى الماضى ، فان الرأى العام أخذ يشعر منذ زمن أن المرأة هى حجر الزاوية فى التقدم الاجتماعى ، وانه لا رقى لأمة اذا بقيت نساؤها جاهلات . وقد تمشت وزارة لمعارف مع هذا الروح فى السنين الأخيرة ، فضـاعفت الجهود فى سبيل تعليم البنات . فجميع مدارس التعليم الالزامى ، كما سبق الذكر ، تعلم البنين والبنات على السواء . وقد زيد عدد مدارس البنـات الابتدائية ، وأنشئت لهن ثلاث مدارس ثانوية أميرية فى مصر والاسكندرية ، كما أنشئت مدرسـة خاصـة لبنات الأعيـان فى الجيزة . ويوجد الآن عدد قليل من الطالبات يتعلمن فى كليات الجامعة المصرية ، جنباً الى جنب مع زملائهن من الطلبة .

ولم يقتصر هذا النشاط على وزارة المعارف ، بل كان لجهود مجالس المديريات والجمعيات الأهلية اكبر نصيب فى نشر تعليم البنات ، مما يدل على تيقظ روح البلاد الى اهمية هذا التعليم . ومن الانصاف ان نذكر أن مجالس المديريات انشـأت بضع عشرة مدرسة ابتدائية للبنات فى الاقاليم ، فى الوقت الذى لم يكن فيه لوزارة المعارف سوى مدارس قليلة فى مصر والاسكندرية .

هذه أهم الاتجاهات فى سياسة التعليم التى نسير عليها فى الوقت الحاضر . ولنقف الآن قليلا للنظر فيما نجنيه منها .

كثيراً ما يخطر للانسان ، وهو يشاهد هذا التوسع فى التعليم ، أن يسأل : هل التقدم فى نوعه كالتقدم الحاصـــل فى كميته ؟ وهل هذه الجهود الكبيرة التى تبذل تحقق الغرض المقصود منهـا ؟ إن قيمة التعليم تتوقف على أثره فى الحيـاة القومية . ونحن أمة ناهضة ، تريد أن تشق طريقها الى مستقبل زاهر يليق بها وبعظمتها الماضية . وهى خارجة من فترة خمول وضعة ، خلفت فى حياتهـا من وجوه النقص والضعف الشىء الكثير . فهل ساعد التعليم على علاج هذه العيوب ؟ هل رفع مستوى ثقافتنا ، وهذب نفوسنا ، وجعل حياتنا أقرب الى الكمال مما كانت ؟

ان الناظر الى المجتمع المصرى الآن يرى نهضة فكرية ، قد تكون محصورة فى فئات خاصـة ، ولـكنها نهضة حقيقية بارزة . فتعليم اللغات الأجنبية قـد أوصل شباب مصر الى آداب تلك اللغـــات وعلومها ، وبدأ يطلعهم على أخلاق الأمم المختلفة ، وطرق تفكيرها ، ونظم حياتها ، والمقاييس التى تقيس بها القيم العقلية والأدبية . ونتج من هـذا تنوير الأذهان ، وتوسيع الآفاق العقلية ، وتغيير نظرة الطبقات المتعلمة الى الحياة . وقـد ساعدت على ذلك فى السنين الأخيرة سهولة المواصلات وكثرة الأسفار . فالخطوط البحرية والجوية قربت المسافات بين مصر والخارج ، والتلغراف السلكى واللاسلكى هدما الحواجز بين الأمم . فأصبحنا نقرأ فى المسـاء أخبار ما يحدث فى أقصى انحـاء العالم فى الصباح ، ونستطيع ، ونحن جلوس فى بيوتنا ، أن نصغى الى محاضرة تلقى فى لندن أو باريس ، ونسمع موسيقى الأوبرا فى فينا أو نابولى . ولا يكاد يصدر كتاب ذو قيمة فى أى قطر من الأقطار ، الا ويكون بين يدى القارىء المصرى فى بضعة أيام ، أو اسابيع قليلة . ولا تكاد تظهر قطعة تمثيلية أو أدبية رائعة ، الا ونقرأ عنها فى صحفنا ، وقد نستطيع مشاهدتها على مسارحنا ، ودور السينما عندنا . كل هذه المؤثرات تعمل دائبة على ايقاظنا ، وتغيير عقليتنا .

ثم ان نشر القراءة والـكتابة بين طبقات الشعب سهل توصيل الروح الجديد اليهم عن طريق الصحف والمجلات الـكثيرة . فاخرجهم الى حـدما من عزلتهم ، وصرت الآن تجد بين العمال المصريين من يحدثك عن الأفكار الاجتماعيـــة الجديدة ، ويشعر بما له من حقوق ، وماعليه من واجبات ، ويدرك من الحياة شيئاً آخر غير اللقمة يسد بها رمقه ، والمعيشة الفطرية التى درج عليها من قديم الزمان .

كل هذا خير . ولـكن المتأمل لا يستطيع أن يكتم شعوره بان المدارس لم تعمل كل

ما يمكنها عمله لمساعدة التطور الاجتماعى عندنا . ان الذى نشعر بنقصه فينا اكثر من كل شىء آخر ليس هو العلم ، وانما هو الوجدان الحى ، والمثل العليا الخلقية . ان كثيرين من شبابنا الذين طلبوا العلم فى الجامعات الأجنبية بزوا زملاءهم الأجانب فى التحصيل ، ولكنهم لما عادوا الينا لم يستطيعوا النهوض بالأعمال التى كان يقوم بها هؤلاء . وكثير من النظم التى اخذناها عن الغربيين تحطمت فى أيدينا ، مع أنها ناجحة عندهم تؤتى أحسن الثمرات . فلماذا كل هذا ؟ ألنقص فى معلوماتنا ؟ كلا أيها السادة ! ليس هذا هو السبب الحقيقى . لنكن صريحين ، فليس من مصلحتنا أن نداري عيوبنا . أن الذى يميز الأجنبى على المصرى ليس علمه فقط ، بل شعوره بالواجب وبالمسؤولية ، وغيرته على عمله ، واخلاصه للمصلحة العامة ، وتغليبه له على شهوات النفس ، وشجاعته الأدبية ، وصلابته فيما يعتقد أنه الحق ، وامثال ذلك من الصفات التى تبنى عليها عظمة الأمم . فماذا فعلت مدارسنا لغرس هذه الصفات فى نفوسنا ؟ لا أقول انها لم تعمل شيئاً ، لانه لايمكنها الا تعمل شيئاً فهى اما أن تساعد على تنمية هذه الصفات فى نفوس تلاميذها ، واما أن تعوق نموها . وانى لأخشى شديد الخشية أن مدارسنا بنظمها الحالية تعوق هذا النمو .

وأهم سبب لذلك فى اعتقادى هو أننا اندفعنا فى نشر التعليم من غير أن نفكر التفكير الكافى فى الغاية التى نقصدها منه . فكل من له أدنى اتصال بمدارسنا اليوم يشعر أنه ليس لها من غاية الاحشو أذهان التلاميذ بمختلف أصناف المعلومات . تشهد بذلك مناهج الدراسة المثقلة بالمواد والموضوعات ، والتى تذبل عقول التلاميذ قبل أن تتمكن من استيعابها ، وتشهد بذلك العناية الخارقة للعادة بالامتحانات من كل صوب ، وتسابق المدارس تسابقاً هستيرياً للحصول على النتائج فيها بكل وسيلة مهما تكن هادمة لأغراض التربية الصحيحة . فماذا بعد ؟ ما الذى يكسبه التلاميذ من تكديس المعلومات فى عقولهم المسكينة ؟ ما أثر ذلك فى أخلاقهم ، وفى مستقبل حياتهم ؟

قد يقال ان تعليم العلم هو وظيفة المدرسة الأساسية ، وأنها لا تستطيع العناية بالأخلاق إلا عرضاً . ويلاحظ فى الجواب عن ذلك أن تعليم العلم شىء غير تكديس المعلومات ، وسأبين بعد حين أن تعليم العلم لايمكن فصله عن تربية الخلق والوجدان . على أن القول بأن وظيفة المدرسة هى تعليم العلم قول عتيق ، انحدر إلينا من القرون الوسطى ، حينما كان التعليم مقصوراً على فئة صغيرة تريد الانقطاع للعلم . أما وقد أخذت الأمم بمبدإ تعميم

التعليم ، فأن وظيفة المدرسة قد تغيرت ، لأننا لانريد أن نحول الأمة كلها الى علماء . قد ذكرت لكم انه كان من نتائج التعليم فى مصر تخريج طلاب وظائف ، لا يصلحون للعمل المنتج ، أو لا يرغبون فيه ، وذكرت أن هذه من أهم مشاكل التعليم عندنا ولا نزال نتلمس لها الحل . وعندى أن الحل الصحيح يجب أن يقوم على مبدإ أن الغرض من المدارس ليس تعليم العلم ، بل تعليم الفرد كيف يحيا حياة سامية نافعة . وإن من أهم ما كشفه علم النفس الحديث ان القوة الدافعة فى حياة الانسان ليست هى الأفكار المجردة ، بل النزعات الوجدانية . فالفكرة لاتتحول إلى قوة فى حياة المرء ، إلا اذا أحاطت بها عاطفة . لذلك فأن المدارس الحديثة لا تجعل غايتها تلقين العلم ، بل تربية الشخصية . وليس معنى هذا أن المدارس لا تعلم العلوم ، وانما معناه أنها لا تجعل العلوم غايتها . الغاية التى يجب أن ترمى اليها هى بناء الخلق ، وتربية الوجدان . والعلوم التى تعلمها انما هى وسيلة من الوسائل التى تستعملها لتحقيق هذه الغاية . فمن المهم أن يكون تعليمها محققاً للغاية التى تنشدها ، لا هادماً لها . والعيب الذى يؤخذ على مدارسنا هو أنها توجه كل عنايتها للوسيلة ، وتضحى فى سبيلها بالغاية .

قلت منذ قليل ان المدارس إذا لم تعمل على غرس الصفات الخلقية الطيبة فى النفوس ، فانها تغرس ضدها لا محالة . لأن هذه المسألة ليس فيها موقف حياد . فالخلق ، كما يعرّفه الكثيرون ، هو عادة الارادة . وارادة التلميذ تعمل فى كل لحظة من لحظات حياته ، وفى كل حركة يأتيها فى المدرسة . تعمل وقت اصغائه للدرس ، وتعمل وقت لعبه فى ساحة المدرسة ، وتتأثر بسلوك أساتذته وزملائه نحوه ، وبكل ما يقع تحت نظره . وكل أثر من هذه الآثار هو حجر يوضع فى بناء خلقه سواء الى الخير أم الى الشر . تصوروا التلميذ يتلقى درساً ايّاً كان ، لايهمنا ان كان فى الجغرافيا . أو الرياضة ، أو التجارة ، أو امساك الدفاتر . قد يخيل الينا ان كل ما يعنينا هو تحصيله لموضوع الدرس . ولكن الحقيقة ان التلميذ فى أثناء التحصيل تنغرس فى نفسه ، أردنا أو لم نرد ، اتجاهات كثيرة ، لها أبعد الأثر فى حياته . فهو قد يحصل موضوع الدرس وفى الوقت نفسه يتعود البحث والتفكير والنقد والابتكار ، وقد يحصل موضوع الدرس وهو مجرد آلة مستقبلة لاتفكر لنفسها ، ولا تهم بعمل ، بل تبقى منتظرة ان توجه وتقاد . قد يحصل موضوع الدرس على شكل يحببه اليه ويولد فى نفسه الغيرة عليه ، وقد يحصله على شكل يبغضه اليه ويجعله يفر من العمل . قد

يحصل موضوع الدرس ، و يكون موقف معلمه منه مما يشعره بأن المدرسة انما تعمل لنفعه ، وأن النظام والقانون انما وجدا لمصلحة الجميع ، فتتربى فى نفسه الغيرة على النظام والقانون والولاء للمجموعة التى ينتمى اليها . وقد يكون الأمر على عكس ذلك ، فيشعر أن المعلم حاكم مستبد يرغمه على القيام بما لا يريده ، وأن المدرسة خصم له يعمل على معارضة ميوله ، وأن القانون والنظام ليسا إلا اداة للظلم والاستبداد ، فيثور على كل هـــذا ، وتنمو فى نفسه الأنانية والفردية الممقوتة ، التى لاتعرف قانوناً إلا مصلحتها ولذتها . وعلى هذا النمط قد يكون سلوك المعلم بوجه عام مما يوحى الى التلميذ بالمبادىء الخلقية الراقية ، و يبث فى نفسه المثل العليا السامية ، وقد يكون على النقيض من ذلك مما يربى فيه الاستهتار ، والنفاق ، ودناءة النفس . والذى يجب أن نذكره دائماً هو أن موضوع الدرس ؛ من جغرافية ، أو رياضة ، أو طبيعة ، أو غير ذلك ، وان يكن هو كل شىء بالنسبة الى الامتحان ، شىء تافه فى الواقع بالنسبة الى حياة التلميذ . وأما المهم ، الذى يجعل من التلميذ عضواً نافعاً فى المجتمع أو عالة عليه ، فهو هـذه النزعات النفسية ، التى تتربى فيه عرضاً فى أثناء الدرس ، والتى لايعنى أحد بامتحانها والبحث عنهـا . فقيمة التعليم اذن ، ليست فى كثرة المعلومات التى نلقنها للتلميذ ، بل فى استجابة نفس التلميذ لهـــذه المعلومات . والتعليم الحديث ليس تعليم معارف تحصل ، بل تعليم تجارب تكتسب . وهذه التجارب ، كما تكتسب فى تحصيل العلوم المعروفة ، تكتسب فى كثير من وجوه النشاط الأخرى . فلنخلع عنا اذاً رداء الأكاديمية الجامدة ونير الامتحانات الثقيل ، ولنعدل عن النظم الآلية التى تغلب على التعليم عندنا ، ولنساير التربية الحديثـــة فندخل فى مدارسنا جو النشاط والحرية المنظمة ، التى تسمح للتلميذ بأن يريد و يعمل ، و يكتسب من تجارب الحيـاة ما يبنى به شخصيته . ولنذكر ان كل معلومات الأولين والآخرين لا يمكن أن تخطو بالمجتمع المصرى خطوة واحدة فى طريق الرقى ، اذا كانت تخرج لنا شخصيات محطمة ذابلة .

و يجب ألا نقصر هذا النوع الحيوى من التعليم على أبناء الخاصة الذين تمكنهم مواردهم من دخول المدارس الابتدائية والثانوية ، بل علينا أن نوسع دائرته حتى يشمل أبناء الشعب ، وهم الغالبية الكبرى من الأطفال . ان كل ما أعددناه لأبناء العامة هو التعليم الالزامى . ومهما نقل عن المواد التى تعلم فيه ، فان عمله فى الحقيقة لايخرج عن محو الأمية . وهذا غرض جليل فى حد ذاته ، ولكن واجب الدولة لا يقف عنده اذ ان أول مبادىء

الديمقراطية التى ننشدها هو ضرورة تربية كل فرد من أفراد الأمة تربية اجتماعية تعده لأن يكون مواطناً صالحاً — وهذا هو واجب الدولة نحو نفسها — ثم إتاحة الفرصة لمن يؤهله استعـــداده للوصول إلى أرقى درجات التعليم ، بصرف النظر عن ثروة أهله ومركزهم الاجتماعى — وهذا هو واجبها نحو أفراد شعبها . فأين كل ذلك فى نظامنا ؟ أين التربية الاجتماعية فى مدارسنا الالزامية ؟ وماذا أعددنا لمن يتم التعليم بها ، اذا ظهرت فيه علامات النبوغ ؟ ان الطريق الوحيد المفتوح أمامه هو طريق التعليم الدينى أو شبه الدينى . وهذا باب واحد من أبواب التعليم العالى. فلماذا نقفل فى وجه أبناء الشعب بقية الأبواب ؟ هبوا تلميذاً فى المدارس الالزامية ، تجلت فيه ، وهو فى الحادية أو الثانية عشرة من عمره ، النباهة وحسن الاستعداد . ولكن ميله واستعداده لا يتجهان به نحو التعليم الدينى ، فكيف يمكنه متابعة الدراسة الراقية ، والمدارس الابتدائية والثانوية مغلقة فى وجهه ، لبعد الشقة بين مناهجها ومناهج التعليم الالزامى ؟ حتى الورش الصناعية ، التى كانت المنفذ الطبيعي لخريجى المدارس الأولية ، أقفلناها فى وجوههم ، وأصبحنا نشترط لدخولها الشهادة الابتدائية ! فاذا لم نمكن أبناء العامة من التعليم الذى يعدهم لان يكونوا صناعاً حاذقين ، فما الذى نمكنهم منه ؟

إن فى وزارة المعارف الآن لجنة تنظر فى تنظيم التعليم الالزامى وربطه بأنواع التعليم الأخرى . ونحن نتقدم اليها بالرجاء ألا تقتصر على ربطه بالتعليم الدينى ، بل تنظر فى تسهيل انتقال التلاميذ من المدارس الالزامية إلى المدارس الابتدائية والثانوية فى سن الحادية او الثانية عشرة ، اذا وجد عندهم الاستعداد الذى يؤهلهم للدراسة الراقية .

وقد يتطلب هذا ترقية التعليم الالزامى عن حالته الحاضرة . وهذه الترقية تتطلب المال ، ومن الصعب أن يتكلم الانسان عن مشروع يتطلب المال فى إبان الأزمة الحاضرة . ولكن مما يجدر ذكره أن مكتب التربيـة الدولى بجنيف عمل فى العام الماضى إحصاء بما تنفقه كل دولة على التعليم فكانت مصر من البلاد القليلة الصرف عليه بالنسبة الى ميزانيتها . إذ لو أخذنا البلاد القريبة منا فى الميزانية ، نجـــد أن ارلندا تخصص ١٥ ٪ من ميزانيتها للتعليم ، وهولاندة ٢٣ ٪ ، والمجر ١٦ ٪ ، ورومانيا ١٢ ٪ ، والسويد ١٩ ٪ ، وشيلى ١٨ ٪ ، والمكسيك ١١ ٪ ، بينما مصر لاتنفق على التعليم إلا ٨ر٥ ٪ ، من ميزانيتها . وفوق هذا فان التعليم الالزامى لا يصيب من هذه النسبة النصيب الذى يستحقه بالقياس

على أنواع التعليم الأخرى . وقد دلت التجارب على انه من الخطر على رقى الأمة الاجتماعى أن نباعد بين خاصتها وعامتها فى التعليم الى الحد الذى نراه الآن . اذ تصبح كالمارد ، رأسه فى السماء ، و رجلاه فى التراب . فتضعف الصلة بين الرأس المدبر والأطراف المنفذة .

على انه مهما تبلغ حال المدارس الالزامية أو غير الالزاميـــة من الرقى ، فان التعليم لا ينبغى أن ينقطع عند مغادرة التلميذ للمدرسة . بل إن قيمته لتتوقف على مقدار انتفـاع التلميذ بوسائل التعليم الاخرى التى يعدها له المجتمع . ذلك أن المدارس ، كما ذكرت فى أول المحاضرة ، لا تعلم وانما تعد للتعلم . هى تزود التلميذ باداة التعلم ، فاذا لم يستعمل هذه الاداة فى مستقبل حياته ، لم تلبث أن يعلوها الصدأ ، ويذهب بها البلى ، و يضيع كل جهد بذل معه عبثاً . فما الذى أعده المجتمع المصرى لتغذية روح الفتى والفتاة بعد تركهما المدرسة ؟

إن أقوى عدة لنشر الافكار يعرفها العالم الى الآن هى المطابع . ولـكن قوة المطابع فى مصر يحدها أمران : الأول عجزها عن الوصول الى السواد الأعظم من الامة لجهله القراءة ، والثانى أن التأليف فى مصر لا يزال فى مهده ، و يندر فيه الجيد الذى يجمع بين الفائدة واللذة . ولست أرمى بهذا الى الـكتب العلمية الفنية ، فقد ظهرت فى هذه الناحية مؤلفات كبيرة الفائدة . ولـكن الدائرة التى تؤثر فيها هذه المؤلفات دائرة ضيقة . أما الذى يستطيع النفاذ الى روح الصانع فى مصنعه ، والفلاح فى قريته ، والفتاة الساذجة فى بيتها ، فيوحد بين هذه الأرواح ، و يساعد على تكوين شخصية قومية ، وعقلية مصرية ، تشترك فى نظرتها الى الحياة ، فهو الأدب القومى . ولا أظننى مخطئاً إذا قلت أن هذا الأدب القومى ، الذى يستمد وحيه من الحياة المصرية وتجاربها ، والذى يعبر عن النفس المصرية ومشاعرها ، لم يتكون بعد ، وان كنا نلمح شرارة منه من آن الى آخر فى وسط الظلام ، مما يبشر بأننا على أبواب عصر جديد .

وهناك نوع آخر من المؤلفات أخذ ينتشر فى البلاد الغربية ، وهو سلاسل الـكتب الشعبية المبسطة فى الموضوعات العلمية والاجتماعية . وقد ساعدت كثيراً على ترقية الحياة الفكرية فى تلك البلاد ، وأساغت منتجات الفكر الحديث لأذهان الجماهير ، فقربت بذلك البعد بين رأس المارد و رجليه . ونحن فى مصر أشد ما نكون حاجة الى هذا الصنف من المؤلفات . فلعل المؤلفين وهيئات النشر توليه القدر الكافى من عنايتها ، فتؤدى للجيـــل الناشىء أجل الخدمات .

واخراج الكتب لا يؤتى الثمرة المرجوة منه إلا إذا كان من السهل وصولها الى سواد القراء . ولا يتأتى هذا إلا بالاكثار من دور الكتب العامة . وقد عرفت الأمم الراقية لهـــذه الدور فضلها ، فلم تبخل عليها بالمال والجهد . وأضرب لكم مثلا بانجلترا ، فان سلطاتها المحلية تعمل ، وفقاً لقانون صدر فى سنة ١٩١٩ ، على إيجاد مكتبة فى كل قرية مهما صغرت ، وجعلها مركزاً للمطالعـــة والمحاضرات والأبحاث ، قائماً بذاته أو متصلا بالمدرسة الأولية المحلية . ونحن بعيدون عن هذا فى مصر ، ولا يمكننـا أن نصل اليه فى يوم وليلة . ولكنه لا يليق بأمة تنشد الرقى والثقافة ألا يكون بها من المكتبات العامة إلا ما يعد على الأصابع فى القاهرة والاسكندرية والقليل من عواصم المديريات ، واكثرها خامل لا ينتفع به . ويستعملون فى كثير من البلدان مكتبات متنقلة ، تمر فى بلاد الريف فى مواعيدمعينة لاعارة الكتب . وهذه طريقة جديرة بالتجربةفى مراكزنا الصغرى .

على أن المطابع فى مصر ، اذا كان أحد جناحيها ، وهو الكتب ، مقصوصاً ، فان جناحها الآخر ، وهو الصحافة ، قد نما وصار قوة يعتد بها . إذ إن نشر التعليم الأولى ، وقيام الحركة الوطنيـــة التى نبض لها قلب كل مصرى ، أديا الى زيادة انتشار الصحف والمجلات ، حتى أصبحت صحفنا اليومية الكبرى تعد قراءها بعشرات الألوف . وقد قال عنا اللورد كرومر يوماً من الأيام ، أننا أمة تستهويها الكلمة المطبوعة . وهو قول حق ، وليس فيه ما يمسنا ، لأنه يصدق على الجماهير فى سائر الأمم . إذ من المعروف عن بلاد اللورد كرومر نفسها أن الرجل العادى فيها ليس له رأى خاص به فى المسائل العامة ، بل رأيه هو رأى الصحيفة التى يقرؤها . وان دل هذا على شىء ، فهو يدل على ما للصحافة من قوة فى تكوين الرأى العام ، ونشر الأفكار والمعتقدات . وهذه القوة أداة فعالة للنهوض الاجتماعى إذا أحسن استعمالها . ومما يوجب الاسف أن الاحوال السياسية التى عملت على انتشار الصحف ، أضعفت أثرها من ناحية أخرى . إذ جعلت الصحافة اليومية توجه جل عنايتها الى المباحث السياسية والتطاحن الحزبى . ولكن مهمة الصحافة الحديثة لا تقتصر على ذلك ، بل يجب أن تكون مثقفاً عاماً للقارىء ، يجد فيه ما يشبع كل ميوله الروحية . وسيزيد أثر الصحافة المصرية فى المســـتقبل بقدر عنايتها بالنواحى الأدبية والاجتماعية والاقتصادية والفنية ، واستخدامها للكتاب المتمكنين من هذه النواحى .

إن المقام لا يتسع للاطالة فى الكلام عن القيمة التعليمية للتمثيل ، والسينما ، والراديو

وغير ذلك من وسائل الاتصال الحديثة . ويكفى أن أقول إن أثرها بعيد المدى ، وإن مصر لا تزال فى أول عهدها بها ، وامامها مجال واسع لترقيتها والاستفادة منها فى تنبيه طبقات الشعب .

ولكنى لا يسعنى أن أختم قبل أن أشير إلى وسيلة من أهم وسائل نشر الافكار وبث المثل العليا فى بلاد كبلادنا لا تزال تغلب عليها الأميـــة : وهذه الوسيلة هى الاجتماعات المنظمة . وهى تتخذ أشكالا كثيرة ، من محاضرات عامة ، وحلقات للبحث والدراسة ، وهيئات للعمل الاجتماعى ، وجماعات تتعاون على صرف أوقات الفراغ فى وجوه تسمو بالنفس ، وغير ذلك مما لا حصر له . وقد بدأت مثل هذه الاجتماعات تظهر فى حياتنا ، ولكنها لا تزال محصورة فى العواصم الكبرى ، وفى الطبقات المفكرة . والمهم أن تمتد هذه الجهود الى طبقات الشعب ، فهم عماد الأمة . والقيام بهذه الجهود فرض على كل من كانت لديه القدرة عليها . فاننا لانجد فى بلاد العالم التى سبقتنا فى المدنية أمة تعتمد فى التعليم والنهوض الاجتماعى على جهود الهيئات الرسمية وحدها ، بل ان الناس فى تلك البلاد يشعرون أن خدمة المجتمع امر واجب على كل فرد . وأى خدمة أجل من العمل على تحسين حال الذين لم تسعدهم احوال الحياة بما أسعدتنا به من نعم التعليم والثقافة ؟

ويسرنى أن أذكر انه أتيح لى فى الأسبوع الماضى أن ارى مثل هذا العمل فى مصر تقوم به جماعة متواضعة من الشبان تألفت تحت اسم « الرواد » ، وفتحت محلة للفتيان من العمال والطبقات الفقيرة بحىّ السيدة زينب ، يأوون اليها في كل مساء ، فيتعلمون شيئاً من العلوم ، وتلقى عليهم محاضرات بسيطة فى موضوعات صحية واجتماعية تفيدهم ، وتهيأ لهم بعض وسائل الحياة الاجتماعية والرياضية التى تهذب نفوسهم .

ان مثل هذا العمل يجب أن يعم كل ناحية بالقطر المصرى . ولو تهيأت الأسباب للمدارس الأولية لكانت أصلح نواة له فى القرى . فالرابطة التى تربط التلاميذ بمدرستهم يجب أن تبقى بعد مغادرتهم لها . ومثل هذه المدارس فى البلاد الأخرى ترسل نورها حتى يعم حياة القرية التى تقوم فيها . أما واحوال مدارسنا الأولية كما نعرفها ، فانى أوجه النداء الى شباب مصر ، الذى يهمـــه بناء مستقبلها ، بأن خير ما تعمله لمصر هو أن تضحى بشىء من وقتك وجهدك ومالك فى العمل على سد النقص فى حياة فلاح مصر !

و فى هذا فليتسابق المتسابقون !

حضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا
وكيل وزارة الداخلية للشؤون الصحية

حالة مصر الصحية فى الوقت الحاضر

لحضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا

من أراد البحث فى حالة مصر الصحية فى الوقت الحاضر وجب عليه أن يستعرض الحالة التى كانت عليها البلاد فى العصور الغابرة حتى يمكنه أن يزن الحالة الحاضرة بالمقابلة بين العهدين ويقدر النشاط الصحى الحالى التقدير الصحيح مع مراعاة العوائد القومية والأمراض المحلية ودرجة المدنية فى العصور المختلفة كما لا يغب عن البال أن تقدم الصحة العامة لا يقاس بالنتائج التى أدى اليها هذا التقدم فحسب بل بمقدار الأعمال التى كان من شأنها الوصول الى هذا القدر من التقدم .

ان تقدم الصحة العامة يمشى جنباً الى جنب مع تقدم الطب ومع انتشار التعليم بين أفراد الأمة ورقيها فى نواحى حياتها المختلفة لأن ارتفاع مستوى العناية بالحالة الصحية العامة لم يأت فى الواقع الا من طريق تطبيق ما بلغته فروع الطب من النماء فى الأزمنة المختلفة ولهذا السبب استنسب رجال الصحة أن يطلقوا على فرع الطب الذى يعنى بالصحة العامة اسم « علم الطب الوقائى » لأنه لا يقتصر على العناية بالملابسات التى تحيط بالانسان فقط كما يتبادر الى الفهم من تعريف مداه بعبارة (الصحة العامة) ولا بالمظاهر الاكلينيكية للمرض ووسائل الوقاية منه بل يشمل سبر غور التطورات التى تحدثها الاصابة بالمرض فى جسم الانسان ومعرفة مدى قوة الدفاع الكامنة فى خلايا وسوائل الجسم لمقاومة الامراض أى معرفة القوة الحقيقية للجيش المدافع عن الانسان .فهذا الفرع يجمع كل جهود فروع الطب التى عرفت مذ خلق الانسان حتى الآن ويوجهها الى غاية واحدة فى دائرة مداه الواسعة .

أما الغايات التى يرمى اليها دائماً مهما اختلفت الوسائل وتنوعت الطرائق فهى : —

١ — تقوية بنية الفرد وبذلك تزداد قوة مقاومته للامراض وتعلو تبعاً لها كفايته لتأدية العمل المنتج وهى بيت القصيد .

٢ ــ الوقاية من الأمراض باستئصال شأفة أسبابها أو قمعها ومنع انتشارها بامتلاك ناصيتها .

٣ ــ اطالة العمر وتقليل الوفيات .

وكل من تتبع تاريخ الطب الوقائى أو تاريخ الطب بصفة عامة رأى أن كل الابحاث والمشاهدات لا تتجه الى غير هذه الغايات سواء أكان السير اليها بطيئاً كما حصل فى العصور السالفة أم سريعاً كما شاهدنا فى القرنين الأخيرين وسواء انحصرت الأبحاث فى الوصول الى غاية واحدة من هذه الغايات الثلاث أم الى اثنتين منها أم شملتها كلها كما هو الحاصل فى عصرنا الحاضر . ولقد قامت كل أمة من الأمم القديمة والحديثة بنصيب فى تقدم الصحة العامة وكان كل نصر جديد فى تفهم طبيعة الأمراض يمهد السبيل الى نصر آخر يليه بل الى فتح جديد حتى بلغنا التقـــدم الحالى وستستمر الفتوح بعون الله فتزداد المعرفة لأسرار الكون بالكشف عن حقائقها وفتح مغاليقها حتى اننى لا أغالى إذا قلت أنه لو بعث أحدنا بعد جيل أو اثنين لأدهشه ما ستكون عليه الحالة الصحية العامة من التقدم واذا أعاد الى مخيلته صورة ما كان يظنه المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه هذه الحالة فى عصرنا الحاضر لرآهـــا لدى المقابلة بما سيكون عليه العالم ـــ رسما فجاً من البساطة بمكان. ولكن أحفادنا لا يستطيعون على أى حال أن ينكروا انه لولا ما جادت به قرائح أجدادهم فى عهدنا الحاضر وفى عصور أجدادنا لما تقدم العالم قيد خطوة بل لفنيت الدنيا ومن عليها بما انتابها من الشرور الاجتماعيـــة وجوائح الأمراض القتالة لأنه لم يخل عصر من العصور من وباء فتاك أو غضبة تكشر فيها الطبيعة عن نابها و يبدو أثرها بأحد مظاهر التدمير والتخريب كفيضان الأنهار وثوران البراكين أو زلزلة الأرض ولا عاصم يومئذ للناس إلا بمقاومة طغيان الطبيعة بيد العلم والعرفان .

ومصر كانت أولى الأمم التى عملت على رفع مستوى الطب والصحة العامة فهى أقدم أمم الأرض حضارة وعلماً ومنبت أول انتصار ناله الانسان على الأمراض ومن حيث الصحة العامة كان قدماء المصريين يباهون بأنهم أصح بنى آدم وكان دأبهم الأخذ بكل حيطة ليتمتعوا بالصحة الجيـدة ولذلك كانوا أمة تعنى بأسباب البأس والألعـاب الرياضية وشعارها « درهم وقاية خير من قنطار علاج » وكانوا يدرسون الطب فى جامعات عين شمس ومنف وطيبه والاسكندرية التى كانت مهبط العلم وقبلة طلابه وقد كرع موسى

عليه السلام كؤوس العلم مترعة فى جامعة عين شمس وتهذب بكل حكمة المصريين — ونقل اليونان علوم مصر الى بلادهم وقت أن كان المصريون يعرفون الكثير عن القبالة وعملية الختان وعلم الصحة والجذام والأمراض الجلدية ويكفيهم فخراً أن أبقراط الملقب بأبى الطب وفد على بلادهم للاغتراف من بحر حكمتهم وهو صاحب القول الحكيم « على الطبيب اذا أراد أن لا يخدع نفسه أو يخدع غيره أن يلم بما كان يعرفه من سبقوه » لأن خير وساطة للتجديد فى مختلف العلوم هى البناء على الأسس الصالحة من القديم .

ان المقياس الأول لتقدم الصحة العامة هو النظافة العامة وقد كان قدماء المصريين كثيرى الرعاية لذلك خصوصاً فى أشخاصهم وهذا مما أدى الى ترقية عاداتهم — قال هيرودوت فى كتابه الثانى إبان زيارته لمصر فى القرن الخامس قبل الميلاد « لا نزاع فى أن المصريين هم أكثر تديناً من أية أمة أخرى ومن عاداتهم أنهم يشربون فى كؤوس من البرونز ويغسلونها يومياً وهذا لا يقوم به بعضهم فقط بل كلهم على السواء وهم جد حريصين على ارتداء الملابس البيضاء المغسولة حديثاً وهم يختتنون مراعاة للنظافة التى هى شعارهم وهم يفضلونها على الظهور بالمظهر الحسن وكهنتهم يحلقون جسمهم كله مرة كل ثلاثة أيام حتى لا يعلق بأجسامهم القمل أو غير ذلك من الحشرات النجسة فى اثناء قيامهم بخدمة الآلهة وكذلك يغتسلون بالماء البارد مرتين فى النهار ومرتين فى الليل . »

ولاحظ هيرودوت أيضاً كثرة وجود البعوض وكان المصريون يتقون شره بالصعود الى الأبراج التى تعلو المناقع لينام بعيدين عن متناول البعوض الذى كانت الرياح تحول دون وصوله اليهم . وأما الذين كانوا يعيشون بقرب المناقع فانهم كانوا ينصبون اثناء الليل شبكات صيد الأسماك على فرشهم وكانوا يزحفون من تحتها للوصول الى الفرش منعاً لتسرب البعوض بداخلها .

فالمصريون والحالة هذه هم أول من تنبه لمضار البعوض ولاتقاء ضرره بأبسط الوسائل ومن الذين درسوا الطب بمصر وكان لهم القدح المعلى فى وضع أساس الطب الوقائى جالينوس الذائع الصيت الذى كان تلميذاً للمصريين اذ رضع لبان العلم بجامعة الاسكندرية فى القرن الثانى قبل الميلاد واحاط بكل ما عرف عن الطب فى وقته . ومما هو جدير بالذكر فى هذا الموطن انه وإن كان الفضل يرجع الى ابقراط فى تقسيم اسباب الأمراض الى انواعها تبعاً للفصول أو المناخ أو العوامل الخارجية أو العوامل الشخصية كنوع الغذاء أو

العادات أو ممارسة التمارين الرياضية وهو صاحب المبدأ القائل بأن فعل المرض يكون بالهجوم من جانبه و يقابله الدفاع من جانب الجسم أى انه الكاشف الأول لقدرة الطبيعة على الشفاء وان الطبيب الماهر هو الذى يدرس وسائل مقدرتها هذه ثم يقلدها — وان كان ما تقدم كله ينسب فضله الى ابقراط فجالينوس كان أول من أعلن ملأ الاطباء ان علم وظائف الاعضاء هو دعامة الطب وقد جعله علماً قائماً بذاته وجمع كل ما عرف عن الطب فى زمنه وصنفه أسوة بابقراط واستمرت مؤلفاته المرجع الأعلى للعلوم الطبيعية غرباً وشرقا زهاء اربعة عشر قرنا وكان ينصح تلاميذه بزيارة جامعة الاسكندرية التى انشأها بطليموس الثانى اذ هى موطن الدراسة الصحيحة لجسم الانسان وقد ظلت هذه الجامعة شمس العالم التى يستضىء الاطباء بنورها ومنبع العلم والعرفان الذى يرتوى فيه كل طالب للحقيقة الى سنة ٢٠٠ بعد الميلاد ثم بدأت فى الانحطاط الى أن ذهبت ريحها واندثرت فى سنة ٦٤٠ ميلادية عندما فتح العرب مدينة الاسكندريه وكانت العلوم الطبية قد اضمحلت فى مصر قبل انتقالها الى اليونان وكان التشريح قد منع من سنة ٥٠٠ ميلادية فتفرق رجال العلم ايدى سبا وهاجروا الى بلاد الشام وفارس وليس من شك فى أن الحالة الصحية قد اضمحلت فى البلاد كذلك تبعاً لاضمحلال معاهد الطب الذى عدت على علومه فنون الشعوذة والدجل واصبح اثراً مشوها بعد ان كان جنة قطوفها دانية وفيها من كل فاكهة زوجان .

ثم سطع على مصر نور الطب العربى فى زمن ازدهاره فى الفترة من سنة ٧٥٠ الى ١٢٥٠ ميلادية وظهر بمصر فى اوائل هذا العهد كتاب فى الطب القبطى جمع بين دفتيه مائتى « وصفة » لامراض العيون والمعدة والرحم والبواسير والجرب وامراض جلدية اخرى.

وقد استفادت مصر كثيرا من الطب العربى وآوى الى ظلها الظليل واشتغل بالتأليف والتصنيف فى اثناء هذه الفترة من تاريخها كثيرون من مشاهير الاطباء العرب كسيمون الموسوى وابن العينى وابن الفارس والنباتى الشهير بابن البيطار الذى شغل بمصر وظيفة الصيدلى الاول التى تعادل الآن وظيفة مدير قسم الصيدليات وانشأ ابن طيلون فى سنة ٨٧٥ ميلادية أول مستشفى فى ذلك العصر وعززه الملك كافور الاخشيدى بمستشفى آخر فى سنة ٩٥٧ م وكانت هناك دار اخرى للعلاج فى مصر القديمة وفى سنة ١٠٠٥ م أسس الحاكم دار الحكمة بالقاهرة وهى اشبه بجامعة منها بدار طب وكان الفاطميون قد

بدأوا فى تأسيس جامعة بالاسكندرية احياء لجامعتها القديمة كما أسس صلاح الدين مستشفى الناصرى والنورى واشتغل ابو صبيعة فى المستشفى الاخير وكان الطب يدرس فى هذه المستشفيات ثم انشى عبد اللطيف البغدادى دروساً فى الطب بالازهر سنة ١١٩٢ م

ولا يمكن انكار ما قام به الطب العربى فى خدمة الصحة العامة فى مصر بل فى العالم اجمع فالعرب وان كان أغلب طبهم منقولا عن طب جالينوس غير انهم ابتكروا الكثير ايضاً مما يخرج تعداده عن موضوع هذا البحث ومن ابرز ابتكاراتهم تفريق الرازى بين الحصبة والجدرى وتأسيسهم المستشفيات وابتداعهم الامتحانات والاجازات الطبية وتنظيمهم فن الصيدلة والكيمياء ومحافظتهم على ما ورثوه من العلوم الطبية من اليونان وخلاصة القول ان العرب هم واسطة الاتصال بين مدنية الأغريق ومدنية اوربا الحديثة وفضلهم على عصرنا الحاضر لا ينكر .

ولقد كان من الطبيعى أن يرث المصريون عن العرب علومهم الطبية ولكن ارادت العناية الالهية ان يفتح العرب الاندلس وينتشر العلم العربى من هناك الى اوربا فيزدهر وينمو حتى يصل الى أوجه — كما اتى على مصر حين من الدهر لم تكن فيه شيئاً مذكوراً أظلمت فيه شمس العلم وأفل نجم الطب وسادت الفوضى الا وهو عصر المماليك ولقد شذ عنهم أحدهم وهو السلطان قلاوون الذى أنشأ البيمارستان الكبير فى سنة ١٢٨٦ م وحبس وقفاً للانفاق عليه وهو باق حتى الآن وان كان قد خصص للعيون بعد أن كانت تعالج به فى أول انشائه كل الامراض ثم خصص لمرضى العقل واستمر هكذا حتى سنة ١٨٥٦ ميلادية ولا ننس مستشفى المؤيد الذى كان حوالى ١٤٢٠ ميلادية . ولما استولى العثمانيون على مصر فى سنة ١٥١٧ م لم تكن حالة الطب أو الصحة العامة باحسن منها فى عهد المماليك وقد اجتاحت البلاد فى العهدين جائحات من الاوبئة لا يتسع المجال لوصفها وكانت تترك لتأكل فى العباد كما تأكل النار الهشيم وقد وصف المؤرخ الشهير الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ما شاهده فى اثناء انتشار وباء الطاعون الذى ابتدأ فى أواخر شهر جمادى الاولى سنة ١٢٠٥ هجرية وذكر أهواله التى تشيب ناصية الوليد وقال ما يدل على أنه لم يتحرك أحد من أولى الأمر لمكافحته وقد مات به ما لا يحصى من الاطفال والشبان والجوارى والعبيد والمماليك والاجناد والكشاف والامراء وامراء الالوف وتوفى من السناجق نحو اثنى عشر سنجقاً . وكان يخرج من بيت الأمير فى

المشهد الواحد الخمسة والستة والعشرة ولم يبق للناس شغل الا الموت وأسبابه فلا تجد الا مريضاً أو ميتاً أو عائداً أو معزياً أو مشيعاً أو راجعاً من صلاة جنازة او دفن ميت أو مشغولا فى تجهيز متوفى أو باكياً على نفسه وهى تكاد تطير شعاعاً فرقا من الموت وندر جداً من يشكو المرض ولا يموت وندر ايضاً ظهور الطعن باجسام المرضى ولم يكن يشعر المريض بالحمى بل يكون جالساً فتأخذه رعدة من البرد فيتدثر ولا يفيق الا مخلطاً أو يموت من نهاره أو ثانى يوم أو ربما زادت فترة مرضه أو نقصت عن ذلك وقد استمر فعل الطاعون الى اوائل رمضان ثم اضمحل شأنه ولم يقع بعد ذلك الا قليلا نادراً ومات الاغا والوالى فى اثناء ذلك فولوا خلافهما فماتا بعد ثلاثة ايام فولوا خلافهما فماتا ايضاً واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات فى اسبوع واحد .

ثم أتى بعد ذلك عصر الفرنسيس بقيام نابليون الاول فى سنة ١٧٩٨ م بحملته على مصر . ويمكن اعتبار هذا الفتح مبدأ لتاريخ الصحة العامة بالبلاد كما يعتبر مبدأ تاريخها الحديث وقد اصطحب نابليون مائة من أعظم علماء فرنسا المجهزين بالكتب والآلات العلمية كما استحضر معه مطبعة عربية وأدخل الكثير من الأصلاحات الصحية العامة ككنس الشوارع ورشها فى أوقات معينة ووضع مصباح على كل منزل وقام علماؤه ببحوث علمية مفيدة وآثار بمجمعهم العلمى لا تزال تذكرلهم بالفخر العظيم . وليس من شك فى أن هذه الحملة كانت من الحوافز الهامة لادخال أسباب المدنية الغربية الى مصر وكانت الخطوة الاولى فى حكم المصريين لانفسهم وذلك بما أنشأه نابليون بالبلاد من مجالس ولجان أسوة بما عمله فى غيرها من الممالك مما كان السبب فى غرس بذور الشعور بالكرامة الوطنية والاهلية وقد مهد عمله هذا السبيل لبزوغ نجم محمد على الكبير منشىء مصر الحديثة الذى رفعته مصر فرفعها واحبته فاحبها .

وقام أطباء الجيش الفرنساوى بابحاث مفيدة حيث أصدر ديجنيت الطبيب الأول للجيش أمراً الى أطبائه أن يقوموا بأبحاث طبية وطوبوغرافية لجميع الجهات التى يحلون بها . وأنشأ نابليون ادارة تقوم بتنفيذ الاجراءات الصحية المتبعة فى موانىء كثيرة بالبحر الأبيض المتوسط .

ووجه الأطباء عنايتهم الى الصحة العامة محافظة على جيشهم وقد داهمهم وباء طاعون شديد الوطأة علاوة على التهاب العيون الذى أصاب كثيرين من رجال الجيش

واتخذ الأطباء احتياطات شديدة لقمع الوباء كحرق الأمتعة وغيرها وكانت بالبلاد فى طول مدة وجود الحملة تقريباً ادارة صحية وهى وان كان جل همها العناية بصحة الجيش فأنها أنشأت عدة مستشفيات عسكرية بالأزبكية والجيزة والقصر العينى ودمياط ورشيد وغيرها كما قامت تلك الأدارة بنشر الدعوة الصحية خصوصاً ضـــد الجدرى حيث طبعت نشرة عنه باللغة العربية ووزعت بواسطة الديوان الكبير على كبار الأعيان وعلى السيدات بواسطة السيدة نفيسة هانم زوجة مراد بك الكبير

ومات من رجال الحملة من يوم خروجها من فرنسا حتى نهاية السنة الثامنة (بالتوقيت الفرنسى الجديد المتبع وقتئذ) ٨٩١٥ توفى منهم بالطاعون ١٦٨٩

ومن المذكرات الطبية ذات الشأن التى دونها الأطباء مذكرة للدكتور بروانت عن الرمد وأخرى عن الدوسنتاريا ومذكرة عن الرمد لسفارسى وعدة مذكرات عن الطاعون .

وقد جاء فى هذه المذكرات أن الأمراض التى كانت منتشرة بمصر وقتئذ ــ علاوة على الطاعون والدوسنتاريا والحمي المتقطعة وأمراض العيون والكساح والعمى والفتق ــ الحصيات البولية والقيلة المائية والصرع والحمى المعوية والجدرى والاستسقاء .

وقام رجال الحملة بعمل جداول عن الحالة الجوية بالقاهرة والاسكندرية .

وقد يكون أول احصاء منظم للمتوفين فى القاهرة هو الذى عمل تحت اشراف ديجنيت حيث أجرى هذا الأحصاء من ٢٩ برومير من السنة السابعة حتى فندمير من السنة الثامنة بالتوقيت الفرنسى الجديد ــ واستنتج منه ما يأتى :

ان عدد النساء اكثر من عدد الرجال

ان وفيات الأطفال تحدث فى ستة الأسابيع الأولى من حياتهم وعلى العموم تكثر وفياتهم قبل بلوغهم سن تسعة أشهر .

ان الجدرى هو اكثر الأمراض حصداً للاطفال .

ويستخلص من احصاءات الطبيب المشار اليه التى عملها عن السنة الكاملة وهي السنة الثامنة (بحسب التوقيت الفرنسى الجديد المتبع وقتئذ) أن عدد الوفيات بلغ فى اثناءها بالقاهرة ٥٨٩٥ منهم ٣٥١٦ طفلا و ١٣٧٦ امرأة و ١٠٠٣ رجال .

وحول قصر العينى الى مستشفى كما أن نابليون أمر بافتتاح مستشفى مدنى بالازبكية يسع ٣٠٠ مريض .

وجلا الفرنسيون عن مصر فى سنة ١٨٠١ وقدر جومار عدد سكان القطر فى سنة ١٨٠٠ بـ ٢٤٦٠٢٠٠ نسمة ولكن حسب تقدير كلوت بك لا يتجاوز السكان المليونين

و بجلاء الفرنسيين وعودة حكم العثمانيين لمصر وتسلط المماليك ثانية سنحت الفرصة لجلوس محمد على على عرش مصر وتم بذلك خلاص البلاد على يديه من عصور الفوضى والمظالم وسار بها فى سبيل الرقى الى أبعد شوط ونهض ضمن ما نهض به بالشؤون الطبية والصحية .

تولى محمد على باشا الحكم وممارسة مهنة الطب فى أيدى قوم جهلة يتناقل بعضهم عن بعض المعلومات الطبية المشوهة وكان بعضهم يلقبون بالحكماء وهم يقومون بمعالجة الأمراض الباطنية وبعضهم يمارسون الجراحة ويلقبون بالجراحين وكان على رأسهم جراحباشا — كما يوجد بجانب هؤلاء المجبرون والدايات وكان جل اعتمادهم على بقايا الطب العربى وقال كلوت بك انه لما حضر الى مصر كان يرأس المستشفيات حلاقون وقد أبعدوا بصعوبة حتى يحل مكانهم كلوت بك و زملاؤه .

فلما أوجد محمد على جيشاً نظامياً بمصر استدعى كلوت بك فى سنة ١٨٢٥م ليكون طبيباً أول لهذا الجيش ويرجع اليه الفضل فى إعادة تأليف مجلس الصحة وقد شكل من خمسة أعضاء من أطباء وجراحين وصيادلة برئاسة كلوت بك وكان هذا المجلس يشير على وزير الحربية فى كل المسائل ذات العلاقة بالصحة وغيرها حيث لم تكن توجد وقتئذ ادارة صحية . ثم انشئت فيما بعد ادارة طبية يرأسها مفتش عام وهذه الادارة كانت تدير شؤون مستشفيات الجيش وصيدلياته حيث ألحق بهذه الادارة قسم للادوية وتسهيلا لصرف الدواء وضعت فارما كوبيا بها بعض « الوصفات » وأقرها مجلس الصحة وأسست صيدلية مركزية بالقاهرة ومستودعات للأدوية بالاسكندرية للقطر المصرى وبحلب وعكة للشام و بجدة لبلاد العرب و بالخرطوم لسنار و بكندية لكريت .

وأنشىء للبحرية المصرية مجلس صحة بالاسكندرية .

ونشأ عن اتخاذ الوسائط المتقدمة انخفاض نسبة الوفيات بين رجال الجيش

والبحرية وكان مستشفى ابى زعبل هو المثال الذى تحتذيه كل المستشفيات وقد أسست به فى سنة ١٨٢٧م مدرسة الطب وفرع للصيدلة فدرس علم الصحة للمرة الأولى فى تاريخ مصر الحديث . ثم أنشئت مدرسة للولادة بهذا المستشفى أيضاً وتخرج فى مدرسة الطب بعد خمس سنوات أربعون طبيباً أرسل منهم لباريس اثنا عشر طالباً حيث حصلوا على شهادة الدكتوراه من كلية باريس .

ثم انتقلت مدرسة الطب والمستشفى الملحق بها الى سراى ابرهيم بك (وهو قصر العينى الحالى) حيث هما الآن وأصبح المستشفى يسع من ١٠٠٠ الى ١٥٠٠ مريض و بالمدرسة ثلاثمائة تلميذ — ورخص و لى النعم فى قبول مرضى من غير العسكريين كما أن مستشفى أبى زعبل خصص للنساء ومستشفى الأزبكية لكل الأمراض وكان ملحقاً بكل المدارس بالأقاليم جراحون مرخص لهم فى معالجة الأهالى ثم انشئت مدرسة للولادة بمستشفى قصر العينى .

وقبل زمن محمد على باشا كان الذين يقومون بمعالجة الحيوانات هم البياطرة فأنشأ المسيو هامو بناء على رغبة محمد على باشا مدرسة للطب البيطرى برشيد ثم نقلت الى أبى زعبل حيث الحق بها مائة طالب و بعدئذ وجد أنها بعيدة عن الحرس بشبرا فنقلت الى هناك لتكون على مقربة من فرسان الجيش وأصبح فيها مائة وعشرون طالباً .

ومما يجب ذكره أن كلوت بك هو الذى أشار باستعمال التطعيم ضد الجدرى لمقاومة انتشار هذا المرض بالقطر المصرى بعد أن كان يودى بحياة ستين الفاً من الأطفال كل سنة أو ثلث المواليد على رأى كلوت بك وقام هو وتلاميذه بمكافحة الكوليرا التى وفدت على مصر سنة ١٨٣٠ م و بذلوا جهوداً فائقة فى مقاومة طاعون سنة ١٨٣٥ .

فما تقدم نرى أن مصر الحديثة عرفت ما هى الصحة بعد أن وضع دعائمها محمد على باشا وان كان الفرنسيون قد مارسوها قبله محافظة على جيوشهم ومن عهده استمرت فى تقدم حتى عصرنا الحاضر .

وبلغ عدد سكان مصر فى نهاية عهد محمد على باشا نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون وتعداد سكان القاهرة نحو ثلاثمائة الف نسمة .

وسار أبناء وأحفاد محمد على الذين تولوا الحكم بعده على منواله وقطع كل منهم فى

هذا السبيل شوطاً يختلف عن الآخر تبعاً للموارد التى كانت لديه ووفقاً لمشورة الرجال الذين كانوا يعملون معه حتى أتى الخديوى اسماعيل باشا الذى امتاز عصره بالتجديد فى كل النواحى الاجتماعية والمادية وقد تقدمت الشؤون الصحية وفقاً لخططه الاصلاحية تقدماً عظيما لا سيما وان علم الصحة كان قد خطا خطوات واسعة فى عصره مما كان خير معوان له على هذا التقدم .

وما حل القرن العشرون حتى أصبح علم الصحة غير مقصور على مكافحة الاوبئة ومراقبة زيادة الوفيات وقيد المواليد بل تعدى ذلك الى الناحية الوقائية وابتدأت النهضة الصحية فى مصر بالازدهار على ضوء التقدم الحديث للعلم والفنون الطبيعية الذى انبثق فجره فى اواخر القرن التاسع عشر حيث اكتشفت جراثيم الأمراض فى الانسجة وأن ننس لا ننسى ما قام به باستور من العمل الخالد فى اكتشافه أسباب التخمر فى سنة ١٨٥٧ م وأبحاثه عن الجراثيم فى سنة ١٨٧٧م وعن الطعوم فى سنة ١٨٨٠ و ١٨٨٢ التى هى أساس الطب الحديث هذا مع ما استنبطه كوخ من المزارع الصلبة والطرق المتقنة لتمييز الجراثيم وقد كان ذلك فتحاً عظيما فى الطب وتتابعت الاكتشافات الباهرة التى امتاز بها عصرنا من سنة ١٨٧٠ حتى سنة ١٩٠٥ وفيها اكتشاف هنسن لباشلس الجذام ونيسر لميكروب السيلان وأبرت وجانكى لباشلس الحمى التيفودية واجستن لبذور التقيح وكوخ لباشلس التدرن وباشلس الكوليرا بالقطر المصرى وكلبس ولوفار لباشلس الدفتيريا وكتساتو وبرسن لباشلس الطاعون ونيكولاير لباشلس التيتانوس واكتشف لافرن سنة ١٨٨٠ طفيلى الملاريا وهلم جرا حتى اتت سنة ١٩٠٥ فاكتشف شودن ميكروب الزهرى ثم اكتشف ان لهذه الجراثيم سموماً تفعل فى الجسم واعقب ذلك تحضير بهرنج وكتسانو مصلا مضادا للدفتريا . وبهذه الاكتشافات الموفقة وصلنا الى معرفة حقيقة هامة وهي ان الجسم السليم اذا هاجمه ميكروب قد يتأثر بفعل سمومه غير انه يمكن خلاياه وسوائله ان تقوم بالدفاع عن الجسم باتلاف الميكروب وهضمه وهذا الدفاع يحصل بواسطة مواد مضادة بفعلها لفعل سم الميكروب وقد سبق ذلك بسنتين كشف متشنكوف لفعل الكريات البيضاء فى اتلاف الجراثيم وتلا ذلك عدة اكتشافات كالتلبد وغيره ثم فى سنة ١٩١٠ أعلن اهلرخ اكتشافه لمركب ٦٠٦ الذى يقضى على طفيلى الزهرى فى جسم الانسان فمما تقدم بيانه نرى أن أول عمل باهر رفع من شأن

علوم الطب وأقامها على اقوى الدعائم يرجع الفضل فيه الى باستور الكيماوى وذلك سنة ١٨٥٧ م وكان الفضل فى إتمام هذا العمل الباهر لكيماوى آخر وهو اهلرخ ولن تنسى الانسانية مهما كرت الدهور وتعاقبت العصور فضل هذين النابغين عليها .

وأخذت مصر نصيبها فى تطبيق نتائج هذه المكتشفات لتحسين الحالة الصحية العامة بها لانه متى اكتشفت الجرثومة المسببة للمرض أمكن مكافحته بالتغلب عليها . وكان الدافع الى هذا التطبيق بمصر آتياً عن طريقين الاول رغبة أولى الأمر فى تمدين مصر والأخذ بالاساليب الاوربية النافعة والثانى تكرر حدوث الاوبئة فيها بسبب وقوعها على حافة البركان كما يقول المثل الاوربى نظراً لموقعها الجغرافى الذى جعلها على الدوام نقطة الاتصال بين ممالك العالم ومما يذكر فى هذا المقام مع الاغتباط انه فى اثناء نهضة مصر الصحية الحالية توفق بلهارس لاكتشاف ديدان البلهارسيا وليبر لطريق العدوى بها وبديدان الانكلستوما وانتهى الأمر بالبحث فى جميع النواحى الصحية والعمل على تحسينها وبالتالى لرفع مستوى الحياة الصحية لكل فرد من الافراد وللمجتمع المصرى كله على اختلاف طبقاته مما كان له اكبر الاثر فى تمدين مصر ولو كانت موارد البلاد المالية سمحت بتمشى مستوى الثقافة العامة مع رقى الصحة العامة خطوة خطوة لبلغت مصر من المدنية شأوا عظيماً ولاستفادت البلاد من الأعمال الصحية أضعاف ما تستفيده الآن اذ من البديهى أنه لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

فالحالة الصحية بالقطر المصرى الآن مرضية فقد كانت نسبة الوفيات فى سنة ١٨٨٨ : ٢ر ٥٠ فى الالف وفى سنة ١٨٨٩ : ٦ر٥١ فى الالف وكان عدد السكان ٦٨٢١٦٠٠ بينما انخفضت نسبة الوفيات بالقطر فى سنة ١٩٣٠ الى ٤ر ٢٤ فى الالف وهى أقل نسبة فى الخمس والعشرين سنة الأخيرة وعدد سكان القطر الآن نحو خمسة عشر مليوناً

ثم أن زيادة نسبة المواليد عن نسبة الوفيات كانت قليلة بينما هى الآن عالية جداً ففى سنة ١٨٨٩ كانت نسبة المواليد فى القاهرة مثلا ٨ر٥٨ ونسبة الوفيات ٦ر ٥١ لكل الف ساكن بينما فى سنة ١٩٣٠ كانت نسبة المواليد فى القطر المصرى ٤ر٤٤ ولم تتعد نسبة الوفيات ٨ر٢٥ والبون شاسع بين النسبتين وهذا دليل من أهم الادلة على تقدم الصحة العامة بلا نزاع واذا لوحظ وجود قلة فى نسبة المواليد فهذه القلة احدى مظاهر المدنية التى

تدعو الى الاقلال من تعدد الزوجات ومن الزواج المبكر لكثرة تكاليف الحياة الآن وللرغبة فى التقليل من النسل لتوفير العناية بالقليل منه ليشب الابناء اصحاء ويصيروا اعضاء نافعين فى الهيئة الاجتماعية ومع ذلك يقابل قلة النسل قلة الوفيات بين المواليد فبعد ان كان يتوفى فى السنوات من ١٩٠١ الى ١٩٠٥ : ٢٨٢ فى كل الف مولود انخفض هذا العدد فى سنة ١٩٣٠ الى ١٥١ وفاة لكل الف مولود — واذا نظرنا الى هذه النسبة نجدها عالية لو قورنت بما يقابلها ببعض الممالك الأخرى كانجلترا أو فرنسا ولكن يخفف وطأتها ان نسبة المواليد بمصر اعلى جداً مما هى فى هذه الممالك حتى أن عدد سكان مصر دائماً فى ازدياد وهو الآن خمسة امثاله فى أول عهد نهضتها الحديثة أى أول عصر محمد على باشا .

ومع ذلك فمسألة زيادة وفيات الأطفال بالقطر المصرى هى من المسائل التى بحثت بحثاً مستفيضاً وقد بدىء بالعمل على مكافحتها بأفعل الوسائل العملية إذ أنشىء فى كل عاصمة مديرية مركز لرعاية الطفل وحماية الأمومة كما أنشئت عدة مراكز بالقاهرة والاسكندرية وأنشئت فروع بالمستشفيات العامة لمعالجة الأطفال ومراكز ومستشفيات متنقلة كما ألحقت دور الولادة بهذه المراكز ونظمت زيارات صحية بواسطة زائرات معينات لارشاد الحوامل والأمهات الى طرق العناية وتربية الطفل وغير ذلك من الوسائل الفعالة لمعالجة الأمراض الوراثية وتحسين النسل وقد ألمعنا الى أثر هذه الجهود فى نقص نسبة الوفيات ولا شك أن انتشار التعليم الالزامى بين طبقات الشعب سيكون خير معوان على الوصول الى تقليل وفيات الاطفال الى الحد الأدنى .

ولم يكن أثر الاهتمام بالطفل مقصوراً على تقليل نسبة الوفيات بين الأطفال بل المقصود به أيضاً انشاء جيل قوى البنية ذى كفاية للعمل المنتج يعيش الى أقصى مدى مستطاع . ولقد ظهرت طلائع هذا الجيل وشواهد ذلك جلية فى فتيان وفتيات اليوم فأين شباب اليوم من شباب خمسين سنة مضت خصوصاً شابات ذاك العهد حيث كن صفراوات هزيلات أو سمينات مترهلات . وأما شبان اليوم وشاباته فممتلئون صحة وعافية إذ يعنى بصحتهم من يوم ولادتهم حتى يخرجوا الى معترك الحياة — واذا ازدادت عناية المصريين بممارسة الألعاب الرياضية رجوعاً منهم الى سنة أجدادهم من قبل أصبح مجىء هذا الجيل قريباً ولا شك فيه .

ولا أزيدك بياناً عما اتخذ و يتخذ الآن فى مقاومة الأوبئة ومنعها فقد أصبحت بعض الأمراض أثراً بعد عين كالحمى الراجعة كما أصبح البعض الآخر يتقى بالحقن كالدفتريا والحميات المعوية أو يقاوم بسهولة كالطاعون الذى كان الشبح المخيف بمصر كما سبق لنا بيانه فى هذا المقال .

هذا وقد انتشرت معاهد العلاج فى كل ناحية من نواحى القطر فلا يخلو الآن مركز من مستشفى ولا عاصمة مديرية من مستشفى عام كبير ولا قرية كبيرة من عيادة خارجية مع تيسير وسائل التشخيص بانشاء المعامل بكل أنواعها وتزويدها بالأجهزة المختلفة وتوفير كل طرق المعالجة الحديثة بمعاهد العلاج حتى أصبح بالقطر المصرى الآن ١٢٠ مستشفى عاماً ومركزيا وقرويا علاوة على المستشفيات والعيادات الخاصة ببعض الأمراض كالرمد والطفيليات المشار اليها فيما يلى

ولما كانت مصر منذ القدم موطناً لأمراض كالبلهارسيا والانكلستوما وبعض أمراض العيون كالرمد الحبيبى وهذه الأمراض — علاوة على الملاريا التى فشت فى بعض جهات القطر بسبب وجود المستنقعات التى نشأت على الأخص عن احداث حفر لأخذ التراب منها لعمل الآجر لبناء المنازل بالقرى وعدا الزهرى والأمراض الدرنية — وهذه تقلل من كفاية السكان وتضعف قوة انتاجهم وتهد كيان الأمة بصفة عامة. فقد وجهت اليها العناية بنوع خاص وأنشئت المستشفيات والمستوصفات لمعالجتها وكذلك لمعالجة الجذام ، كما بذلت الجهود فى عمل الأبحاث الخاصة بمنشئها وطرق معالجتها المعالجة الناجعة خصوصاً الانكلستوما والبلهارسيا اللذين أنشىء معهد خاص لعمل التجارب المتعلقة بمقاومتهما فضلا عن نشر الدعوة ضد هذه الأمراض بصفة مستمرة بكل طرق الأذاعة المعروفة الآن .

ولا يوجد برهان على تقدم المدنية وزيادة الرفاهية فى باد من البلاد أقطع من توفير المياه النقية الكافية للشرب وللاستعمال المنزلى ومنع تلوث المياه وتصريف الفضلات والعناية بالشوارع والطرق وصحة المساكن وتفتيش المأكولات وتنظيم الأسواق والاضاءة والنظافة العامة .

وقد قطعت مصر شوطاً كبيراً فى هذه السبل إذ أن عدد المدن التى فيها أجهزة لترشيح المياه أصبح أربعين وعدد البلاد التى فيها آبار ارتوازية بلغ حتى الآن

ثلاثين وعدد سكان المدن الذين ينتفعون الآن بالمياه النقية يزيد قليلا عن ربع سكان القطر المصرى . أما أمهات المدن الموجود بها مجار عامة فهى حتى الآن تسعاً . وادارة هذه الأجهزة علاوة على العناية بالنظافة العامة موكولة الى المجالس البلدية والمحلية والقروية التى توجد الآن فى معظم المدن والبلاد والقرى الكبيرة وليس من شك فى أن المساكن الآن أحسن حالا من التى وصفها المؤرخون وزائرو القطر المصرى فى القرنين الأخيرين وقد مهدت شوارع المدن الكبيرة وعبدت طرق كثيرة وعمت الاضاءة بالكهرباء المدن والكثير من البلاد ونظمت أسواق كثيرة للمأكولات وعنى الآن بغذاء الانسان بما يلقن للأم وهى حامل وهى والدة وبما يلقن للتلميذ بالمدارس عن التغذية الصحية وبما ينشر على الجمهور وما اتجهت اليه عناية ولاة الأمور من المحافظة على نقاوة الطعام بالتشريع الخاص بذلك وبتفتيش أماكن تخزينه وبيعه وتحضيره فلا يمكن الآن فتح محل لبيع المأكولات الا بترخيص بعد تنفيذ مواصفات صحية خاصة وبعد منح الترخيص يفتش الأطباء ومعاونوهم المتخرجون فى معهد خاص هذه الأماكن بحالة دورية لضمان سيرها على النظم الصحية .

وبسبب نشوء عدة صناعات بالقطر المصرى نبتت فكرة العناية بصحة العمال فابتدىء بسن تشريع لذلك وان كانت المصانع خاضعة للتفتيش الصحى منذ عهد النهضة الحديثة بالشؤون الصحية العامة وقد ابتدىء أيضاً فى اقامة مساكن صحية للعمال بالاسكندرية والقاهرة ولا شك فى أن البلاد سائرة فى سبيل نهضة موفقة فى الشؤون الصناعية تستدعى عناية خاصة بالشؤون الصحية للعمال والمصانع .

نتائج الجهود الصحية والطبية

ان التقدم المطرد للطب والتقدم الاجتماعى للجنس البشرى مهدا السبيل لعدد جم من بنى الانسان لأن يحيوا حياة طيبة ومثمرة وكانت نتيجة المساعى السابق إيضاحها أن ازداد متوسط العمر وأن كثيراً من الأمراض زالت تقريباً من القطر المصرى والبعض قل كالعور والعمى والملاريا ومضاعفات بعض الأمراض كالبلهارسيا قلت لدرجة كبيرة فالبلهارسيا الجراحية صارت الآن أقل ثمانى مرات مما كانت عليه فى

سنة ١٩٢٤ والحصيات البولية ثلاث مرات ونصف مرة والبواسير البولية انخفضت إلى ثلث ما كانت عليه فى سنة ١٩٢٥

و بالاختصار قد تيسر بوضع أسس الحياة الصحية رفع مستوى صحة الأفراد بدرجة ملموسة وهبطت نسبة الوفيات الى عدد السكان نحو أربعين فى المائة عما كانت عليه من خمسين سنة مضت وأصبح فى متناول كل انسان من وقت طفولته التحصن ضد كثير من الأمراض كالجدرى والدفتيريا كما أبعد عنه خطر العدوى من عدة أمراض أخرى .

ولكن على رغم هذه الجهود بقيت معضلات صحية مصرية فى حاجة الى الحل حتى يمكن مع التقدم الاجتماعى والصناعى المنتظر وتعميم التعليم الاجبارى أن تصل المدنية الى أرقى مستواها فى القطر المصرى . وهذه المسائل هى موضع العناية الآن وبعضها قد درس فعلا والبعض الآخر لايزال فى طريق الدرس والمنتظر أن تحل جميع هذه المعضلات وقد أتينا على أهمها فى ما يأتى :—

١ — معالجة نقص التغذية فى بعض جهات القطر

٢ — معالجة مسألة إدمان المخدرات

٣ — العناية بالنسل باستئصال شأفة السموم وغيرها من العوامل التى تؤثر فيه بالوراثة و بذلك يقل عدد الأشخاص الذين لا فائدة منهم للبلد كضعاف العقول وغيرهم .

٤ — العمل على تقليـــل عدد ذوى العاهات وعلى توفير وسائل التعليم و وسائل كسب العيش للموجودين منهم

٥ — توفير المياه النقية لكل سكان القطر على السواء من حضر و ريف .

٦ — تحسين حالة المساكن فى المدن والقرى — و بحل هذه المعضلة يرتفع مستوى الصحة العامة الى درجة عالية جداً لأن المسكن الغير الصحى يدعو الى ضعف بنية السكان واضعاف قوة مقاومتهم للامراض فيكثر المرضى وذو و العاهات وترتفع نسبة الوفيات . والمسكن الردىء يدعو بطبيعته الى قذارة الساكن وقذارة ما يحيط به وما يتبع ذلك من مرض ونقص فى الكفاية .

٧ — مقاومة البلهارسيا والانكلستوما لا بالمعالجة والوسائل الصحية العامة فقط

بل بابادة الديدان المسببة لها فى مواطنها . والهمة مبذولة الى أقصى حد للوصول الى هذا الغرض الهام .

٨ — القضاء على الرمد الحبيبى باكتشاف جرثومته . والبحث قائم بكل همة ونشاط لحل هذه المعضلة التى استعصت على الحل منذ آلاف السنين

٩ — التصرف فى الفضـــلات بتعميم المجارى فى المدن وحل هذه المعضلة الهامة بالنسبة للقرى .

ومتى وفقنا الى حل هذه المعضلات الصحية وقطعت البلاد شوطاً بعيداً فى مضمار التقدم فى مختلف نواحى المدنية تزدهر المدنية فى مصر وتبلغ مثلها الأعلى فتعود الى البلاد سيرتها الأولى وليس من شك فى أن رفع مستوى الثقافة العامة بين الأهلين يساعد كثيراً على الوصول الى هذا الغرض .

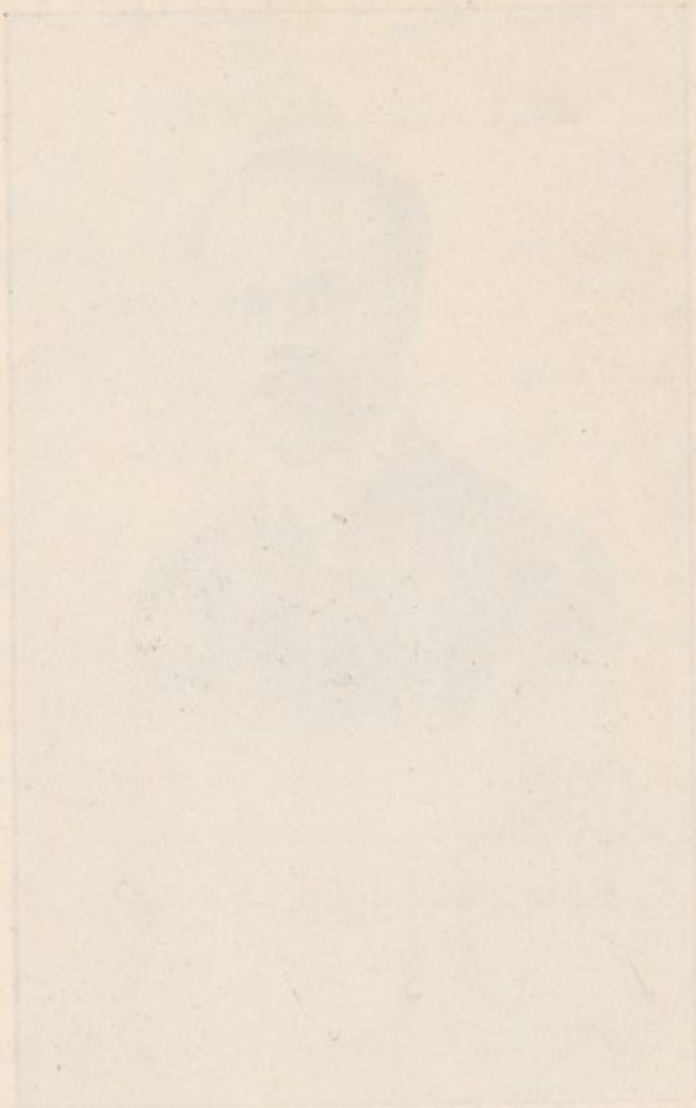

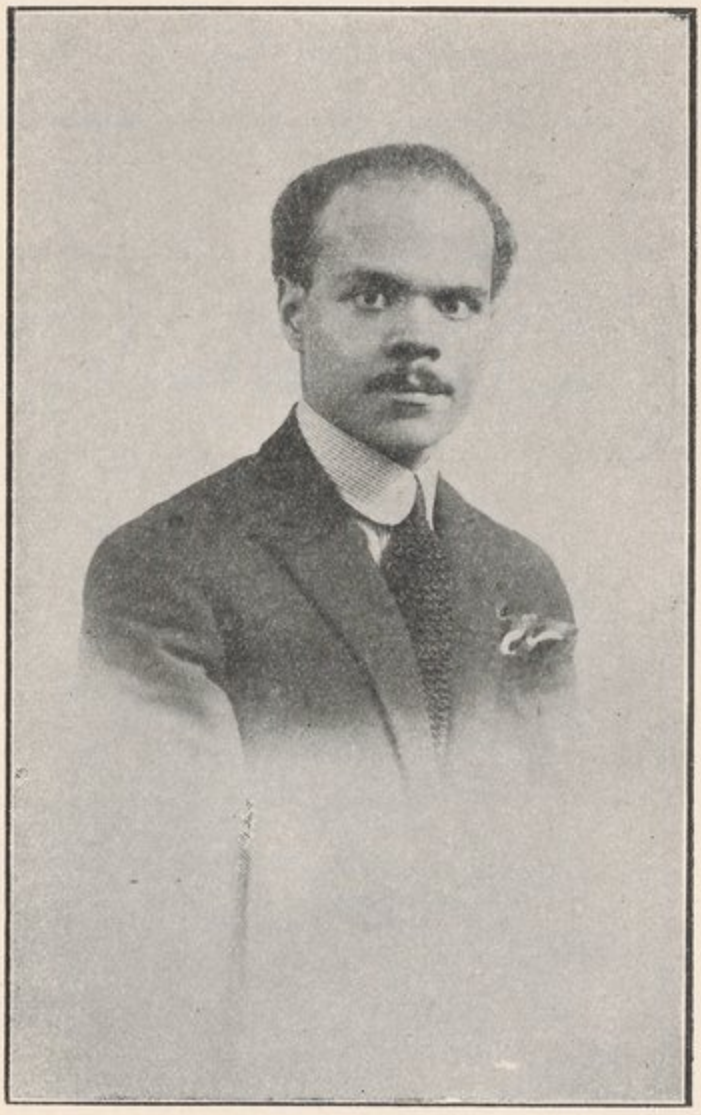

حضرة الدكتور بنيامين بهمان

M. R. C. S. (Engl.) L R. C. P.

طبيب مستشفى الامراض العقلية بالعباسيه

اوقات الفراغ والحياة المنزلية

لحضرة الدكتور بنيامين رعمار

هذا الموضوع عظيم الخطر لتناوله البحث فى حياتنا الخلقية والاجتماعية وما تأثرت به هذه الحياة فى مصر منذ فجر التاريخ

وان تاريخ مصر الحديث لن ينسى أبد الدهر ما للامريكان من عظيم الأثر فى نهضتنا العلمية والاجتماعية . وانها لفرصة سعيدة تلك التى أتاحها لى قسم الخدمة العامة لأتحدث اليكم عن بعض هذه الشؤون . وأخص منها بالذكر البحث فى عيشتنا المنزلية وتحليل عاداتنا وتقاليدنا وفحص أخلاقنا فحصاً يوضح بعض ما فينا من عيوب ونقائص قد يرى فيها البعض ما يؤلمه أو ما يمس عزتنا القومية ولكن ما سأذكره ليس مقصوراً علينا دون سوانا من سائر الأمم . وان أغفلت الكلام عما لنا من حسنات فليس لقلتها ولكن لأنها خارجة عن موضوع بحثى لأنى أبحث فى تقويم المعوج واصلاح الفاسد

المصرى كما تعلمون وقاد الذهن يشهد له بذلك سبقه لمنافسيه من زملائه الغربيين فى جامعاتهم ومع ذلك ترى الغربى متفوقاً على المصرى فى مواجهة الحيـــاة وأسبق منه فى ميدان العمل

وهنا نسائل أنفسنا التى تطمح الى النهوض والكمال ما الذى قعد بها عن ادراك شأو الآخرين من الغربيين فى مضمار الحياة ما دمنا نساويهم فى قوة العقل والبدن ؟

فالجواب عن هذا السؤال هو بيان أدوائنا الاجتماعية والخلقية وتشخيصها تشخيصاً دقيقاً يكفل لنا خير وسيلة منتجة لوصف العلاج وهذا ما أحاول القيام به الليلة

ولا أريد فى مقالى هذا أن أسلك سبيل الذين يبالغون باللوم ويسرفون فى النقد المر مما يفضى الى تثبيط الهمم واضعاف العزائم ويؤدى الى عكس الغاية المرجوة

وللبرهان على صحة قولى هذا أضرب لكم مثل مريض بالنورستانيا استشار طبيبه فأخبره بأن مرضه وهمى وأن أعضـــاء جسمه كلها سليمة فليس اذن ما يسوغ شكواه . فترى

الفحص فى هذه الحالة لم يتناول ما سبب عنده الوهم فيأخذ فى علاجه الى أن يتم شفاؤه وانما تناول الأسباب الظاهرة فاكتفى بقوله له انه غير مريض و ينصحه ان يترك أفكاره السوداء . . . . . فاذا كان هذا كل عمل الطبيب فلا ينتفع منه المريض شيئاً . لأن المريض فى أغلب الأحيان يعرف أن داءه هذه الوساوس والأوهام ولكن ليس لديه من الوسائل ما يحرر نفسه من سلطانها والتخلص منها . . . . ومما يزيد فى ألم هذا المريض كثرة لوم اخوانه ومريديه على استسلامه الى أوهامه وهو ما يعادل قسوة أعدائه فى نقدهم اياه لضعف ارادته وهذا وذاك يدفع نفسه الباطنية للاستسلام الى أمراضه والتمادى فى أوهامه كى يبرر موقفه المرضى حفظاً لكرامته فى عيون الآخرين

و بمثل هذا النظام العقلى تتأثر نفسية كل فرد لو قسونا فى نقده . واننا بهذا لا نساعده على اصلاح شأنه بل ندفعه الى طريق العناد والتثبت بفكرته ومغالطة نفسه لكى يصونها من الاحساس بفكرة تحقير الغير له عن طريق اللوم والنقد . ومن هذا ترون أن اللوم والنقد التهكمى ليسا طريقاً للاصلاح بل هما مجلبة للضرر الجسيم وبالأسف الشديد نراهما شائعين عندنا وكثيرا ما نرى الأب يتبعها مع ابنه والاستاذ مع تلميذه والرئيس مع مرؤوسيه وهذه عيوب فظيعة ليتهم يقلعون عنها لأنها ناشئة عن نقص فى التربية وضعف فى الأخلاق .

الشاب المصرى ناهض وفيه روح حية ورغبة قوية تدفعه الى السير فى طريق الرقى ولكنه يشعر بأن رجليه أضعف من أن تحملاه الى هذه الغاية بالسرعة التى يريدها وهو لضعفه يتعثر فى طريقه و يكون فى حاجة لمن يأخذ بيده و يقيله من عثراته برفق وتؤدة حتى يصل الى الغاية التى تتوق اليها نفسه المتقدة حماسة للوصول الى الرقى والكمال . . . فهذه الرغبة الشريفة فيه تحتاج الى حسن الهداية واسداء النصح والمعونة الصادقة . لا الى اللوم والنقد لضعفه الذى لم يكن هو نفسه سبباً فيه حتى نقسو عليه وهو فى هذا أحوج ما يكون الى علاج هذا الضعف باللطف وطول الاناة

أما أطفال اليوم — شباب الغد — ورجال المستقبل فالرقابة لهم خير من العلاج ولكى نقيهم من الضعف الذى نشعر به والنقص الذى نلوم أنفسنا عليه يجب علينا أولا أن نحدد نوع هذا النقص ومنشأه

مؤهلات أخرى غير الذكاء، للنجاح فى الحياة . مثل الاعتداد بالذات والاعتماد

على النفس والصبر على العمل ، والمقدرة على التوفيق بين الرغبات وحقائق الكون الى غير ذلك من الصفات . وهذه نسميها الأخلاق و بمقدار متانتها فى الشخص يتوقف نجاحه ، وبنسبة وجودها فى الشعوب والأمم تكون عظمتها وهى ليست معدومة عندنا ولا هى كاملة عند غيرنا . على ان الغربيين يتمتعون منها بنصيب أوفر من نصيبنا . وضعفنا هو « نقص هذه المؤهلات فينا » . لكى نعرف أين وكيف تنمو الاخلاق فلندرس المنزل

المنزل هو المعهد الوحيد الذى يقوم بتربية الفرد فى السنوات الاولى من حياته وأهم سنى التربية هي الخمس سنوات الاولى من حياة الطفل وعليها يتوقف مستقبله ففيها تتكون نفسيته وأخلاقه التى تكون شخصيته كفرد عامل — وفى مقدور علماء النفس اليوم أن يبرهنوا للعالم أن معظم نقائص الفرد الخلقية ترجع الى سوء التصرف فى تربيته كطفل ، وأن معظم ما فى الانسان من قوة أو ضعف خلقى يرجع السبب فيه الى نوع تربيته المنزلية والى تأثير الوسط الذى كان يحيط به وهو طفل

فالبيت اذن له المنزلة الأولى فى تربية الاخلاق والاخلاق تغرس فى الطفولة — وهذه الفكرة على ما أظن جديدة لقراء اللغة العربية — وهى تخالف تماماً الفكرة السائدة عندنا فاننا كثيرو التساهل والتسامح فى غلطات الطفل ولا نعلق أهمية كبيرة على ما يبدو منه من شذوذ فى الأخلاق أو التصرفات باعتبار انه صغير لا يدرك وعند ما يكبر يفهم

و يحسن بى فى هذا المقام أن أذكر لكم بايجاز متحاشياً ذكر اصطلاحات فنية — بعض الحقائق المقررة فى كيفية تكوين نفسية الطفل — الاساس الذى عليه يقوم بنيان أخلاقه

يولد الطفل وأول درس تلقيه عليه الطبيعة هو مواجهة حقائق العالم الذى يحيط به فترغمه على أن يوفق بين غرائزه وملذاته و بين الظروف القهرية التى تواجهه

فعند ما يولد و يصطدم بالعالم الجديد بما فيه من غوغاء وتغييرات جوية يتنبه لأن حياة الهدوء والسكينة التى عاشها كجنين قد انتهت و يبتدىء يشعر بحاجات كان فى غنى عنها وهو فى رحم أمه كضرورة التنفس وحاجته الى الأكل والتدفئة و يعود نفسه احتمال الغوغاء والأنوار الساطعة التى تزعجه . ثم يدرك بأنه فى مواعيد أكله ونومه تحت رحمة النظام الذى ترتبه له والدته لا على حسب ارادته هو ، وان رغباته مع قلتها وسعي أهله فى قضائها لا يستطيع نيلها كلها

وكلما تقدمت به سنه كلما كثرت حاجاته وتقيدت حريته . فما كان يباح له فى السنة الاولى من حياته يحظر عليه فيما بعد ، ومن سنة الى سنة تزداد المحظورات التى مهما يقاومها فلا بد له فى النهاية من الرضوخ لمعظمها

محور العالم كما يراه الطفل هو « أنا » أى نفسه وذاته . ونفسيته الوحيدة هو أن يشبع نفسه من ملاذها و يقيها من الآلام والأوجاع . ففى نظره لا قيمة لقوانين الهيئة التى تحيط به ، و ينتظر أن تتكيف لكى توافق مزاجه . ولكن أوامر والديه ومربيه وسلطتهم عليه تمرنه تدريجياً على ملاحظة الحقيقة التى تخالف ذلك وهى أن سنة الكون تتطلب منه مراراً أن ينكر ذاته ويكبح بعض ملاذه و يتعود احتمال بعض الآلام .

هذا أمر لا يرغب فيه الطفل ولذلك تراه باستمرار يقاوم السلطة التى ترغمه على عمل يكرهه . وانما فى مقاومته يرى انه بازاء الذين حوله أصغر حجماً وأضعف قوة فيدرك حقيقة أخرى وهى عجزه — عجزه حتى عن الكلام الذى به يعبر عن نفسه

وهذا الشعور ، الشعور بالقلة والعجز (inferiority) يؤلم نفسية الطفل . ومن طبعه الغريزى أن يسعى وراء القوة التى تمكنه من غلبة من هم أكبر وأقوى منه . ولا يمضى عليه وقت طويل حتى يلاحظ أن البكاء والعويل وسيلة تمكنه من التعبير عن بعض حاجاته ، ويجوز أن يستعمله سلاحاً يرغم به أهله على العمل بموجب ارادته . ومن ثم يتمادى فى بكائه وعويله لينفذ رغباته و يقاوم أوامر والديه ، واولئك الذين ينزلون على ارادة الطفل اسكاتاً لبكائه يفعلون ذلك لمجرد شفقتهم عليه لكثرة بكائه

واذا لم يوفق الطفل فى تجربته الى أرغام أهله للنزول على ارادته اسكاتاً لبكائه وأتبع فى تربيته طريقة نظامية حازمة فانه بسهولة يتمكن من تكييف رغباته وطبائعه لكى تتناسب والظروف التى تحيط به .واذا استمرت هذه الخطة متبعة معه طول مدة طفولته فانها تربى فيه من صغره ملكة تكييف نفسه لتتناسب مع كل الظروف . ومن هذا تتولد الشجاعة وعدم تهيب المسؤولية والثقة بالنفس والاعتداد بالذات

أما اذا كان الطفل سيء الحظ واستطاع التسلط على والديه ببكائه فيتهاونون فى أخذه بالحزم لطفوليته . واذا كان الوالدان ممن يتصورون أن استعمال الحزم والشدة فى تنظيم حياة الطفل وتربيته ارهاق وتعذيب له ، و يعتقدون أن الطفل صغير لا يدرك

فلا يجدون داعياً للاهتمام بتربيته فى مثل هذا السن المبكر فانه ينشأ على فطرته ولا هم له إلا إشباع نفسه بملاذها وابعادها عن الآلام . فتنمو هذه الخصال معه ونرى آثارها السيئة فى شبابه ورجولته إذ تقف حجر عثرة فى سبيل نجاحه . ويحرم بذلك فرصة التمرين على تكييف نفسيته وملاذه لكى تناسب حالة الجو الذى يعيش فيه فينشأ قليل الثقة بنفسه وتنقصه قوة المثابرة على العمل

أما اذا أجبر الطفل على النضال ضد نفسيته الخاملة ووفق فى جعلها مناسبة للحقائق التى تواجهه فان النضال والمثابرة يصيران جزءاً من طبائعه ، وتتولد فيه عقيدة راسخة فى مقدرته . وهذه هى بذرة الثقة بالنفس وهذا هو ميعاد زرعها

قد أشرت الى شعور الطفل بعجزه وقلته (inferiority) عند مقارنته نفسه بمن حوله وتألمه من ذلك وسعيه للتخلص من تحكم والديه فيه ونجاحه أحياناً فى تسلطه عليهما بسلاح البكاء . وعند ما يكبر هذا الطفل يصبح قادراً على القيام بأعمال لا تغضب والديه فقط بل تكون مؤذية ومضرة مثل اتلاف أشياء ثمينة أو تعريض نفسه وغيره للاخطار . ويرى والديه أنه لا بد من منعه مراعين فى ذلك عدم اغضابه فيلجأون الى احدى وسيلتين ، إما اغراؤه بالوعود الخلابة أو اجباره بطريقة التخويف لينصاع لنصائحهم . فالاولى تكون بوعده بمكافأة حسنة اذا أطاع الامر وهذه وخيمة العاقبة لأنه كثيراً ما يكون الوالد غير جاد فى وعده بل للاغراء فقط وليس عنده نية الوفاء بما وعد . فهذه علاوة على انها تعلم الطفل أنه ليس مرغماً فى حياته على تأدية أى عمل الا اذا رغب فيه أو كوفىء عليه فانها أيضاً تنبهه الى أن والديه لا يبران بوعدهما له وبهذا يلاحظ فيهما الكذب فيخسران ما لهما عنده من كرامة وهيبة واحترام . والوسيلة الثانية وهى تخويفه بتسليط قوة جبارة لتعذيبه اذا هو لم يطع الامر ولزيادة ارهابه كثيراً ما تستعمل اسماء قوات خفية لا وجود لها كالبعبع والعفريت . والخوف هو سلاح ينصاع له الطفل مرغماً لشعوره بقلته وعجزه عن صد الأذى عن نفسه

ولكى نرى فى الفرد الشجاعة والثقة بالنفس التى تهيئه لمعاركة الحياة بنجاح علينا أن نخلصه فى طفولته من شعور القلة والعجز الذى يستولى عليه . أما التمادى فى تخويف الطفل لاخضاعه فهذا مما يولد فيه الرهبة ويثبت فى نفسيته الشعور بالعجز وهذا الشعور يلازمه طول حياته ويحمله دائماً على التراجع والتهيب والهرب من كل جديد ، ومن

كان هذا شأنه فهو لا يرى فى نفسه الكفاءة لمواجهة الحياة ولا المقدرة على حمل أعبائها .

أرجو المعذرة اذا أطلت عليكم الكلام فى شرح نظام تكوين أخلاق الفرد فأهميته لكشف الستار عن موطن الضعف الخلقى ومعرفة سبب وكيفية تكوينه التى بدونها لا نصل الى علاج مجد ، وعلاقته بموضوعى الليلة يضطرانى لذلك . ولتتمة هذا الشرح بقيت لى كلمة أقولها عن الشعور بالقلة والعجز فى الطفل وآثارها فى الرجولة .

الطفل فى بداءة حياته يعتمد اعتماداً كلياً على والديه و يخرج من هذه الحالة تدريجياً الى أن يكمل خلاصه منها ويتم له فى رجولته استقلاله وقوة اعتماده الكلى على نفسه اذا أحسن التصرف فى تربيته طفلا وحدثاً . والحالة بالعكس اذا كان الوالدان من ضعاف القلوب الذين يبالغون فى حماية طفلهم ويحوطونه بسياج من شدة الحرص فيمنعونه من محاولاته الكثيرة التى تتمثل فى نشاطه وحركته المستمرة ليختبر قوته . فتراهما يمنعانه منها خوفاً عليه من أن يصاب ببعض رضوض جسمية ثم فى حداثته يزيلان من طريقه أو يذللان له الصعاب التى تعترضه بدلا من أن يتركاه يواجهها و يعالج التغلب عليها ولو ببعض المساعدة . والأم فى معظم الاحيان هى التى تعمل هذا مدفوعة بشدة حنانها وكثرة محبتها غير عالمة بأن هذا النوع من المحبة والحنان هو ألد عدو له واكبر سبب فى إيذائه وعجزه فى رجولته ، إذ ينمى فيه الشعور بالقلة والعجز . وبذلك تحرمه فرصة التخلص منه فى صغره . وهذا الشعور وان كان لا يضعف الذكاء لكن تظهر آثاره السيئة فى ضعف الاخلاق

اليس ما يعيبنا به الاجنبى اتهامه المصرى بالخمول والكسل ونقص الشجاعة الادبية وقلة الصراحة ؟ ضعف الارادة والخوف والهرب من المسؤولية وعدم المثابرة على العمل والرغبة فى الانتقام ؟ فكرئيس يقال عنه انه محاب غير عادل — مرتش ومحب لذاته — تغلب عليه أنانيته فيضحى بمصلحة الغير والمصلحة العامة فى سبيل مصلحته الشخصية. واذا كان حازماً يكون شديد القسوة على مرؤوسيه بغير داع . وكمرؤوس يتهمونه بالتملق والكذب والحسد ويرمونه بكل النقائص .

وبعض هذه الصفات الممقوتة — كما اجتهدت أن أوضح الليلة — من آثار ونتائج اهمال تعويد نفسية الفرد على تكييف ذاتها لملاءمة حقائق الكون أو ارغامها على ذلك بطريقة التخويف . والبعض الآخر هو رد فعل للشعور بالقلة والعجز الذى اذا لم يستأصل فى الصغر يبقى مستولياً على النفس طول حياتها فيؤلم كبريائها

لا أقول أن هذه الصفات ليست فينا وانما اقرر حقيقة ثابتة اذا قلت انها توجد فى كل أمة مهما كانت عظمتها ورقيها وهى تتفاوت نسبياً بين الأمم. فانى وان كنت لا أنكر أن نسبة وجودها فينا هي اكثر مما فى الأمم الغربية الا انى أعتقد أن تفشيها عندنا ليس بالدرجة التى يبالغ بها بعض الاجانب المغرضين أو الذين يجهلوننا أو بعض المصريين الذين يقارنون أخلاقنا بأخلاق بعض الأمم العريقة فى المدنية التى كثيراً ما يجهلون حقيقتها. ثم يحكمون علينا حكما قاسياً — هؤلاء اكتفى بأن أقول لهم انه ليس من الانصاف أن تحكموا على الاحداث إذ ليست لهم حكمة الشيوخ وليس من العدل أن تقارنوا من تعرفونه جيداً بمن لا تعرفون منه الا ظاهره

وحيث أن للبيت الذى يربى الطفولة المنزلة الأولى فى تربية الأخلاق وهى المؤهلات التى نحتاجها وننشدها فدعنا الآن نبحث المنزل

لا أبالغ فى القول اذا قررت أنه لا توجد عندنا وحدة تقليدية يصح أن نطلق عليها « المنزل المصرى » ليؤدى لنا المعنى الذى نعنيه بقولنا « المنزل الانجليزى أو المنزل الفرنسى » بل حياتنا المنزلية والاجتماعية خليط غريب لا قياس له ولا وحدة فيه. فاذا أردت مثلا تعريف « المنزل المصرى » أرانى مضطرا لتعريف أنواع شتى تختلف تبعاً لرب البيت سواء كان فلاحاً أو متعلماً قروياً أو متحضراً. خريج جامعات انجترا أو فرنسا أو خريج مدارسنا الأولية. فكل من هؤلاء له مزاج يختلف تمام الأختلاف عما عداه من مواطنيه وكذلك يختلف نظره إلى ماهية المنزل وطريقة تنظيمه له اختلافا قلما تجد له مثيلا فى أمة أخرى. فوجود شكل محدود يدعى « المنزل المصرى » معدوم وان لانعدامه أسبابا طبيعية وتاريخية كما أن له اثاره السيئة

ما هو المنزل ؟ — المنزل هو بناء تسكنه العائلة جمع كثيرا من وسائل الراحة والتسلية وحوى الترغيبات التى تجذب أفرادها اليه فيقضون فيه أطول مدة ممكنة راغبين لا مرغبين ولطول عشرتهم بعضهم لبعض تتوطد بينهم أواصر المحبة والاحترام المتبادلة والناشئة عن فهمهم بعضهم البعض فهماً حقيقياً فتنشأ بينهم رابطة متينة تجعلهم أبداً يحنون إلى ذلك المنزل لما يحويه من ذكريات جميلة

هذه هى الفكرة الأساسية للمنزل والغرض الذى يبنى عليه وان هو اختلف فى شكله وفى تقاليده وكيفية العيش فيه باختلاف الأمم تبعاً لجو البلاد وذوق أهلها وطبائع شعوبها

واختلاف دياناتها . ولطبيعة أى بلاد تأثير كبير فى تكوين منزلها — فلو القينا مثلا نظرة على الممالك الشمالية التى يشتد فيها البرد والصقيع ويكثر فيها الأمطار والضباب مما يزيد حاجات الفرد ويجعل كسب العيش فيها عسيراً . نرى جلياً كيف أن طبيعتها القاسية تضطر أهلها إلى تحصين أنفسهم فى منازل محكمة تحميهم أذى التغييرات الجوية وترغمهم على المكث فيها معظم أوقات فراغهم ولهذا السبب يهتمون ببناء المنازل وتجميلها وتنظيمها ويبالغون فى اعدادها بكل وسائل الراحة . ويجتهد أفراد كل عائلة أن يفهم كل منهم الآخر ليستطيعوا أن يعيشوا معاً فى سلام ووئام

أما بلادنا فتختلف تمام الاختلاف عن ذلك فطبيعتها لم ترغم أهلها على تجمعهم فى مساكنهم حتى ينظموا لأنفسهم عيشة بيتية خاصة بهم يمكن تسميتها « المنزل المصرى » كما حدث فى البلاد الشمالية بل أن طبيعتها شجعتنا على عكس ذلك لأسباب كثيرة أخص منها بالذكر

(١) حرارة الجو فهى التى جعلت السكان يفضلون العيشة الخلوية وحملتهم على قضاء معظم أوقات فراغهم خارج مساكنهم وفى الفضاء حيث النسيم العليل والهواء البارد

(٢) سهولة أرض مصر ، وكونها بلداً زراعياً يروى بالفيضان الذى يغمر أرضها مدة طويلة من الزمن كل سنة حتم على سكانها بناء مساكنهم فى أراض مرتفعة اتقاء غمرها بالفيضان النيلى السنوى . ولقلة الأراضى المرتفعة ارتفاعا طبيعياً ولصعوبة رفع الأراضى المنخفضه بطريقة ردمها اجبر سكانها على تشييد مساكنهم فى مساحات صغيرة اقتصادا فى الأرض مكتفين بالحد الأدنى الضرورى وحتى الى ما دون الضرورى فى أحيان كثيرة ومن يلقى نظرة عامة على قرانا يرى النتيجة ظاهرة فى زحامها وتلاصق بيوتها الصغيره وعششها التى تشبه خلايا النحل

(٣) افتقار البلاد الى المواد الأولية للبناء كالخشب والأحجار

فهذه الأسباب الطبيعية وفقر الأهالى كانت فيما مضى حائلا كبيراً فى سبيل بنائهم منازل يمكن اعدادها بوسائل الراحة وصارفا لهم عن اهتمامهم بتنظيمها وتجميلها فخلت من وسائل الراحة وأدوات التسلية الكافية التى تجذب أفراد العائلة اليها

وبجانب الأسباب الطبيعية توجد أسباب تاريخية واقتصادية تعاونت معها وشجعت على انعدام المنزل المصرى أذكر منها

(١) العقيدة الدينية — فلسفة قدماء المصريين الدينية قللت جدا من اهتمامهم بالحياة

الدنيا وصرفت عنايتهم الى الحياة الآخرة ووجهت كل قوتهم إلى بناء قبورهم ومعابدهم لا إلى التفكير فى بناء منازلهم. حتى أننا إذا استثنينا حالة أو اثنتين لا نجد بين آثارهم الكثيرة المدهشة آثاراً لبيوتهم

(٢) الحالة الاقتصادية — المصريون كشعب لم يكونوا فى أى زمن من الأزمان أغنياء بل اذا استثنيت الملوك والأمراء والكهنة وبعض المقربين اليهم أيام الفراعنة يمكننى القول إنهم كانوا دائماً فقراء على رغم شهرة البلاد فى جميع العصور بثروتها العظيمة التى كانت بالأسف قاصرة على الحكام والمستعمرين

(٣) وقد يسألنى البعض عن تأثير المستعمرين فى بناء المنزل المصرى ومنهم من اهتموا بمنازلهم كالرومان مثلا فاننا نرى ما كان أقل اختلاطهم بالأهالى ما عدا العرب. والعرب كما تعلمون قوم رحل لا يهتمون كثيراً ببناء المنازل

أيها السادة: هل بعد ملاحظة اجتماع هذه العوامل الطبيعية والتاريخية والاقتصادية تدهشون لعدم وجود منزل مصرى. طقس حار يدفع الناس الى العيشة الخلوية — قلة وجود أراض صالحة لبناء المنازل. عدم توفر مواد البناء فى البلاد. فقر عظيم حال بينهم وبين استجلابها من الخارج. أليست كل هذه التأثيرات عوامل كافية تسبب انعدامه؟.

هذا ما كانت عليه حالة منزلنا الى عهد قريب وما زالت الى اليوم على ما كانت عليه عند السواد الأعظم. وانى ارجىء الكلام عن المنزل المصرى الجديد ريثما أتحدث اليكم عن تأثيرات هذه الحالة التى دامت آلاف السنين فى أخلاقنا.

من الطبيعى للرجل الذى يشتغل طول نهاره فى عمله أن يبحث فى نهايته عما يسليه ويروض نفسه. كما أنه من الطبيعى أيضاً أن المنزل الذى يحوى أحب الناس إلى نفسه يكون أول ما يتجه اليه فكره لتحقيق هذه الأمنية ولكن للاسباب التى ذكرتها وهى التى جعلت منزله خلواً من أسباب التسلية والراحة التى ينشدها أضطر الى البحث عنها خارج المنزل

ولما كانت واجبات المرأة من إعداد الطعام وحياكة الملابس وتربية الأطفال تحتم عليها المكث فى المنزل على رغم سوء حالته نشأت عادة مكث المرأة فى المنزل وخروج الرجل منه. وألف كل منهم هذه الحالة ونظموا اجتماعهم على هذا الأساس دون أن يلحظ الرجل أن فى تصرفه هذا أى شذوذ ولا ترى المرأة فيها غضاضة على نفسها — وعادة كهذه

دامت عشرات القرون ولها مبرراتها ليس من الغريب أن نراها ثابتة فى عقول الشعب ومتسلطة عليه وهذا هو الأساس الذى بنيت عليه حياتنا العائلية

الآن ابحث مدى تأثيرات هذه العادة السيئة فينا و يتناول بحثى العلاقات الآتية :

(١) علاقة الرجل بزوجته وعلاقة زوجته به

(٢) علاقة الوالدين بأبنائهم

(١) علاقة الرجل بزوجته وعلاقة زوجته به

لاحاجة لى أن أؤكد لكم انى فى كلامى لا أقصد أن كل عائلاتنا على النمط الذى اصفه وانما هو الشائع فى معظمها

الرجل الذى يصرف طول يومه فى عمله ومعظم أوقات فراغه يتسلى ويتسامر مع اخوانه خارج المنزل أو داخله بمعزل عن امرأته انما يقصر عيشته البيتية على نومه واكله. وعيشة هذا نظامها لا يتسنى معها للزوجين معاشرة بعضهم البعض الوقت الكافى ليفهم كل منهما الآخر فهماً يضمن لها السعادة الزوجية كما يكفل لهما التعاون على المعيشة كشريكين متساويين فى الحياة

بموجب هذا النظام تقيدت حرية المرأة وحجزت فى المنزل وتكونت فكرة الرجل عنها كزوجة الغرض منها أن تلد له اولاداً يحفظون اسمه وتقوم بخدمتهم وخدمته هو ايضاً ونظرت هى اليه كزوج وانه هو الرئيس المتسلط عليها ومعينها وعائلها

واذا كانت هذه هى نظرة الزوجين بعضهما الى بعض أتستغربون اذاً عند ما ترون النفع المادى مقياس الزواج عندنا ، فالرجل يكفيه أن يعرف عن المرأة انها غنية وعلى قسط من الجمال ويكفى اهلها أن يعرفوا عنه انه ينتمى الى عائلة تتناسب مع مركزهم

(٢) علاقة الوالدين بابنائهم

قلت فى أول موضوعى أن السنوات الأولى من حياة الطفل هى أهم سنى التربية وان المنزل هو المعهد الوحيد الذى يتعهده والآن أقول أن الأم هى التى تقوم بالقسط الأول والأوفر من هذه التربية

والأم المصرية التى يهملها زوجها جرياً على العادة التى أشرت اليها تشعر بانه ينقصها العطف الزوجى فتستعيض عنه بالعطف على طفلها ولذلك تبالغ فى حنانها وحرصها عليه وللدلالة على حبها له تنزل دائماً على ارادته التى كثيراً ما تنافى مصلحته

جاءتنى ذات مرة سيدة متعلمة ومعها طفلها الرضيع وبمعدته التهاب حاد فأشرت عليها بعدم ارضاعه شارحاً لها أن الرضاعة قد تسكن ألم المعدة نوعاً ما لسخونة اللبن ولكن فى الوقت نفسه تجهد المعدة المريضة فتزيد مرضها . وبعد يومين جاءتنى ثانية وحالة طفلها أسوأ مما كانت قبلا لاستمرارها على ارضاعه كلما بكى وكان جوابها لى على دهشتى ان قلبها الأموى لايحتمل سماع صراخ وعويل طفلها المستمر وأن ليس لها غلظة القلب الكافية لتنصاع لنصيحتى . وبعبارة أخرى فضلت ايذاءه على احتمالها عويله وبكاءه . وهذا واحد من كثير مما يحدث كل يوم بأشكال مختلفة من ايذاء الأم لطفلها لوقاية نفسها من الألم النفسانى متذرعة بالحنان الأموى . فالأم المصرية التى تتحمل كل ألم جسمانى وكل خسارة مادية فى سبيل ابنها كثيراً ما تضحى به عن غير معرفة وبغير عمد تفادياً مما يؤلمها نفسانياً . فصبرها على سهر الليالى الطويلة ومقدرتها على حرمانها نفسها كل لذة فى سبيل ابنها ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نزولها على ارادته التى هى فى الغالب ضارة به كى لا تراه يتألم وفى ألمه بالطبع ما يؤلمها انما يدل كما ترون على أن هذا الحب أو هذا العطف غير مجرد من حب الذات وأثرة الأم لأنها بتصرفها هذا تضحى بمصلحة ابنها لترحم نفسها من الألم النفسانى .

معذرة أيها السيدات والسادة لهذا القول الصريح فانى لا أقصد به اهانة الأمهات ولا الحط من كرامتهن . وانى أعرف جيداً أنهن لا يتعمدن الأساءة إلى أطفالهن فتصرفهن هذا هو من نظام العقل الساهى أو العقل الباطنى الذى لايدركه العقل الواعى . وقد تعمدت التصريح به على الرغم منى فكما فيه ايلام للنفس فيه أيضاً صلاحها وذلك للأسباب الآتية : —

(١) اذا أدركت المرأة المصرية التى اعتقد فيها النبل مقدار ما تجنيه على طفلها بهذا النوع من الحنان فانها لا شك تقلع عن هذه العادة وتعود نفسها على احتمال الآلام النفسية أيضاً

(٢) أن هذا النوع من الحنان والعطف يتعارض مع ما يجب من الحزم والنظام لغرس أخلاق قوية متينة فى الطفل

ما ذكرته الآن هو علاقة الأم بابنها كطفل وحدث وهى كما رأيتم مبنية الى حد ما على استعاضة عطف بعطف ومتأثرة بحب الذات أيضاً — وفيما يلى علاقتها به كشاب ورجل تؤكد لكم صدق هذه النظرية .

ترون دائماً أن الأم بحكم حنانها تحرص كل الحرص على أن يظل ابنها بجوارها حتى فى شبابه و رجولته وفى هذا ما يعوق تقدمه و يقلل من اقدامه . وترون كذلك أنها تجتهد ما أمكن فى تزويجه بجوارها لتحول دون استقلاله فى عيشته الزوجية . واذا رأت منه كثرة العطف على زوجته تكثر من لومه وتعنيفـــه بدافع الاثرة والغيرة وهذا كما لا يخفى يكدر صفاء العيشة الزوجية ويحول دون بناء البيت .

والآن أنتقل الى بحث علاقة الأب بابنه . . . الأب كما رأينا فى علاقته الزوجيـــة إكتسب احترامه باستعمال سلطانه لا بطريق تبادل المحبة والتفـاهم . وبنفس الوسيلة تراه يسعى لاكتساب محبة واحترام أولاده أيضاً .

وبهذه المناسبة أذكر لكم قصة قروى سمعته ينصح اخوانه بأن أحسن وسيلة يكتسب بها الأب احترام أولاده هو أن ينشئهم دون أن يكثر من رؤيتهم والأم الحكيمة هى التى تطعمهم مساء وترسلهم الى فراشهم قبل رجوع الأب من عمله وبهذه الطريقة يكبرون متهيبين ذلك الوالد اذا لم يعاشروه طويلا .

وهذه القصة تدل على نوع التربية المبنى على الارهاب الذى يلجأ اليه الآباء لكسب احترام أبنائهم ولهذا يحجزون على حريتهم ويرغمونهم على الطاعة العميـاء دون ابداء آرائهم حرة طليقـة فى حضرتهم . وبهـذا يحرم الآباء من الاحترام الحقيقي الذى ينشأ عن تبادل المحبة والتفاهم والاحترام المبنى على الرغبة لا الرهبة .

الحزم غير القسـوة وكثيرون من الآباء يخطئون الفرق بينهما فيستعملون القسـوة عوضاً عن الحزم . . . والحزم مطلوب فى التربيـة لأنه ينشىء أخلاقاً متينة صلبـة و يولد هيبة واحتراماً بخلاف القسوة التى تبث روح الرهبة والخوف .

والحزم والنظام لا يتوفران فى منزل فيه الأم تكثر من العطف والحنان والأب يتشدد ويقسو فيه . الأب يحظر أشياء والأم تبيحها . فيه الوالدان كالشريكين المخالفين لكل منهما طريقة فى التربية تخالف الآخر مما يخلق فى الطفل صفة التردد .

جو كهذا خال من الحزم والنظام فى التربية يحول بلا شك دون تعويد الطفل على التوفيق بين مزاجه وحقائق الكون ويعوق تخلصه من شعور القلة والعجز .

أرانى أسهبت فى وصف المنزل المصرى القديم وما اجتمع فيه من عوامل سيئة لا يزال بعضها قائماً فى المنزل الجديد الذى أتكلم عنه الآن .

المنزل المصرى الجديد

رأى الشعب المصرى فى نهوضه الحديث أن حالة منزله لا تتمشى مع رغباته ولا تصل به الى ما تتوق اليه نفسه الكبيرة فمن عهد قريب جداً فكر فى تغييره وتنظيمه على اساس يوافق هذه الروح الجديدة محاولا أن يتخلص من الموانع الكثيرة التى أسلفت ذكرها وغيرها مما اذكر بعضها الآن .

سكان المدن وذوو اليسار من أهل القرى بدأوا بتشييد منازلهم هندسياً ومعمارياً فأتموها كما هو ظاهر للعيان على أجمل شكل شائق . ولكن داخلية المنزل الذى يتحتم فى أعداده تعاون المرأة والرجل لا يزال ينقصه الشكل الذى يؤهله لأن يؤدى الغرض المطلوب منه لما بينهما من فوارق وللتأثيرات الموروثة التى ما زالت متسلطة . والآن أحاول أن أبحث مدى تأثير كل منهما على حدة ، مبتدئاً بالمرأة لأن لها القسط الأوفر فى ذلك .

البنت المصرية أهمل تعليمها الى زمن قريب جداً بخلاف الولد الذى سبقها فى ذلك بسنين عديدة . ومما يؤسف له جداً أن تعليمها ابتدأ وهو باق فى معظم الحالات على منهج وبروجرام يختلف تمام الاختلاف عن منهج تعليم الولد .

مع اعتقادى فساد خطة التعليم عندنا . ارى انه ليس لهذا أثر كبير فى تقليل اعتزاز النشء بقوميته ولا تحقيرها فى عينيه بخلاف ما هو متبع فى طريقة تعليم البنت فى مدارس أجنبية مما اصف أثاره فيها الآن .

تبذل الأمم اهتمامها ببث روح العظمة القومية بتعليم النشء لغة البلاد وآدابها وتاريخها المجيد ليترك فى نفوسهم أحسن الأثر يلازمهم طول حياتهم ويكسب اجتماعهم صبغة قومية . ولكن معظم المدارس الأجنبية التى نأتمنها على تربية بناتنا تسىء الينا جداً باهمالها تعليمهن هذه المواد . ولست فى هذا منكراً جميلها ولكننى أقرر الواقع الذى ينبغى أن يصلح

فمعظم هذه المدارس تعلم بناتنا لغة وتاريخ دولة أجنبية ، مهملة كل الاهمال لغة وتاريخ بلادنا . وتربية كهذه يضاف اليها بعض القشور من العلم يبث فى البنت روح التعاظم والازدراء لقوميتها ويكون حائلا بينها وبين البيئة التى نشأت فيها . ويترتب على هذا شعورها بأنها من قومية أضعف وأقل شأناً من قومية المدارس التى تعلمت فيها مما يؤلم عزة نفسها . وفى اعتقادى ان هذا من الأسباب المهمة التى تدفعها للمبالغة فى اهتمامها بالظواهر . . . فلكى تحمى نفسها من هذا الالم العميق الصامت تراها تسرف فى لباسها وفى تجميل ماهو ظاهر للغريب من منزلها . كأنها بذلك تقول لمن تخاف أن ينظر اليها نظرة ازدراء انها لا تقل عنه شأناً .

فترى غرف الاستقبال مثلا ، وغرف الطعام وكل ما هو معد فى المنزل للاضافة يجهز بأجمل الأثاث لينال اعجاب الضيف لا لراحة أهل المنزل التى يجب أن تكون الغرض الاساسى والاولى . . . وللظهور بهذا المظهر تراهم يحرمون أنفسهم وأطفالهم التمتع بها فيزدحمون فى أصغر غرف المنزل وأقلها راحة وجمالا كما هو مشاهد فى معظم البيوت .

فالتربية المنزلية كما أبنت لكم تشعر البنت بالقلة والعجز ، والمدارس الاجنبية التى تستطيع تقليل هذا الشعور أو تخليصها منه نرى معظمها يزيده تأكيداً فى نفسها بتلقينها ما يثير اعجابها بما عليه النساء الأخر من التفوق عليها ، وما لهن من تاريخ مجيد يضاف اليه جهلها بتاريخ بلادنا وما فيه من مجد . كل ذلك يجعلها تتصور انها من سلالة حقيرة وجنس ضعيف . . . مع أن تعليمها تعليما عملياً يقنعها بمقدرتها على القيام بأعمال لها قيمتها ، مما يخلق فيها شعور اليقين بالمقدرة ويوطد فيها الثقة بالنفس ويزيل منها الشك فى كفايتها وصفة الضعف والتردد التى استولت عليها . . . وما أشد إيلام النفس لاحساسها بهذا الشعور ! — شعور القلة والعجز الذى نرى أن حب الظهور هو رد فعل له وأثر من آثاره يحاول به المرء اخفاءه حتى عن نفسه لو استطاع .

فالاهتمام بالظواهر هو فى الحقيقة نتيجة لما نلاقيه من الفشل لا سبب من أسبابه وهو أيضاً نراه متمثلا فى اجتماعنا عموماً كما هو فى حياتنا المنزلية . والاسراف فيه يحول دون التنبه الى الجوهر .

فهل بعد هذا نعجب لكثرة اختلاف منازلنا ؟ وقد نشأ كما رأيتم عن كثرة تقليدنا للظاهر من منازل الامم المختلفة .

وهل نلوم البنت المصرية على اندفاعها فى حب الظهور ؟ وهل ندهش لاسرافها فيه مع ما نعلم من عزة نفسها وكبريائها ؟ .

حقاً انى ألتمس لها العذر . وأقدر فيها تلك الرغبة وذلك الذكاء الذى دفعها الى انشاء منزل اجتهدت ما أمكنها فى تحسينه وتنظيمه وادخال أنواع السرور والتسلية فيه ليكون شائقاً يجذب اليه زوجها ويغريه بطول المكث فيه . وخلقها لنفسها مكانة محترمة أرغمت الرجل على منحها بعض المساواة به . . . . اذن يجب على ناقديها الذين لم يفهموها حق الفهم أن لا يتمادوا فى لومها بل أن يسعوا فى خلاصها من قيودها الثقيلة . وان ما لها من ذكاء وما فيها من رغبة لفيه كل الكفاية للنهوض بها الى مساواتها بخير نساء العالم .

الرجـــل

يجتهد الرجل مع الأسف الشديد أن يحمل المرأة تبعة انحطاط المنزل . فهو ينظر الى سعادة البيوت الأخرى هنا وفى البلاد الأجنبيـــة فيغبط أصحابها عليها ويتمناها لنفسه ، ولكن حبه لذاته وعدم رغبته فى التضحية ، التى بدونها لا يمكن الوصول الى معيشة منزلية سعيدة ، يمنعانه من التعاون مع زوجته على تحقيق هـذه الأمنية وتراه دائماً ينتحل لنفسه المعاذير لتبرير ما يلاقيه من خيبة ، محملا المرأة نتيجتها لتأخرها على ما يزعم . وهو بهـذا يريد نتيجة و يهرب من معاونتها على الوصول اليها .

نسمع كثيرين من الشبان ينددون بطريقة الزواج فى مصر قائلين انها غير مبنية على التعارف والتفاهم المتبادلين . ولكن عند ما تعرض لهم هذه الفرصة نراهم فى نزاع نفسانى شديد تتقاسمهم إرادة الارتباط بمن يرونها توافقهم فى مزاجهم وتعاونهم على الحياة . وإرادة الحرية فى أن يعيشوا عيشة الاستهتار والملاذ خارج المنزل منغمسين فى لذاتهم . وتراهم آخر الامر يفضلون الارادة الثانية لما فيها من حرية وحب المال والذات معاً . ومن هذا يتضح لنا أن الرغبة الحقيقية فى تكوين المنزل غير متأصلة فى نفوسهم ولذلك تراهم لا يعملون لها باخلاص حقيقى .

فى أوقات الفـــراغ

لو تحدثت الى المصرى عن أحسن وسيلة يقضى بها أوقات فراغه أجابك أحسن جواب لأنه ذكى ويجيد التفكير ولكنه يعجز عن تنفيذ فكرته إذ تعوزه المؤهلات الخلقية لتحقيقها . ولواستطاع أن يفعل كما يستطيع أن يفكر لأصبح خير رجال العالم .

واذا ذكرتم أن نوع تربيته تتركه ينشأ وفيه جزء كبير من نفسية الطفولة الأولى التى تسعى وراء اللذة فقط ، دون تعويده التضحية التى تمكنه من تنظيم حياته وتكييفها بما حولها من حقائق الكون ، وذكرتم أيضاً أن نوع هذه التربية يشعر بالضعف والعجز الذى فى فطرته ويزيد عليه التخويف والارهاب ، فلا تستغربون اذن وجود هـــذا النقص الذى تنميه فيه طبيعة بلاده الهادئة بجوها الجميل وتربتها الخصبة التى لا تجبره على الكفاح وطريقة تعليمه التى لا تساعده كثيراً على التخلص من هذا الشعور .

ومن كانت هذه نشأته فهل ينتظر منه الاطمئنان الى مقدرته والوثوق بكفايته والاقدام على العمل ؟ . كلا لا ينتظر منه الا الشك والتردد والاحجام ويترتب على ذلك اتكاله على غيره فلا يبذل كبير جهد فى طلب العيش وبالأحرى لا يشغل أوقات فراغه . بل يسعى فى تحصيلها فى لهو ولعب لا يتطلب منه مجهوداً ولا تضحية . . . . هذه نقائص يؤلم الشاب المصرى أن تؤثر عنه فيجتهد فى اخفائها حتى عن نفسه ويعمل على التوفيق بين نشأته ورغبته فيحاول أن يهرب ما استطاع مما يذكره بعجزه وضعفه حماية لكبريائه . . . فتراه دائماً يهرب من منزله الى القهوات والملاهى لتنسيه التفكير فى نفسه وأهل بيته منقطعاً عن كل عمل منتج فى أوقات فراغه خشية الهزيمة التى يتهيب منها والتى لم يعود نفسه الشجاعة الكافية لمواجهتها .

هذا ضعف فى خلقه يقضى النظام العقلى إخفاءه عما سواه حتى عن نفسه الواعية ابقاء على كرامته وعزة نفسه فتراه لاخفاء هذه الحقيقة المؤلمة يسرف فى كل شىء . . . فى فرحه وحزنه . فى مدحه وذمه . فى غيرته وانتقامه . فى قسوته وضعفه . وتراه يبالغ ما استطاع فى تجميل نفسه . وتنسيق هندامه .

ومما يزيد الاسف أن شغله الشاغل فى أوقات فراغه ينصرف دائماً الى انتقاد والديه ،

وأولى الأمر ، ورجال حكومته لعدم إعدادهم له ما يضمن نجاحه كما يريد و يشتهى . ويلقى الذنب عليهم لما صادفه من فشل . وهذه أيضاً طريقة للهرب من الحقيقة تدل على أنه لا يختلف فى رجولته عما كان عليه فى طفولته . ففى هذه كان كل اعتماده على والديه وفى تلك تراه معتمداً عليهما أو على من يقوم مقامهما من أولى الأمر .

العلاج

كنت أود أن أعدد حسنات الشباب المصرى التى ساعدته على النهوض بهذه السرعة الغريبة مما يدعو إلى الاعجاب ولكنى اقتصرت على تعديد نقائصه لأننى أريد إصلاحها ما استطعت كما أسلفت القول فى صدر مقالى هذا . وذكرت أيضاً ان هذه النقائص لا تخصنا دون سوانا بل هى عامة فى جميع الشعوب لأنها وليدة فطرة الطفولة .

وحيث ان الأمم العريقة فى المدنية تسعى لتخليص شعبها من مثل هذه النقائص بجميع الوسائل فنحن أحرى منها ببذل هذا السعى لأنها عندنا أكثر مما هى عندهم . وحاجتنا الى اصلاحها أشد من حاجتهم .

والآن يجب أن أقول كلمة عن علاج المشكلة الاجتماعية ذاكراً بايجاز ما أراه مفيداً وضرورياً : —

١) درس اخلاق الطفل لمعرفة أحسن طريقة مجدية لتربيته : هذا الموضوع الخطير طويل جداً ومتشعب الأطراف . فحبذا لو أنشئت جمعية تهتم له وتنشر عنه النصائح العملية للوالدين الذين يجهلونه تمام الجهل ليعملوا بموجبها فى تربية أطفالهم

٢) مساعدة الشباب على التخلص مما نشأ فيهم من عجز ونقص وذلك بأمرين أولا — إدخال التحسين اللازم فى منهج تعليمهم مما يؤدى هذا الغرض ثانياً — إنشاء جمعية تبحث مواطن الضعف التى تركتها تربيتهم الأولى فى أنفسهم لتصل الى إيجاد أحسن الوسائل للتغلب عليها ثم تذيع معلوماتها على الوالدين والمعلمين والمربين الذين لا يعرفون عنها شيئاً كثيراً كى يهتدوا بها فى تمكين الشبان من التغلب عليها

٣) تنظيم قانون للقهوات — وكلنا يعرف كثرة عددها عندنا وكم تغرى الرجال بالاعراض عن أعمالهم ومنازلهم . فلو أن قانوناً يحدد عددها لما رأيت هذه الكثرة من الرجال تلجأ اليها بل تراهم ينصرفون الى أعمالهم ويلجأون إلى منازلهم .

هذا الموضوع — جليل الخطر وهو أطول وأكثر تشعباً مما أطمع فى الالمام به والاحاطة بأطرافه وكل ما أطمع فيه أن أكون قد وفقت الى إثارة الاهتمام بهذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة .

حضرة الآنسة مى

الفن والادب فى حضارة مصر اليوم

لحضرة الآنسة مى

توطئـــة

ختم المرحوم الأستاذ كلمان هيار المستشرق الفرنسى ، كتابه فى تاريخ «الأدب العربى» (١٩١٢) بقائمة للصحف والمجلات التى صدرت خلال القرن التاسع عشر — ونقول عرضاً ان تلك القائمة لا تخلو من الخطأ فى نسبة بعض الصحف الى غير أصحابها وفى التاريخ الذى عينته لصدور صحف غيرها . ثم عقب على كتابه الهام بكلمة مجملة نقد فيها الأدب العربى كما كان قبل ثلاثين عاماً وأشار الى بعض ما ينتظر منه فى المستقبل . فقال فيما قال :

« عرضنا فى الصفحات السابقة صورة لآداب شغل ازدهارها ونضوجها وانحطاطها ثلاثة عشر قرناً ، منذ مطلع القرون الوسطى إلى يومنا هذا . ثم أنسنا فى الجذع القديم تجدداً بفعل الأفكار الحديثة وبفضل انتشارها ، ووجدنا أن طائفة من فروعه حملت أزهاراً — فضلا عن ذلك الغصن العارض الذى تطعم به ، أعنى الصحافة الدورية . فأى مستقبل يتهيأ لهذه الثقافة المتجددة ؟ أتجىء محض تقليد للعصور المدرسية (كلاسيك) أم اللغة ، وقد أرغمت على التحول والتطور لتترجم عن أفكار طريفة ، ستغنم من فنّ التعبيرات ما يحرك رواكد المستودع القديم باعثاً فيه نسمة الحياة ؟

« يخيل لأول وهلة ان أوساطاً للنشاط الأدبى كالقاهرة وبيروت ، لهى جديرة باخراج أدباء يتابعون الحركة التى بدأت على يد أسلافهم فى القرن التاسع عشر . . . وبأى الأدوار تقوم اللغة ؟ أتتحول وتنمو فتصبح أوفر وضوحاً وأقرب الى جماهير أنصاف المتعلمين المتخرجين من المدارس الابتدائية ؟

« الجواب لمن بحث هذا الموضوع لا يستطيع أن يكون إلا نفياً ، لأننا لا نلمح فى

قطر من الأقطار ما يشبه تلك الحركة التى تناولت اللغة التركية إبان الثلاثين عاماً الماضية فجردتها من بيانها العتيق . ما فتئت اللغة العربية غارقة فى الاستعارات القديمة وهى لا تستعمل بالتبع سوى جمهرة من التعبيرات التى لا يتأتى فهمها إلا لأهل الثقافة ... مما يحول دون اتصالها بالعامة لتحدثها بما يهمها من الشؤون . إن مقالة سياسية « تحترم نفسها » (كذا) لا يمكن أن تكتب بغير النثر المسجع . و بلاغتها التافهة العقيمة، ومرادفاتها الرامية الى محاكاة مقامات الحريرى إنما هى للقارىء المثقف أفكوهة ليس إلا...

« أما ما نود أن تأخذ به اللغة العربية فى المستقبل فهو جلاء التعبير و بساطة الأسلوب . فاذا جاء يوم يحقق هذه الأمنية استطعنا التنبؤ بعهد جميل للآداب العربية . . » اه

(١)

اللغة فى دور التطور

نقلت هذه الفقرات لأنها تقرير لما كان واقعاً فى ذلك الوقت . ولم يتفرد كاتبها بالنقد بل ساهمه فيه المستعربون من زملائه الأجانب وكان الألباء من أدبائنا أنفسهم أبعد إمعاناً فى تبيان العيوب . وقد تعمدت نقلها لأنها تعين حقبة من الزمن نذكرها فلا نخجل . ففى ما يوازى الوقت الذى شهد فيه الأستاذ هيار للغة التركية بالتقدم ، أى فى ثلاثين عاماً لا غير ، تفلتت العربية من كثير من الحشو واللغو والتلمظ والغلوّ البديعى والابهام الذى كان يشينها فى دور الجمود . وهذا تقدم يذكر فى نظر الباحث المنصف ، نظراً للوراثة اللغوية الباهظة التى ترهق أدباء هذه اللغة . فى ثلاثين عاماً تطورت عندنا أقلام ، ونضجت أقلام ، ونشأت أقلام فكان همها جميعاً أن تعمل كل بوسائلها وفى بابها لتخلق أدباً جديداً . والاعتزام أول مراتب النجاح . بيد أن النجاح فى نواح هامة من البيان جاز مرتبة الاعتزام الى دور الانتاج والتحقيق

ولما كان هذا البحث قاصراً على مصر قلت ان المقابلة ولو السطحية بين طائفة من المقالات نشرت إحداها قبل ثلاثين عاماً وتنشر الأخرى فى هذه الأيام — تلك المقابلة كافية ليتضح أن أول ما يسترعى الانتباه فى النشاط الفكرى الجديد هو أسلوب الكتابة . لقد تجردت اللغة فى كثير من الكتابات الحديثه ، مما كانت تخفى به افتقارها الى الفكر

الحى والعاطفة الحية . والسجع الذى كان أفكوهة للقارىء المثقف ، بات لبواقى الأطلال المنزوية التى يجب أن تجد فى البحث عنها لتهتدى اليها . . .

اول بواعث التطور

الثقافة الحديثة كانت أول بواعث هذا التطور . فهي التى نبهت الأدباء الى حالة العالم اليوم ، وعلى ضوئها رأوا ماضيهم المتنوّع العظمة ولمحوا مستقبلهم كيف يمكن أن يكون . وهى التى لفتتهم الى ممكناتهم وأفهمتهم أن لا وسيلة لاستغلال تلك الممكنات بغير النشاط والعمل . وهى التى قالت لهم ان الذى يكتفي بما هو فيه قد يكون مومياء نفيسة توحى الى العلماء الرغبة فى البحث والاستقصاء ، ولكنه لا يستطيع أن يزعم أنه العقل المولد والكائن الحى . وبالجملة كانت الثقافة الحديثة المقتبسة عن الغرب أول أدوات التعديل والاصلاح فى يد المستيقظين . واذا استيقظ امرؤ من سباته ظهر فى صوته وفى تعبيره ما ينم على يقظته من الفكر المنتظم والقول المنسجم والبيان المباشر مع إعراض عن اللغو والتفكك والغموض القمين بالذين يتكلمون فى نومهم . . . ان كلمة الحياة تختلف عن كلمة الموت

اللغـــة والصحافة

تجرد واندثار من الناحية الواحدة ، فى حين اللغة من الناحية الأخرى تزيد كل يوم رشاقة ومرونة وتوسعاً بما تضمه اليها من الكلمات والاسماء والتعبيرات المتطابقة وحاجتها. والصحافة التى كان الاستاذ هيار يتوسم فيها خيراً — قامت بنصيب وافر فى إحداث هذا الانقلاب . فقد تعددت الصحف وتعددت صفحاتها ، وتنوعت أبوابها وأغراضها فحفلت أعمدتها بالمباحث والموضوعات والآراء ، وانتظم تلقيها المتتابع لأخبار العالم وحوادثه العمرانية والسياسية والعلمية والفنية وغيرها سواء أبواسطة التلغرافات العمومية والخصوصية ، أم برسائل مراسليها من الخارج ، أم بما ترى نقله عن صحف الشعوب الأخرى من المفيد والمفكه معاً . فاضطرت إلى اقتباس المفردات الجديدة أو تعريبها أو ابتكارها فى كل عدد من أعدادها تقريباً . وكان لها بطبيعتها أن تذيع وتكرر ما تبتكر

وتعرب وتقتبس وتصوغ فجاءت الفائدة مزدوجة : إذ أن المستحدث من الالفاظ والتعبيرات صار فى متناول القارىء كل يوم ، إن هو أخطأه يوماً أو اسبوعاً أو عاماً تغلب عليه حتما فى النهاية فاحتل مكانه من تفكير القارىء ومن تعبيره . وتيسر كذلك لأهل الثقافة وعلماء اللغة مناقشة تلك الألفاظ والتعبيرات واستبدالها بخير منها فى معناها ، إذا استطاعوا . والمجلات الشهرية التى كانت قد مهدت لذلك ساعدت هى والكتب الجديدة فى تحقيق هذه الغاية . إلا أن القارىء هنا شأنه فى سائر البلدان ، لا يتفرغ للكتاب والمجلة الشهرية إلا إذا كان من الاختصاصيين أو من هواة الثقافة ، فى حين أن جميع الأيدى تتداول الصحيفة الاسبوعية و بخاصة الجريدة اليومية

والى الصحيفة اليومية يعود فضل تركيز اللغة فى مستوى من البيان يرضى الخاصة — الخاصة غير المتحذلقة — و يرفع إدراك العامة إلى أفق أوسع وأرقى . حتى ألف أحاديث الصحف ليس خريجو المدارس الابتدائية فحسب . بل ألفها حتى الجمهور الذى « يفك الحرف » فيفهم منها شيئاً وتغيب عنه أشياء ، ويذهب طبعاً فى اللحن والتكسير على هواه ، إلا انه على كل حال يحذق أهم ما تبغى الصحيفة إيصاله اليه من الأنباء والموحيات .

أثر الحركة القومية فى اللغة

وليس لمؤرخ منصف أن يغضى عن أثر الحركة القومية فى تقريب اللغة إلى أفهام العامة وفى إنالة الاسلوب الجديد بساطة وحياة . فالحركة القومية التى تلت الحرب الكبرى هزت فى مصر جميع النفوس ، وحفزت جميع القوى ، وجعلت الأمىّ كالمتعلم يتطلع الى مماشاة الحوادث فى سيرها ليكون دوماً على أهبة للاشتراك مع بنى وطنه فى إعلان العاطفة الوطنية وتأييد المطالب القومية . والكتاب كالزعماء الراغبين فى جمع القلوب حولهم ، كانوا يشعرون بوجوب التمشى على منهج لا يستعصى على أحد فيسبكون أقل ما يمكن من الافكار الجوهوية فى أقل ما يمكن من الالفاظ البسيطة والصيغ المؤثرة لتستقر فى الضمير العام بلا عناء فيتخذها الصغير والكبير أنشودة للحماسة والاخلاص. ومن ثم ، أى منذ الحركة القومية . نشأت تلك العادة التى ما زالت شائعة فى هذه الأيام، وهى اجتماع برابرة الدار الواحدة فى حلقة حول بواب الدار وأصحابه والمختلفين اليه ،

فيتولى أحدهم قراءة الجريدة والآخرون يصغون فى اهتمام وانتباه . ولا ينفض جمعهم الا بعد تبادل الآراء فى ما يسمعون ويقرؤون .

وقامت المعارضة السياسية والخلافات الحزبية بدور فعال فى تطور اللغة . لأن الأدباء والكتاب الذين اشتركوا بطبيعة الحال فى النضال السياسى اتخذوا صحف أحزابهم منبراً لدعايتهم ، وكلٌ يبغى التفوق على مناهضيه فى المناظرة اليومية التى لا تهادن ولا ترحم . ومضوا يلتمسون أساليب حية سريعة ملتهبة ، سخرت فيها البديهة الحاضرة وسعة الاطلاع وتنوع الحيلة وبراعة التعبير لاصابة المرمى . فتمخض كل ذلك عن بيان ليس هو ابن قرون وأجيال ، بل هو وليد يومه ومستوحى ساعته . وتلك المشاحنات الأليمة — على عديد مساوئها — كانت دافعة إلى تجنب الرواكد القديمة والاستسقاء من الينابيع الحية . وفى ذلك دليل آخر على انه فى الامكان دائماً استخراج الخير من الشر بوجه من الوجوه

من الجدل السياسى الى البحث الأدبى

قد يقال ان مثل هذه المشاحنات لا تمت الى الأدب بصلة . صحيح . ولكن الاستعارات الجامدة والمهلهلات القديمة كانت فى حاجة إلى هذه العاصفة الجبارة التى اكتسحت عجاجتها فى أعوام قلائل ما قد كان يقتضى لجرفه عمل جيل أو جيلين

وبعد ، فمن ذا الذى ينكر أن النفس الفردية أو القومية إذا هى استفزت من ناحية واحدة فلا تلبث عوامل اليقظة أن تتمشى إلى سائر أنحائها ؟

اولئك الكتاب الذين شغلوا بالنضال السياسى فى بادىء الأمر ، انتبهوا فوراً الى أن موضوعهم الرئيسى يرتبط بشتيت الموضوعات ، حتى السلبية فى الظاهر ، ارتباطاً وثيقاً . وبنفس الروح الحية التى كانت تملى مقالات المناقشة الحزبية أخذوا يعالجون الموضوعات الادبية والاجتماعية والفنية والفكرية مما يعلى المدارك ، ويفتق قوى الملاحظة ، ويصقل الفكر ويثقف الشخصية القومية من مختلف نواحيها . وتبدى لهم وللجمهور الذكى أن الكتابات التى كانت تعد بالأمس « خيالية » و « شعرية » إنما هى فى الواقع دلائل على يقظة نفسية بعيدة لا بدّ من الوصول اليها . فى حين أن ما كان يحسب « بلاغة » و « فصاحة » صار لا يحسن إلا للعرض فى متحف الآثار . . .

وافتقار مصر إلى شركات الطبع والنشر بحيث أن الكاتب عند ما يشرع فى تأليف كتاب عليه أن يفكر أيضاً فى كيفية طبعه على نفقته الخاصة ثم فى توزيع نسخه على المكاتب — هذه العقبة أيضاً كان لها أثرها فى تنويع موضوعات الصحافة ، لأن الاديب والكاتب وجد فى الصحيفة أضمن وسيلة لأذاعة فكره وترويجه دون خسارة مالية ودون عناء عقيم . وعليه فان وجهاً من اهم وجوه تطور اللغة وتطور الافكار بمصر تجده مدوناً فى الصحيفة اليومية والمجلة الشهرية خلال الاعوام الاخيرة . وأجزم بأنه فى هذه وتلك أظهر منه فى المؤلفات الحديثة — وان كان لهذه أهميتها الخطيرة وكان بعضها مجموعاً من مقالات ذات موضوعات متناسقة نشرت فى الصحف

صحيح ، ولكن ...

تقرير تطور اللغة هو تقرير للواقع ، ولكنه لا يعنى ان كل من حمل قلماً يكتب بالاسلوب الذى وصفت . بل يعنى ان خطوة حاسمة تمت فى هذا الباب وان الوقت ضمين باصلاح العيوب الباقية . إن أنصار القديم كثيرون جداً وهم على درجات : بعضهم يسيرون فى حركة التجديد بحذر ، وغيرهم يجارونها فى اعتدال ، ويرى آخرون فى هذا التجديد الانحطاط كله ولكانوا يندبون حظ اللغة العربية ويصنفون لها المراثى شعراً ونثراً لولا أنهم ، لحسن الحظ ، موجودون يجددون بلاغتها القديمة ببلاغتهم ويحرصون على اللهيب الدهرى منكرين كل وقود حديث لتغذيته ! وأسلوب المجددين ليس كله من طراز واحد ، ومنهم من لا يفوز بالتخلص من الاستعارة القديمة وان ابتكر هو استعارته فهى رجع لأصداء غير جديدة . إنما يتسم المجددون بالسرعة والرشاقة والحماسة والفكر الملىء وإحكام التعبير إجمالا . ويحرص أنصار القديم على هندسة الانشاء ومتانته ، وينسقون توازن الجمل وإيقاعها ويدققون فى معان وأعراض إضافية لا يتسع لها صبر المجددين ولا وقتهم . والمعارك القلمية التى تنشب الوقت بعد الوقت بين هؤلاء واولئك تأتى بالترتيب بعد المعارك الحزبية فى الشدة والعنف . ومن الغرور أن نزعم أن الاسلوب الجديد بلغ منتهى الكمال أو انه خلص من شوائب الجدة نفسها ، ولكن نزعة الكتاب حرية بالاعجاب

وعلام لا نقول ان كلا من الفريقين على حق فى الوجود وعلى حق أيضاً فى وجهة نظره ؟ فأنصار القديم — كأشباههم فى كل أمة وكل زمن — يخفرون تراث الماضى

واثقين من أن الأدب المستحدث لن يأتى بخير منه ولا بما يدانيه . وموقفهم لا يخلو من الفائدة للمجددين لأنه يحملهم على تمحيص نزعتهم وتهذيبها ، وقد يفيد فى إرهاف تلك النزعة وفى تعجلها أيضاً . وبخاصة لأنه لا يندر أن يستوحى المحافظون الافكار الحديثة التى يقاومونها . أما أنصار الجديد فهم الذين يضيفون إلى السجل القديم فصولا جديدة بلهجة جديدة ، وهم الذين يستأنفون تاريخ اللغة التى عبرت من قبل عدة أطوار خلال القرون الغابرة ، وفقاً لما كانت تتأثر به من ثقافة وتتصل به من حضارة . أترى أدب الاندلسيين هو هو أدب الأمويين بعينه ؟ أوَ لم يختلف أدب هؤلاء نفسهم حقبة بعد حقبة فى صفحة تاريخهم ؟

والى جانب أنصار القديم وأنصار الجديد طائفة من الكتاب والصحافيين والأدباء جمعت بين محاسن العهدين وهى فى الغالب تفوز بتحبيذ هؤلاء وأولئك — الا عندما يهاجمها فريق من ناحية اللغة وفريق آخر من ناحية الفكر . . .

(٢)

الأدب الحديث

ليست هى الألفاظ ولا الأسلوب ما يؤبه له فى مسألة اللغة الأدبية . للاسلوب قيمة فى نفسه من حيث هو صيغة فنية ، وما الألفاظ الا تفاصيل فى تلك الصيغة . ولكن الأهمية العظمى فى العقلية والنفسية التى تترجم عنها الالفاظ و يصورها الأسلوب . والعقلية والنفسية فى مصر الحديثة آخذتان فى التغير ، وما الأدب الجديد الا اعراب عنهما . فهو بجوهره قد شذ عن تعريف ابن خلدون القائل ان « المقصود منه (الادب) عند أهل اللسان ثمرته وهى الاجادة فى فنىّ المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم . . . » . الاجادة على أساليب العرب ومناحيهم ؟ هذا ما لا يريده الأدب الحديث لأن مثل هذه الاجادة تخلق الأديب الراوى والاديب المقلد ، لا الاديب المنتج المبدع . وليس هذا الاباء ليعنى الطعن فى أساليب العرب ومناحيهم . بل بالعكس ترى أن أدباء اليوم يعنون كل العناية بدراسة تاريخ الادب و بتحليل شخصيات قدماء الادباء والشعراء وبحث التأثيرات التى أحاطت بهم فى بيئتهم فأوحت اليهم . وقد صدرت كتب عدة فى هذا الباب ، وعولجت شخصيات الشعراء والناثرين وما زالت تعالج فى المحاضرات العامة

وفى مقالات الصحف اليومية وفصول المجلات الشهرية بدراية وحذق لم نعهدهما من قبل

ولكن الادباء يفهمون تلك الآثار على حقيقتها . يرونها حسنة فى ذاتها لتوافقها والوقت الذى كتبت فيه ، لتصويرها العصر الذى أوحاها ، لكونها قطعة حية من الفكر الذى أملاها والشخصية التى رسمت ذاتها فيها . أما اذا قام اليوم فرد يكتب بتلك اللهجة و ينتحل تلك العقلية فهو بذلك معلن عجزه عن مجاراة السلف فى استعداده للحياة التى هو ابنها ، وفى تلقى التأثيرات الخاصة المحيطة به لتكوين شخصيته وفقاً لعصره .

وقيمة هؤلاء الأدباء الجدد فى كونهم حقاً أبناء العصر الذى ولدوا فيه . وأى عصر مدهش هو ، يصطدم فيه حولهم الماضى الذى ما زال حياً فى بيئتهم ، بالحاضر القائم والمستقبل المهاجم . فى كل بلد من بلدان العالم إجفال من هذه المفاجئات العلمية والاجتماعية والفكرية العاملة على تكييف الأقوام تكييفاً لا يعلم أحد مداه ، مع أن تلك البلدان كان التطور فيها متتابعاً متسقاً جيلا بعد جيل . أما فى مصر فقد بلغ الاجفال أشده لاستيقاظ الجيل الجديد وقد باغتت فكره ثقافة مليئة زاخرة مكتسحة . فهو يدرك كل ما يخسره إن لم يأخذ بأسبابها ، ولكنه لا يستطيع أن يأخذ بالسرعة التى يبتغيها لأنه من الناحية الواحدة عليه أن يكافح جميع العقبات الداخلية والخارجية القائمة فى سبيله ، وهو من الناحية الأخرى لا يريد أن يفقد شخصيته فى انتحال الحضارة الغربية بحذافيرها. بل يريد أن يقتبس منها ما يوافق طبيعته وموقفه بين الشعوب ويريد أن «يمصر» ما يقتبسه قدر المستطاع . فلئن وجد الجيل الجديد فى يقظته شيئاً كثيراً من بهجة الحياة فهو يجد كذلك أن نصيبه من الحيرة والاضطراب والقلق المسؤولية اكبر . يشعر بالأجنحة تصطفق على كتفيه ولكنه يشعر بالقيود مثقلة يديه وقدميه . ومن مجموع هذه الادراكات والاحساسات تتكون شخصيته الأدبية الجديدة . وهى فوق ذلك شخصية ذات عزم وشجاعة وأقدام ، غير راضية عما هى فيه ، ساخطة من نتاجها الأدبى تشكو أبداً جمود الحركة الفكرية وترجعها إلى شتى الأسباب . وهذه الشكوى أدل ما تكون على ما يصطخب فى النفوس من عديد الرغبات والنزعات

وقد أقلع الأدب عن الموضوعات الكلامية وخاض ميدان الحياة القومية يكتشفها ويحللها و ينقدها مشيراً إلى وسائل التجديد والاصلاح فى الثقافة والتعليم والاجتماع والاقتصاد وتحرير المرأة وتحرير الرجل أيضاً . الأديب يشعر مع قومه ويتكلم عنهم ، يستوحيهم ويملى عليهم ، يأخذ منهم و يعطيهم ، يتلقى منهم صامتاً الفيض والخصب و يمدهم فى

كتاباته بالخصب والفيض . ينظر فى حاجتهم وألمهم وفرحهم وعيبهم وأملهم فيستلهم حبة قلبه وبمجموعة مطالعـــاته واختباراته ليدلهم على وسائل النهوض . إنه لأدب شائق متحمس حار غيور . وعندى ان بينا هذا المجهود يكون شخصية الأديب و يمكنه من استغلال قدرته وانمائها فهو كذلك يقود القارىء إلى استكشاف نفسه و يبعث فيه الشوق إلى استغلال قدرته الشخصية ، و يعينه على تكوين شخصيته الخاصـــة . وهكذا بفضل الأدب الجديد تتنوع الشخصيات فى المجموع ، بدلا من أن تكون كلها على غرار واحد شأنها فى الأمم التى هى فى حالة البداوة والفطرة . و يخيل الى أن هذه الخدمة هى من أهم ما يقوم به الأدب الحديث

(٣)

نظرة عجلى فى أقسام الأدب

الأدب الحديث فى جوهره أصح الآن فى مصر منـه فى كثير من البلدان الأخرى حيث شغلوا بمشاحنات لا طائل تحتها حول ما يسمونه المذاهب الأدبية . فلا رومنتيكية عندنا ، ولا رمزية ،ولا مستقبلية ، ولا غيرها . الخصومات تدور حول الجديد والقديم مما سبق ذكره ، و إن نشطت الخصومات فى التطرف تناولت موضوعاً طارئاً أسموه الأدب المستور والأدب المكشوف . وفى ما عـــدا ذلك فالنزعة العامة واحدة رغم التفاصيل الثانوية القليلة

الشعر والنثر

الأدب النثرى يسبق الأدب الشعرى بمراحل . ألصعوبة التجديد فى الشعر العربى ؟ لست أدرى . ولكنى أدرى أن كثيراً جداً من القصائد التى ننعتها كسلا أو مجاملة بالعصماء قد كان يمكن أن تنظم فى أى عصر من العصور الغـابرة . وما زالت قصـائد «المدح» شائعة عندنا . واذا استثنينا فئة صغـيرة من الشعراء المطبوعين الذين يستوحون موضوعات جديدة و يطلقونها فى نفس جديد ولو فى صيغة قديمة فى الغالب ــ فيمكننا أن نقول بأننا لا نلمح فى الشعر الحد الحاسم الجلى الذى نراه فى النثر . ولئن انضجت الحركة

القومية عدة مواهب شعرية فانها لم تخلق شاعراً واحداً تفرد بجبروته الفنى فأرسل الصيحة التى تغزو القلوب وتفتح النفوس فتحاً مبيناً .

فنحن فى هذا والشعوب الاخرى سواء ، لاننا لا نعرف شاعراً واحداً جباراً خلقته الحرب فى أية لغة من اللغات . بل القحط الشعرى يبدو فى كل مكان . وقد يكون هذا راجعاً الى روح العصر الذى نعيش فيه ، وقد يكون النثر الفنى صيغة أوفق لاختباراتنا الشعرية فى هذه الايام

وانما هناك ملاحظة لها أهميتها الاجتماعية ، وهى أن الشعراء يخاطبون المرأة فى قصائدهم بضمير المؤنث ، وقد كانوا من قبل يستعملون فى مخاطبتها الضمير المذكر . وقد أقلع كبار الشعراء عن الاساليب المألوفة فى المدح والمفاخرة ، ولكن قصائد الرثاء تجرى أنهاراً كلما غمض امرؤ عينيه ليمضى الى باريه . ولما كان الموت على رقاب العباد . . . !

أما النثر فهو الذى يبدو فيه الخصب والتنوع والثروة والحياة ، وخلاله ترتسم الشخصيات الادبية ، وهو الرسالة الادبية العالية التى تبدع ابداعاً فى هذا الطور الحاضر . ولا أظن أن اللغة العربية فى أى عصر من العصور السالفة عرفت مثل هذا التنوع الذى نشهده اليوم . فالموضوعات الادبية والسياسية والاجتماعية والقانونية والعلمية والتهذيبية والفنية والتاريخية شىء مألوف يقع تحت أنظارنا كل يوم ، ومنها ما يضاهى أحسن ما يكتب فى صحف الغرب دقة وإحكاماً فى رشاقة ولباقة . والمقالة تفوز بالجائزة — لو كان هناك مسابقة — بين سائر أقسام الادب . ويجارى فن المقالة فن الخطابة والمحاضرة فهو اليوم فى مصر أرقى ما يكون ، بل قد يبدو لك تدرجه عاماً بعد عام من حسن الى أحسن . ومن دواعى السرور أن المرأة أيضاً تعتلى المنبر وتخطب فى الجماهير الغفيرة فلا تكون أقل تأثيراً من أمهر الخطباء وأشهرهم ، حتى فى موضوعات عصية . والمسلمة والمسيحية فى هذا سواء . وهناك الكتب المترجمة والمؤلفات العديدة فى كل فن وخبر ، تبحث فى الاجتماع والتاريخ والادب والفلسفة والاخلاق والعلوم الفنية . وغيرها وصف جميل للرحلات والاسفار ووصف لعادات الشعوب واخلاقها ووسائل تقدمها ، وغيرها ذكريات شجية وترجمة عن حالات نفسية . وغيرها يبتكر أدباً للاطفال يستوحيه المؤلفون من قصص الشرق القديمة وأحاديث رحاليه ، أو يقتبسونه عن آداب الغرب

. . . والرواية كذلك تحصحص هنا وهناك ، ولكن فن الرواية يتطلب وقتاً آخر

للنضوج . لأن الرواية تخلق عالماً تاماً مستقلا فى ذاته له خصائصه وسيكولوجيته وجوه ونزعاته وفكرته الخاصة ووجوده المتصل بمحيطه المنفصل عنه فى آن واحد . فهو يتطلب من العزلة والسكون ما لا قبل لأدبائنا به فى هذا الوقت لانهما كهم فى عدة موضوعات فى آن واحد ، وعند ما ننظر الى كثرة ما ينهب وقتهم من المشاغل نعجب كيف استطاعوا أن يؤلفوا هذه الروايات على قلتها ونعجب من وفرة ماينتجون .

أما القصة الصغيرة فقد تقدمت بالعدد أختها الكبيرة . وقد قصر بعض الكتاب نشاطهم عليها فنجحوا خصوصاً فى القصة الوصفية وستليها حتما القصة السيكولوجية

ولا مندوحة عن أن يجاهد الأدباء فى وضع الرواية العصرية لوصف هذه العادات وتسجيل هذه التقاليد فى مجتمع هو سائر بطبيعة الحال نحو العادات الأوروبية . فالحجاب يتناثر شيء منه كل يوم ، ووجوده وحى كبير للاديب المستعد لتلقى هذا النوع من الوحى . وهذا الفن الروائى لو هو وجد بمصر يصبح فريداً فى بابه بين صنوف الروايات العصرية بسبب هذا لحجاب نفسه و بسبب جميع الحوادث السيكولوجية التى تخلقها فى النفس صعوبة اللقاء بين المحبين — ما دام الحب هو « الحبكة » التى لا تقوم لرواية قائمة بدونها ، مع ما يستفزه من خفايا الطوية و يعلنه من غامض الأسرار

كذلك نفتقر الى النقد و إن كان ما يكتب فى النقد غير قليل . ولكن أكثره إما يرمى إلى المجاملة والثناء واما يبغى الطعن والتحقير . و يندر جداً البحث النقدى النزيه الدال على تمام استيعاب الناقد لموضوعه وعلى اكتمال نضج شخصيته من نواح شتى . والغريب أن نفس الكتاب الذين يجيدون فى نقد كاتب غربى وتحليل شخصيته يكونون أقل اجادة و بخاصة أقل اصابة عندما يبحثون شخصية أدبية مصرية حديثة . وعندى أن الناقد البارع روائى على نوع ما ، وان الرواية والنقد ان هما تحاذيا اليوم فى تخلفهما فسيكونان كذلك متحاذيين فى تقدمهما . لأن الكثير من خصائص الناقد السيكولوجية هى نفس خصائص مؤلف الرواية

الأدب الشعبى أو أدب العامة

فى مصر أدب يجب أن لا يهمل ، هو أدب العامة الذى ندر من عنى به من الأدباء ، مع انه قادر على اخراج جنى خصيب طلى لو اهتم كل كاتب بحكايات مديريته واقليمه

فدوّن ما يتناشده الشعب الساذج فى حفلات الأعراس والمآتم ، وما ترويه الرواة عن أبطال القرون الغابرة . غير أن فرعاً من ذلك الأدب فى ازدهار ، أعنى الزجل ، الشعر العامى الجميل الذى يفصح عن الروح المصرية برشاقة وطلاوة وباللهجة المصرية لهجة التخاطب العادى والمحادثة اليومية . وقد تألفت حديثاً « رابطة الزجالين » قرب عدة جماعات أخرى أدبية وثقافية — أخذ الله بيدهم جميعاً !

ان لكل اقليم بيانه الأدبىّ المروى الذى يترجم عن الروح القديم فى أساطير وأناشيد باللغات العامية ، وحكايات تضمنت اعتقادات سرية مقبلة عن أعماق الدهور ، وذكريات حب وحنان وتضحية وتفجع ، ونفثات شعرية ذات سحر مستغرب حضان . ألحان الشعب وأساطيره وحكاياته تعبر عن خلقه المقيم وصبره واحتماله وتحدث عن عبقريته الفطرية وعن آماله وأحلامه . ومن الخسارة الفادحة أن تهمل تلك الآثار وتلك الألحان لأنها صائرة شيئاً فشيئاً الى النسيان والفناء

(٤)

الفن

الأدب النثرى أرقى الفنون جميعاً وأنضجها وان كان بعض الفنون أوسع رواجاً فى الجمهور وأقرب الى تذوق العامة . وهاك ترتيب الفنون بموجب رقيها وتقدمها :

١ — التمثيل ، ٢ — النحت والرسم والتصوير ، ٣ — الموسيقى

التمثيل

هذا أظهر الفنون فى مصر تقدماً . وقد برزت فيه شخصيات موهوبة عرفت أن تكسب الأدوار التى تمثلها روعة وتنوعاً واستطاعت أن تبعث فيها نفحة حيوية غنية .

والتمثيل يرتبط بالأدب و بالتأليف المسرحى و بالحركة الفكرية والاجتماعية و بتطور اللغة . فنطق الممثلين والممثلات فصيح بالاجمال ، وأوضاعهم المسرحية فى تقدم محسوس . وقد ترجمت الى العربية روايات من غرر الأدب المسرحى فى العالم فجاء بعضها متطابقاً

والأصل الذى نقلت عنه ، و « مصر » غيرها تمصيراً ليتفق وذوق الجمهور ، ومسخ غيرها مسخاً . وقد عنى جماعة من المؤلفين بوضع روايات باللغة العربية فنجح بعضها نجاحاً عظيما ، وكان للمرحوم شوقى بك الفضل فى استيحياء موضوعات قديمة من تاريخ مصر وتاريخ العرب وصوغها فى روايات مسرحية شعرية ونثرية . ويمكن القول ان التأليف المسرحى الآن فى حالة التكون . والنقاد المسرحيون أبرع فى ملاحظاتهم وانتقاداتهم من نقاد الكتب الحديثة .

وقام فى الأعوام الأخيرة التمثيل السينمائى يسابق التمثيل المسرحى وهم الممثلون فى المسرح الذين يسابقون أنفسهم على الشاشة الفضية : فما أشق هذه الجهود وما أكبر هذا الاقدام ! وهم يعنون فى ادخال آثار مصر الفرعونية أو آثار الاسلام بمصر وغيرها — فى كل رواية سينمية تقريباً وصف العادات والتقاليد خلال تلك المناظر المتعاقبة ، ولكن الى الآن لم نر رواية واحدة مستكملة النضج السيكولوجى والفنى . بيد أنه يمكن البت فى أن التمثيل السينمى المصرى لن يقف عند هذا الحد

النحت والرسم والتصوير

باستثناء فرائد فنية وموسيقية سبقت التقدم المسرحي من حيث كمال الصنعة ونضوج الفكرة — يمكن ترتيب المنتوجات فى هذه الفنون الثلاثة بعد الفن المسرحى وقبل الفن الموسيقي . فى المعارض السنوية الرسمية كما فى المعارض الجزئية العديدة تستطيع أن تهتدى الى شخصيات فنية هى على ثقة من وحيها ومن مقدرتها فى اتقان الصنعة معاً ، فترى أنها تتقدم عاماً بعد عام فى احكام الصلة بين وحيها وبين افصاحها عنه

وعدد المشتغلين بهذه الفنون كل سنة فى تزايد وليس التقدم ليبدو فى الكمية وحدها بل فى الكيفية أيضاً . يشهد بذلك الذين زاروا أول معرض أقيم من هذا النوع قبل ١٤ عاماً ، فهم يزورون معارض اليوم فيسبحون الله ولا يبطرون ! ولئن كان الفن الى الآن يستوحى الصناعة الأوربية والفكرة الأوربية فالفنانون يميلون الى اخراج موضوعات مصرية . وعلام لا تنطق يوماً الوراثة القديمة الكامنة فى فنانى هذه البلاد فيبتكرون فناً حديثاً هو غير فن الغرب ؟

الموسيقى

الموسيقي الوترية أرقى من الموسيقى الصوتية . فمن العازفين من يعزف بفطرته الموسيقية و بسليقته الطروبة . ومنهم من يتبع الأساليب الحديثة التى روّجها نادى الموسيقى الشرقى من ضبط الألحان بالنوتة وتوقيعها على أصول الثقافة الموسيقية فى الغرب ، وهو تجديد لم يعهد من قبل فى تعليم الموسيقى العربية

ويتسنى لك أن تسمع من بعض « التخوت » أو جوقات الموسيقى الوترية أو من أفراد الضاربين على مختلف الآلات — عزفاً هو فى منتهى الجودة والاتقان . لولا أن مجموعة الالحان تستمر غالباً على وتيرة واحدة ، وليس من الميسور أن تميز الفرق بين القطعة وأختها ، فكلهن يتشابهن فيما بينهن مما يثير الملل عند الملم بالموسيقى الغربية الذى ألف فيها التنوع والتفنن والتلوين الى مدى لا يحد

أما أقرب الفنون الى الجمهور الكبير من مختلف المراتب فهو الموسيقى الصوتية ، والناس على اجتماعات الطرب والانشاد أشد اقبالا منهم على أية حفلة فنية أخرى ، ويرون فى الحفلات والسهرات نقصاً وجفافاً إن لم يشجها الغناء و يلقى فى جوها عاطفة الشجن الشرقىّ التى لا توصف . وانما ترتكن الموسيقى الغنائية فى مصر على صوت المغنى اكثر من ارتكانها على فن الغناء . وهنا أصوات جميلة حنونة مؤثرة ، إلا ان أحسن ما تنشده فى نظرى هو الادوار القديمة بألحانها القديمة بما فيها المواويل والقصائد الغزلية . واكثر ما يسمونه « تجديداً » فى الغناء خير له أن لا يكون . لأن بعضه مقتبس عن الموسيقى الغربية التى لا تعتبر من الفن فى شىء بل هى من النوع التافه (musiquette) ، والبعض الآخر تطويل وتباطؤ و إعادة وتكرار . ما زالوا يمدون فى الآهات وقتاً طويلا جداً ويعيدون « يا ليلى يا عينى » فى تبسط وتراخ يستحيل معه الصبر لأعصاب تنظمت للطرب المحكم . بيد أن الجمهور يحب ذلك التطويل المخدر للاعصاب و يستلذه ، والمنشدون يماشون ذوق الجمهور ولكنهم لا يثقفون فيه العاطفة الفنية ولا مقدرة لهم على ازدجار تلك العاطفة وانهاضها من تثاقلها الدهرى . وعلى ذلك ما زال العاشق فى الأغانى يسهر الليل مناجياً النجوم بموضوع حسرته وجواه ،

وما زال قلبه يذوب وروحه تكتوى بنار الغرام والمحبوب ــ ما أقساه ! ــ لا يرحم المتيم المسكين ! والعذول ــ لحاه الله ! ــ ما زال واقفاً بالمرصاد يريد الايقاع بالعاشقين !

والمغنون يحملون نفوسهم فوق طاقتها لأن كلا منهم يأبى الا ان يكون منشداً وملحناً فى آن واحد ، وهو أمر لا يتفق مع قانون تقسيم العمل ولا مع الموهبة الفنية . فالانشاد شىء والتلحين شىء آخر ، وقد يكون الملحن صاحب صوت غير حسن وغير قابل للتوقيع المطرب . ولم يشذ عن هذه القاعدة من كبار الموسيقيين فى الغرب الا النفر اليسير

ولكن ما لا ينكر هو الجهود العظيمة التى يبذلها أهل الفن . وان لم يبد الى الآن شىء يصح أن يسمى تجديداً بمعنى التقدم فى نظر الناقد الخبير فذلك راجع الى صعوبة هذا التجديد فى موسيقى لا قائمة لها الا بالنغم فقط ولا تقبل طبيعتها التطرق إلى فن اصطحاب الأنغام الذى قطعت فيه موسيقى الغرب شأواً بعيداً . ومهما ضاعفت الآلات فى الاركسترة أو ضاعفت الأصوات فى النشيد فأنت لا تكون الا مقوياً النغم الواحد ومفخمه . وهذا مشكل كبير لا حلّ له إلا بتنويع النغم تنويعاً بارعاً ينزع عنه مايرافقه عادة من التراخى والملل على أن يبقى له النكهة الساحرة ذات العوارض الخفية الدقيقة التى تحتفظ للموسيقى الشرقية بطبيعتها الخاصة . ثم يجب الاكثار من الأناشيد الحماسية فى موضوعات مشوقة تستولى على قلب الجمهور وتعلمه التجاوز عن الموضوعات الغرامية الكثيرة إلى ما لا صلة له بالعشق والغرام والدلال والنوح

الخلاصة

الخلاصة ان الحركة الأدبية والفنية فى مصر شىء ذو وجود محسوس ، فى بعض نواحيه تقدم وفى بعض نواحيه تأخر وهو فى نواحيه الأخرى بين بين . غير أن النشاط لا يمكن إنكاره .

والصورة التى رسمتها هنا مطابقة للواقع فى تقديرى وأنا لم أعتبر فى الأدب والفن الا كونهما تعبير عن الروح الجديدة الناجمة عن اليقظة القومية ، هذا التعبير الفنى والأدبى الذى هو من أدل الدلائل على ثقافة قوم وحضارتهم وعلى مبلغ ما اكتمل من تكوّن مجتمعهم . والفن والأدب يدلان على أن المجتمع الجديد هو فعلا فى حالة التكون . وهذه

الحركة سائرة الى الامام بلا ريب بفضل انتشار التعليم وتنوع الشخصيات والاحتكاك المتتابع بالحضارة الغربية والاشتراك اقتصادياً وفنياً وأدبياً وسياسياً وعلمياً فى جميع المشاكل الطارئة على العالم

عند ما نقول قديم يفهم من هذه الكلمة عهد الفراعنة ثم عهد الاسلام ، وعند ما نقول جديد يفهم الحضارة الغربية بوجه عام . ولكنّ الموضوع فى نظرى أبعد مدى واكثر ارتباكا . إذ ليس من بلد كمصر هبطته جميع الشعوب وضربت فيه جميع الحضارات وانتشرت فيه جميع الثقافات واختلطت دماؤه بجميع الدماء . فمن العناصر الفرعونية الى العناصر المكدونية إلى اللاتينية فالاغريقية ، فالعربية بتنوعها العديد ، فالتركية وما كان ينضم تحت لوائها من العناصر العثمانية الكثيرة ، إلى عناصر أوربا الجديدة كلها تقريباً إلى غير ذلك مما يحصى ولا يحصى — جميع هذه العناصر تتمخض الآن وتصهر فى الشخصية المصرية الكبرى . والمصريون الذين زاوجوا خلال تاريخهم الطويل شتى الشعوب ، ما زالوا اليوم يزاوجون الشعوب الغربية وهذا الأمر — على ما يستوجبه من الانتقاد فى بعض الوجوه — يصب الدماء الشتيتة فى دم هذا البلد القديم . فهنا العالم كله فى حالة « التمصر » . وقد عرف دائماً لمصر السحر فى تحويل ما يقبل عليها الى جزء منها دون أن تفقد فيه شخصيتها الصحيحة . وفى هذه الثروة الذاخرة من الوجهة الأدبية والحسية معاً ما يمكن من تكوين شخصية رحبة الجوانب ، متعددة النواحى ، غنية نبيلة لا نبالغ فى القول انها تستطيع أن تنتج نوعاً خاصاً من الثقافة تقف حيال الثقافة العالمية فلا تتضاءل

وترجمان هذه الثقافة المرجوة هو اللغة العربية . ويخطىء الذى يتطلب التجديد فى هذه اللغة إن هو أراد منها أن تصبح نسخة من أى اللغات الغربية . إن هذه اللغة تمثل عقلية خاصة فى وسعها أن تحاذى العقليات الغربية وتتفاهم واياها وتأخذ منها وتعطيها ، ولكنها ليست هى ولا يمكن أن تكون . لأنها — وفى هذا أهميتها — مظهر آخر من الحضارة العمرانية وناحية أخرى من النفسية الانسانية

الدين وأثره فى حضارة مصر الحديثة

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ على عبد الرازق

ليس فى الدنيا حضارة نعرفها قامت دون أن يكون للدين فيها شأن كبير أو صغير ، ولا أمة عاشت دون أن يكون لها نوع ما من الدين أيضاً

والحضارة المصرية بنوع خاص تقوم منـــذ العصور الأولى على الدين وتتصل به اتصالا وثيقاً بل أن بعض الباحثين الحديثين فى تاريخ الأديان يميل إلى ان مصر هى مصدر النظام الدينى فى العالم . والأمة المصرية بنوع خاص أمة دينة منذ عرفها التاريخ . فقد تحدث هيرودوت عن المصريين وذكر أنهم يتميزون بأنهم أمة دينة

ولعل تلك الخلة التى عرفها هيرودوت للمصريين قديماً لاتزال فيهم الى اليوم ولا يزال المصريون كما كانوا أمة دينة . ولعل الحضارة المصرية الحديثة لا تزال تقوم كالحضارة القديمة على الدين وتتصل به اتصالا وثيقاً . والفرق الوحيد أن دين الحضارة المصرية القديمة كان دين ميثولوجيا وأساطير . أما الحضارة المصرية الحديثة فدينها الاسلام

والاسلام هو دين مصر وركن حضارتها منذ فجر الاسلام ، لم تتردد مصر فى قبوله ولم تتخذ بدله ديناً .

من أجل ذلك يكون لا بد للباحث فى حضارة مصر الحديثة من درس العنصر الدينى فيها ، إذ هو أقدم العناصر فى تاريخ مصر وأهمها ، ويكون الباحث فى حضارة مصر الحديثة باحثاً بالضرورة عن حضارة مصرية اسلامية

ربما كانت الحضارة المصرية الحديثة متصلة بالحضارة المصرية القديمة ودينها الى حد ما و بالحضارة الأوربية الحديثة ودينها كذلك ، وربما تكون متأثرة بأديان ومبادىء أخرى ولكنها على كل حال ترجع فى آخر امرها اسلامية وتخاص مصرية لا ينبغى أن تكون إلا كذلك ولا أن تعتبر الا أنها حضارة مصرية اسلامية

ولسنا نريد فيما نتولى من البحث أن نعرض الا لما يخص جانب الحضارة المصرية من وجهة النظر الاسلامية ، فاما وجهة نظر الأديان الأخرى فغيرنا أقدر على بحثها وأولى به

والذى نقصد اليه من درس الحياة الدينية فى مصر يقع فى ثلاثة مباحث

١ — هل الحياة الدينية تتغير فى مصر وتتطور أم لا .

٢ — واذا كانت تتطور وتتغير فما هى الأسباب التى تؤثر فى ذلك

٣ — ما هى طبيعة هذه التغيرات ومدى أثرها ومقدار خطرها

(١) اما أن الحياة الدينية فى مصر قد اصيبت بتغير كثير فى أغلب نواحيها فذلك ما لا مساغ للشك فيه . واذا نظرنا الى حالة المدن الكبرى فى مصر لبحث الحياة الدينية فيها وجدنا مظاهر التغير واضحة ، ووجدنا فرقا واسعاً بين المناهج الدينية وانظمة الحياة فى جيلنا الحاضر وجيلنا الماضى القريب .

كان آباؤنا منذ ثلاثين عاماً أو نحوها يعتبرون الجلوس فى القهوات شيئاً لا يليق بالكرامة ولا يناسب الوقار الدينى ، وكان شيوخ الأزهر الى عصر قريب يبثون العيون رصداً ليقبضوا على كل طالب يجلس فى القهوة و يقدموه للعقاب ولقد عرفت من آبائنا من كانوا يتعففون حتى عن غشيان الفنادق وان كانت محترمة ، ويعدون ذلك عملا يزرى بالمروءة ، كما نعتبر نحن الجلوس فى الخمارة مثلا عملا يزرى بالمروءة وسمعتهم وهم اذا ذكروا أوتيل شبرد وهو الذى تعرفون فخامة ورقياً قالوا عنه خمارة شبت . وكانت التياترات فى نظرهم مفسدة لا يغشاها الا أرباب الخلق المريب ولا يشتغل فيها الا ذوو المقام الوضيع . ومن أجل ذلك وضعوا من قدر المرحوم الشيخ سلامه حجازى وأخملوا ذكره ، وكذلك فعلوا مع أهل الموسيقى والغناء أمثال عبده الحمولى والشيخ يوسف المنيلاوى

أما الرقص فقد كان اثمه عندهم أكبر من كل خطيئة . لذلك كانوا يجنبون مجالسهم أن يذكر فيها اسمه و يصونون ألسنتهم عن أن تجرى بذكره

أولئك هم الآباء . أما الابناء فامرهم غنى عن البيان . وسائلوا بهم ان شئتم دور السينما والتياترات وصالات الرقص والغناء . أوسائلوا بهم قهاوى الازبكية وعماد الدين

أو سائلوا بهم حافظ بك ابراهيم اذ يقول :

أنى الازبكية مثوى البنين و بين المساجد مثوى الأب

تلك حال تصدق على الحياة الدينية فى مدائن القطر الكبرى كمصر والاسكندرية . ولكن الباحث يخطىء كثيراً اذا هو وقف ببحثه عند النظر الى هذه المظاهر التى يجدها

فى الأمصار الكبرى دون أن ينظر الى ما فى الريف والقرى فان الفرق بين الحياتين كبير. فالحياة فى المدن صناعية من طبيعتها الحركة المضطربة والتطور السريع . والحياة فى الريف زراعية من طبيعتها الهدوء والبطء . لذلك كانت المدن تمثل فى أغلب احوالها غلاة الاحرار بينما يمثل الريف فى أغلب أحواله غلاة المحافظين

والواقع أن حياة الريف الدينية لم تبلغ من التغير ذلك المبلغ الذى تشاهدونه فى المدن حتى لقد يحسب بعض الباحثين أن حياة الريف جامدة لم تتغير ولكن ذلك من خطأ الرأى فالحياة الدينية فى الريف على ما فيها من بطء وهدوء قد أصابها التغير وحاقت بها سنة التطور

ومن التغير الذى يبدو هيناً وهو عند الريفيين عظيم انهم رضوا أن يحولوا بعض الساعات الكبرى فى مساجدهم من ساعات عربية الى ساعات افرنجية بعد أن رفضوا ذلك وقاوموه زمناً طويلا وفى كثير من القرى قد رضى أهلها أن يبطلوا تلك البدعة التى درج عليها المؤذنون قروناً عديدة بدعة الصلاة والتسليم على النبى صلى الله عليه وسلم عقب الأذان وكذلك بطلت فى أغلب الأرياف تلك المواسم التى كانت تقام لذكرى موالد الأولياء والصالحين ومن الملاحظ أيضاً أن اعتقاد الريفيين فى مشائخ الطرق والاولياء قد أصبح أدنى الى الاعتدال والتهذيب من بعد ان كان الناس يتعلقون بهم تعلق العبادة ويتخذونهم وسيلة لشفاء المرضى وقضاء الحاجات . ولعل أظهر ما أصاب الحياة فى الريف من تغير هو أن أحاديث العفاريت وقصصهم قد تلاشت أو كادت تتلاشى .

لا نريد أن نمضى فى سرد ما أصاب الحياة الدينية فى المدن والقرى من تغير فأن احصاء ذلك عسير ، ولقد يكون الذى ضربنا لكم من الأمثلة كافيا ليدلكم على ما أردنا أن نصل بكم اليه من أن الحياة الدينية فى مصر تتطور وتتغير .

(٢) وننتقل الآن الى البحث الثانى فى أسباب هذه التغيرات ومناشئها. ولا أمل لنا فى أن نصل بكم إلى حصر تلك الاسباب والمناشىء حصراً جامعاً مانعاً يرضاه فن المنطق، فأن ذلك مطلب عسير . ولكنا نستطيع أن نحاول ذلك على وجه تقريبى لا يخلو من تساهل ولكنه ربما كان قريبا من الصواب .

ومهما تنوعت واختلفت تلك الأسباب والمناشىء فقد يمكن أن نردها كلها أو غالبها إلى سبب أساسى واحد ، ذلك هو أن مصر بجميع مقومات الحياة فيها تتقلب اليوم فى سلسلة من التحول والانتقال وتسير فى تطورها سيراً حثيثاً

تعلمون أن مصر بطبيعتها أقرب مراكز الاتصال بين الشرق والغرب ، وأنها فى نظر الأمم الغربية باب الشرق ولا بد لهم أن ينفذوا من ذلك الباب اذا هم اتجهوا شرقاً ، وهى فى نظر الأمم الشرقية باب الغرب ولا بد لهم أن ينفذوا منه اذا هم اتجهوا غرباً. وتعلمون أن الفلك الدوار قد نقـــل الى سماء الغرب كوكب القوة والسلطان من بعد أن أطلعه فى الشرق حيناً ، وان الأيام التى يداولهـا الله بين الناس قد جعلت الدولة للغربيين وكانت من قبل للشرقيين ، فعند الغربيين اليوم المال والعلم والقوة ، وعندهم الحضارة الغالبة ، وهم يولون وجوههم شطر الشرق كما ينظر القوى الطامع الى الضعيف يريد أن يغزوه ليبسط عليه سلطانه و يستعمر أرضه ويستغل ثمره ، وهم بذلك يولون وجوههم شطر مصر لانها أقرب حصون الشرق الى الغرب ، ومن بسط عليها يده فقد دنت بلاد الشرق من قبضته. والشرقيون يولون اليوم وجوههم شطر الغرب لان الضعيف ينظر الى القوى دائماً، ولان المغلوب كما يقول ابن خلدون مولع باتباع الغالب، وهم بذلك يولون وجوههم شطر مصر ، لأن خطر هذا الغزو الغربى قد روعهم فاتجهوا بأنظارهم صوب مصر أقرب حصونهم الى بلاد الغزاة وأهمها

فمصر كما ترون ملتقى نظر الشرقيين والغربيين، وميدان النضال بينهما، و بذلك أصبحت مركزاً من أهم مراكز النهضة الشرقية الحديثة، وخصوصاً بين الأمم الاسلامية، و بنوع أخص بين الشعوب العربية حتى قال الناس عنها حقاً أو باطلا انها زعيمة البلاد الشرقية وحاملة لواء الحضارة فيها .

ومصر من قبل أن تتعرض لغزو الحضارة الأوربية الحديثة كانت أبداً وثيقة الاتصال بالغرب وواسطة ارتباطه بالشرق . فقد اتصلت منذ العصور القديمة باليونان والرومان. و يظن بعض الباحثين انها قـــد اتصلت بغيرهم من شعوب أوربا الشمالية ، وما برحت الحياة المصرية منذ القدم تتأثر بالحضارات الأخرى من أمم الشرق والغرب وتتطور دائماً، ولكن تطورها كان فى أغلب أحواله تطوراً هادئاً رقيقاً. فأما حين تعرضت لغزو الحضارة الأوربية الحديثة — تلك الحضارة التى يقوم تاريخها على الثورات العنيفة والانقلابات الحادة ، والتى نبتت أصولها فى مجارى الدم وعلى هام الشهداء — حين تعرضت مصر لغزو تلك الحضارة أخذ التطور فيها يسير ســـيراً حثيثاً عنيفا كان فى رأى بعض الباحثين ثورة وانقلاباً

ففى خلال جيلين اثنين أو ثلاثة أخذت المدارس تنتشر فى أنحاء القطر ، فقل عدد الأميين ،وازاد العلم انتشاراً ، وكثرت الجرائد،وتداولها القراء فى نواحى القطر ،وتمكنت العلائق بين المصريين وبين الحضارة الأوربية بما استحدث العلم من وسائل قربت على الناس ما بعد من المسافات والأزمان ، فسهلت المواصلات الدولية ، وتيسر الانتقال فى البر والبحر والفضاء وتخاطب الناس بالتلغراف والتليفون ، وتعارف القريب والبعيد بالفوتوغرافية والتصوير ، وتقارب ما كان بعيداً بين التفكير المصرى والأوربى ، وكان ذلك كله مما ساعد على انتشار نوع جديد من الادب والثقافة ، فظهرت فى مصر بوادر حضارة قوية جديدة ، ونشأ جيل مصرى حديث ينعم من وسائل المدنية والرفه بما لم ينعم به الاولون ، ويأخذ من أسباب العلم والتهذيب بنصيب لم يتوفر من قبل للمصريين .

نشأت مع هذا الجيل الجديد وتلك الحضارة الحديثة ظروف وتطورات اجتماعية كان لا بد أن تتأثر بهما الحياة الدينية فى مصر وقد تأثرت بهما الحياة فعلا ، فكان من ذلك ما رأيتم من الخلاف الشديد بيننا وبين أجدادنا فى مظاهر الحياة الدينية ومناهجها وكان من أثر ذلك أن أصبح المصريون يتناجون اليوم و يتجادلون فى الغاء الاوقاف ، وترجمة القرآن الى اللغات الأجنبية ، ولبس البرنيطة ، وتقييد الطلاق ، ومنع تعدد الزوجات ، وغير ذلك مما يسميه أصحابه اصلاحاً دينياً . ولقد أصدرت الحكومة المصرية قانوناً يمنع الزواج قبل سن السادسة عشرة ، من بعد أن كان الزواج فى كل سن سنة من سنن المسلمين، وكان نصف هذا الدين .

جرت مصر منذ العصور الاولى على أن يكون الحكم فيها شرعياً ، يرجع الى أحكام الاسلام والاوضاع الاسلامية ، وكان المصريون يفزعون من أن يحتكموا الى غير قوانين الاسلام . لان الحكم بغير ما أنزل الله كفر صريح فى القرآن . ولكن القوانين قد أصبحت فى مصر تؤخذ أحياناً من قوانين أوربا ولا يرى المصريون حرجاً فى أن يحتكموا اليها ولا أن يخضعوا لها وافقت الفقه الاسلامى أم لم توافقه . ومن قبل ذلك استطاع الخديوى اسماعيل باشا أن يضرب على المصريين قانون نابليون شريعة لازمة ويأخذهم بأحكامها أخذاً . وما كان ذلك كله الا خضوعاً لما أسلفنا من حكم الظروف الاجتماعية والتطورات التى نشأت مع الحضارة الجديدة والجيل الجديد

نشأت أيضاً مع الحضارة الجديدة والجيل الجديد فى مصر ظروف وتطورات فى

الحياة الاقتصادية تأثرت بها الحياة الدينية أيضاً . ولا شك فى أن النظام الاقتصادى فى أى شعب من الشعوب مؤثر كبير فى دينه وفى خلقه .

الاسلام شديد وصريح فى تحريم الربا ومحاربة المرابين . والمصريون يمقتون الربا والمرابين مقتاً شديداً ، لان المصريين مسلمون متدينون ولان فى طبيعتهم كأمة زراعية أن يتساهلوا فى تبادل المنافع وتقارض المال . وكان الربا الذى يكرهونه منذ أقدم العصور شاملا لجميع أنواع الربا ، فلما أخذوا بأسباب الحضارة الحديثة كثرت مطالبهم ، ودفعتهم ضرورات الحياة الى التماس المال ، فأنشئت بينهم البنوك وصناديق التوفير وشركات التأمين على الحياة وغيرها ، وما لبث المصريون أن أقبلوا عليها . وتعاملوا على شروطها ، ورأينا يومئذ علماء الدين يبحثون فى أن الربا المعتدل حرام أم حلال وفى أن استرباح المال فى صناديق التوفير حرام أم حلال وفى أن التأمين على الحياة حرام أم حلال .

كانت المحاكم الشرعية اذا ثبت لها ان مسلماً استدان من بعض البنوك لم تقبل له شهادة ، ولم تقره ناظراً على وقف ولا فى ولاية ، أما اليوم فقد تبدلت هذه الآية وانعكست .

ومن بعض ما تشهدون من أثر الحالة الأقتصادية فى الحياة الدينية أن عدد الحجاج المصريين نقص فى هذا العام نقصاً كبيراً . وأهم سبب لذلك هو الضيق المالى الذى يعانيه القطر فى هذا العام . وربما كان من أثر الحالة الاقتصادية أيضاً ما تلاحظون من خروج النساء الى ميدان العمل ، تضطرهن حاجات الحياة الى التوظف ومزاولة الحرف والصنائع ، وقد استتبع ذلك انتشار السفور ، وقلة احتجاب النساء عن مجالس الرجال ، وكان ذلك مما سهل عليهم أن يجتمعوا معاً فى المدارس والحفلات فى دور السينما والتياترات ، مع انكم تذكرون ما لقيته دعوة المرحوم قاسم امين الى تحرير المرأة منذ ثلاثين عاماً تقريباً . بقى بعد هذين العاملين الاجتماعى والاقتصادى عامل آخر ، هو أيضاً من أهم عوامل التغير الدينى فى مصر ، وهو العامل السياسى

نشأت مع الحياة الجديدة فى مصر ومع الجيل الجديد ظروف سياسية جديدة مست الحياة الدينية وأثرت فيها

والسياسة والدين كما تعلمون عنصران متلازمان ، يعتمد كلاهما على صاحبه كل الاعتماد . وذلك ان رجال الدين فى جميع الأمم والعصور يطلبون الحكم ، ويريدون أن يكون بيدهم زمام الناس يأمرون فيهم وينهون ، ويحرمون عليهم ويحللون ، فاذا لم يستطيعوا أن يكونوا

هم أنفسهم ولاة الأمر وأرباب السلطان التجأوا الى رجال الحكم السياسى، يستمدون منهم القوة ، ويتخذونهم وسيلة الى الحكم . والحكام السياسيون من الجهة الأخرى يريدون دائماً أن يكون لهم على قلوب الرعية سلطان دينى ، يثبت لهم الحكم ويمكن لهم من رقاب الأمة ، وهم لذلك ينتحلون لأنفسهم صفات وخصائص دينية تجعلهم من رجال الدين وتفيض عليهم قداسة دينية وحصانة دينية ، لذلك كانوا يزعمون أنهم ينوبون فى الحكم عن الله جل شأنه ، وأنهم حماة الدين وحاملوا لوائه ، وكانوا يتخذون علماء الدين وأحباره ورهبانه وسيلة الى ما يريدون . وعلى هذا الأساس كانت الخلافة فى بلاد الأسلام سلطة يؤيدها شيخ الاسلام وتجمع بين الحكم فى شئون الدنيا والدين ، وكان الخليفة اماماً دينياً وسياسياً معاً ، وكذلك كان شأن المسيحية فى بلاد الغرب ، فلا يكاد يقوم فيها حاكم سياسى لا يعتمد على تأييد الكنيسة ، ولا تقوم كنيسة لا تعتمد على الحكم السياسى والسلطان .

وعلى هذا الأساس أيضاً أرادت القوة السياسية من قديم الزمان أن تحدث لها فى مصر قوة دينية تؤيدها وتعاضدها فأنشأت الجامع الأزهر ، وأسبغت عليه اسم الدين ، وعلى أهله برداً دينياً ، وما برح الأزهر منذ يومئذ ربيب السياسة وآلة الحكام السياسيين وسندهم .

والحكومات التى تعتمد على قوة الدين وقوة السياسة معاً لا تكون الا مطلقة غير محدودة السلطان ولا خاضعة لرقيب. وهذه الحكومات المطلقة عرضة دائماً لأن تستبد وتطغى . لذلك لبثت البشرية ترزح تحت سلطان هذا الحكم المطلق ، الذى يزاوج الدين بالسياسة ، وتلقى من تألب الحكام الدينيين والسياسيين شر ألوان العذاب ، الى أن ثارت أوروبا تلك الثورة العنيفة الدامية فى وجه ذلك النوع من الحكم ، فقوضت أركانه وهدمت قواعده ، بما فرقت بين الدين والسياسة أولا ، وبما قللت من سلطان كل منهما ثانياً ، ونشرت حضارة أوربا الحديثة بين الناس مبادىء حرية الانسان وحرية الفكر والديمقراطية والحكم النيابى وأمثالها . فلما اتصلت مصر بأوروبا ذلك الاتصال الذى ذكرنا أخذ المصريون يجنحون الى هذه المبادىء ويعملون لها . وانكم لتعرفون أن المصريين منذ حكم اسماعيل باشا أو قبله يعملون على تحديد سلطة الحكومة ، وضبط نظام الحكم على قواعد

الحياة النيابيـة والدستورية ، ولا يزالون الى اليوم يجاهدون فى سبيل ذلك جهاد المؤمن بحقه ، المصمم على الدفاع عنه

تأثرت الحياة الدينيـة فى مصر بهذا التطور السياسى ، فبعد أن كان مشـايخ الطرق مثلا يحكمون فى أتباعهم حكماً دينياً نافذاً قوياً تزلزل من النفوس سلطانهم ، وتمرد التمدن المصرى الحديث حتى على هذا التحكم الروحى . وبعد أن كان خليفـة المسلمين فى استانبول يجمع السلطتين الدينية والمدنية ، وبعد أن كان المصريون يرعونه رعاية الاحترام والتقديس ، أخذوا يجادلون فى حقه ، ويتلكؤن فى الخضوع له ، ثم يخرجون عليه و ينكثون بيعته ، ثم ينكرون الخلافة من أصلها و يقولون انها ليست من الدين . وبعد أن كان لعلماء الأزهر نوع من السلطان فى مصر ضعف مقامهم ، وتلاشى سلطانهم . وخلص المصريون أو كادوا من ربقـة التحكم الدينى . ولعلهم على وشك أن يخلصوا أيضـاً من ربقة التحكم السياسى واستبداد الحكام السياسيين

نكتفى بهذا القدر فى بحث الأسباب والعوامل التى تؤثر فى الحياة الدينية فى مصر

(٣) وننتقل الى البحث الثالث الأخير

أدركتم مما سبق ذكره أن كثيراً من جوانب الحياة الدينيـــة ومظاهرها قد أصابه التغيير وأن ذلك قد تغلغل الى تقـاليدنا وآدابنا وعقائدنا والى حيـاة الفرد والجماعة والى الحيـاة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . فهل نحن اذن ازاء تطور بعيـد الأثر وشديد الخطر ؟ وهل ينبغى أن يجزع من عواقب هذه الحالة الاسلام والمسلمون ؟

الأمر يحتاج الى بحث وتدبير . و يجب أن نعرف قبل ذلك هل بلغ من تغير الحال الدينية فى مصر وتطورها أن تأثر عدد المسلمين أم لا ؟ وأن ضعف فى المصريين الشعور الدينى أم لا ؟

أما عن عدد المسلمين فان الاحصاءات الرسمية تدلنا على أن نسبة المسلمين فى مصر الى غيرهم مطردة الزيادة ، كما أن عدد المسلمين فى العالم مطرد الزيادة . اذن فنستطيع أن نقول أن أثر التطور الدينى الحديث فى عدد المسلمين أثر إن لم يكن محموداً فانه غير مكروه

بقى الشعور الدينى ، فهل تأثر فى مصر ، وهل ضعفت الروح الدينية فى المصريين ؟

لقد يبدو للناظر الى بعض الظواهر أن شيئاً من الوهن والفتور قد دب الى عواطف المصريين الدينية . فان من الملاحظ أن بعض الطبقات فى مصر أصبحت تتراخى جهـار

فى اقامة الشعائر الدينية وتتظاهر بالمعاصى، ولكن الذى يحقق النظر ويمعن فى البحث يرى أن هذا الذى يبدو تراخياً فى الدين واهمالا لشعائره ليس فى حقيقة الأمر ناشئاً من تزلزل فى العقيدة، ولا فتور فى العاطفة، ولا ضعف فى الروح، وانما منشؤه ضعف فى الخلق وفتور فى الشعور بمعنى الفضيلة

وانما يتهاون المصريون فى دينهم ويتظاهرون بالانحراف عنه لأن الخلق المصرى نفسه قد اصيب بالضعف والانحلال من كل النواحى: ضعف فى الخلق الاجتماعى، وضعف فى الخلق السياسى، وضعف فى الخلق الدينى. ولقد يكون المصرى الذى يتجاهر بالفجور الدينى مؤمناً صادق الايمان، وديناً مخلصاً لدينه، ولكن يغلبه على إيمانه ودينه شقاوته وضعف نفسه وخلقه. وذلك كما تجدون اليوم بعض المصريين يجاهرون أمتهم بالفجور السياسى، وقد يكون فيهم من يؤمن فى أعماق نفسه بأن للسياسة خلقاً وفيها فضيلة ولكن يغلبه على خلق السياسة وفضيلتها شقاوته وضعف نفسه

فالتهاون الدينى فى حقيقة أمره ظاهرة خلقية ينبغى أن يستقل بالبحث فيها علماء الاخلاق قبل علماء الدين. يدلكم على هذا أنه كلما ظهرت فى مصر حادثة قد تمس مواطن الاحساس الدينى وتهيج مشاعره رأيتم من أولئك المتهاونين فى دينهم المتجاهرين بالخروج عليه من يكونون أسرع الناس الى الحفيظة، وأشدهم غيرة على دينهم والتهابا

وتلك حالة نفسانية مفهومة. فأنكم تجدون بعض الذين أصيبوا بعادة التدخين وعجزوا عن مقاومتها من أشد الناس تحمسا للدعاية الى أبطال التدخين وأصدقهم إيماناً بضرره وأمضاهم عزماً فى محاربته. وكذلك يكون بين أهل الفساد والضلال دعاة للاخلاق والفضيلة صادقون.

اذن فلعل هذه التغيرات التى أصابت الحياة الدينية فى مصر وقصصنا عليكم أمثلة منها ليست الا حواشى وأعراضا لم تتصل بجوهر الأسلام ولم تؤثر فى أركانه وقواعده. ولعلنا نستطيع أن نقول ان العاطفة الدينية فى مصر لا تزال سليمة نامية، وأن الشعور الدينى لا يزال حياً قوياً

سيقولون ما بالك تتغاضى عن دعوة الالحاد الدينى التى قامت تنشر جناحين فى سماء مصر، وتنفث سمومها فى قلوب المصريين، وترفع علم الزندقة فوق دور العلم وبين المتعلمين والعامة. وما بال تلك الصيحات المنزعجة وهذه الجموع الهائجة ضد الألحاد والملحدين؟

طبيعى أن يكون فى مصر ملاحدة أو زنادقة أو منافقون، يعلنون الأيمان

ويسرون الكفر . لأن ديناً من الأديان وأمة من الامم وعصراً من العصور لا تخلو من هؤلاء . وعصر النبوة نفسه لم يخل منهم ، لأن الله لم يرد أن يجعل فى هذه الدنيا خيراً محضاً لا ينبت فى جوانبه الشر ، ولا إيماناً شاملا لا يقوم حوله كفر

ولقد نبتت فى أحضان الحضارة الحديثة نزعات خبيثة الى الألحاد، وسرت فى ركابها دعوة منكرة الى المادية ، وقد كان للالحاد والمادية فى تاريخ الحضارة الأوروبية الحديثة وتطورها شأن مذكور . أما فى مصر فأن شأن الألحاد والمادية لا يكاد يكون مذكوراً ، ومقام الألحاد فى مصر اليوم يوشك أن يكون مقامه من قديم الزمان ، وما زالت مصر كما كانت من قبل لا يقوم فيها ملحد ولا ترتفع فيها دعوة الألحاد الا فى الحين بعد الحين وفى الجيل بعد الجيل ، ولم تتكشف حضارة مصر الحديثة عن قوة جديدة للالحاد ولانشاط حادث للملحدين

إذن فما بال أولئك الصائحين يملأون الأرض صراخا وعويلا ويفزعون من هول الألحاد وخطر الملحدين ؟

الأمر بين . هناك كما عرفتم تطور حديث فى الحياة الدينية ، وهنالك نزعة ثائرة ضد ما كان لرجال الدين وعلمائه من قوة وسلطان، وهنالك نزعة قوية ضد الحكم المطلق الذى يعتمد على سلطان الدين . وهنالك رجال يناصرون تلك النزعات الحرة الخالصة للدين وللوطن

وهنالك فى مقابلة هذا نزعات قديمة إلى التحكم الدينى والسياسى ، وهنالك رجال يناصرون هذه النزعات . والحرب التى تسمعون حديثها ليست كما يزعمون حربا بين الألحاد والأيمان، ولكنها الحرب بين الدعوة الحديثة الى التجديد والانقاذ والدعوة البالية إلى الجمود والاضمحلال ، بين الحياة والموت ، بين أولئك الذين يدفعون إلى الأمام مصر ودين مصر والذين يريدون أن يدفعوا إلى الوراء مصر ودين مصر

سيقول آخرون : أين أنت من حركات التبشير المسيحى وما فيها من خطر على الأسلام والمسلمين ؟ وأين أنت مما تصيب به الناس من فتنة فى دينهم وضلال عن سواء السبيل ؟

يخيل الى من ينظر إلى معاهد التبشير فى مصر وضخامتها ، وإلى نشاط المبشرين وما يقترفون فى سبيل الدعوة الى المسيحية من خير وشر ، ومعروف ومنكر ، أن وراء الأكمة خطراً خفياً ، وأن بين الضلوع داء دوياً ، ويخيل لمن يسمع حيناً بعد حين أن المبشرين قد فتنوا طفلا أو خادعوا فتاة أن الأمر جلل ، وأن الأسلام منهم على خطر .

ولكن الذى ينظر من وراء هذه الظواهر الخادعة الى الوقائع الثابتة ، والذى يستنطق الأرقام ويستمع إلى صوت الحقائق يجد أولئك المبشرين أقل شأناً من أن يصلوا بكيدهم الى حمى الأسلام ، أو ينالوا من المسلمين منالا فالاسلام دين قد صهرته الحوادث ، وتقلبت عليه الفتن ، وعصرته التجارب ،وقارعته سيوف القوة والبغى ، وحاربته الدسائس بشر أنواعها ، والفتن بكل أصنافها ، منذ أجيال وأجيال ، فخلص من خلال ذلك كله سليما قويا ، لم تلحق به شبهة ، ولم تعلق به وشمة ، ولن تبلغ جهود المبشرين وان تعاظمت . ولا حيلهم وان دقت ، مابلغت من قبل تلك الغوائل التى أرادت أن تقف فى طريق الأسلام فداسها الأسلام بأقدامه وحطمها تحطيما ، ومضى فى طريقه إلى الأمام قدما

ولقد مضى على المبشرين فى مصر عشرات من السنين لم يألوا جهدا ولم يتعففوا عن وسيلة من وسائل الدعاية ثم أنتم هؤلاء ترون ان الأسلام لا يزال قويا وان البركة لا تزال فى المسلمين

ان خطر المبشرين سياسى وخلقى أكثر مما هو دينى . وان مصيبة المصريين بالتبشير والمبشرين لن تنال دينهم بأكثر مما تجنى على وجودهم السياسى وعلى أخلاقهم .

من الملاحظ أن بين التبشير المسيحى والتبشير السياسى علاقة لاينبغى أن يغفل عنها الباحث،وقد يكون التبشير المسيحى فى خفى أمره آلة من آلات الغزو السياسى والاستعمار، وقد يكون الغزو السياسى آلة من آلات التبشير المسيحى ، وسواء كان هذا أم ذاك فالعلاقة بين المبشرين والمستعمرين كالعلاقة التى كانت فى قديم الزمان بين رجال الدين والسياسة، وهى التى حدثناكم عنها آنفاً

يدلكم على ذلك أن سلطان التبشير المسيحى يشتد ويقوى ، ونشاط المبشرين يتزايد كلما كانت الأمة ضعيفة وكانت ميداناً للنشاط السياسى والمطامع السياسية، هنالك يبيض المبشرون ويفرخون تحت أجنحة الدسائس الأستعمارية وفى كنف القوة السياسية، ذلك شأنهم فى أواسط افريقية وشرقيها مثلا وفى مراكش والجزائر .وعلى نسبة ما يكون للامة من قوة واستقلال يكون ضعف المبشرين وانكماشهم . فاذا ما بلغت الأمة كمال قوتها واستقلالها وجدت سلطان التبشير متلاشياً ، وحركة المبشرين خاملة ، كما فى تركيا وأفغان وبلاد العرب

اذاً فالتبشير المسيحى مرض سياسى وخلقى .وعلى رجال السياسة والأخلاق فينا أن يبحثوا فى طريق الخلاص منه

النتيجة التى تخلص لنا مما سبق أن الحضارة الحديثة فى مصر قد أثرت فى حياتها الدينية ، وأن تلك الآثار كثيرة الشعب وواسعة الفروع ، ولكنها على كثرتها وتشعبها لم تصب جوهر الإسلام بسوء ولا عرضته لمكروه ، بل لعلها قد أنقذته من كثير كان يشوبه ، وخلصته من علل كانت تنتابه ، وهيأته لأن يسير فى طريق الكمال سيراً حثيثاً

ان الحضارة الحديثة ، على ما يشوبها من مادية وإلحاد ، وما يعيبها من نقائص خلقية وغير خلقية ، لتخطو بالبشرية خطوة جديدة تقربها مما أعدت له البشرية من رقى وجمال ، وتقرب العقل الأنسانى الى ما نبغى له من إطلاق الفكر وحرية البحث وراء العلم الصحيح خالصاً من ضغط الاستبداد وتقاليد الجهل والجمود وان الحضارة الحديثة إذ تحاول ذلك لتساير الاسلام الصحيح نحو الغاية التى يعمل لها ، وتنشر المبادىء التى يريد أن ينشرها

من كان يظن أن الاسلام هو أن تبقى المرأة محجبة ، وأن يبقى الحكم السياسى مطلقاً ، وأن يكون رجال يزعمون أنهم يتحكمون باسم الدين فى عقول الناس وعاداتهم وشئونهم ، وأن تبقى العقول جامدة ، والنفوس خاضعة ، والأذهان متحجرة ، من كان يظن أن الاسلام بين جدران الأزهر ، وبين اللحى والعمائم فان الحضارة الحديثة فى مصر ستقضى على دينهم الذى يزعمون ، وتجتثه أصولا وفروعاً

ومن كان يظن أن الاسلام دين الفكر الحر والحكم العادل والعلم الصحيح ، ودين الحرية والمساواة فان الحضارة الحديثة فى مصر تهيىء المستقبل القريب الباسم لدين الفكر الحر ، ودين الحكم العادل ، ودين العلم الصحيح ، ودين الحرية والمساواة ، دين الاسلام .

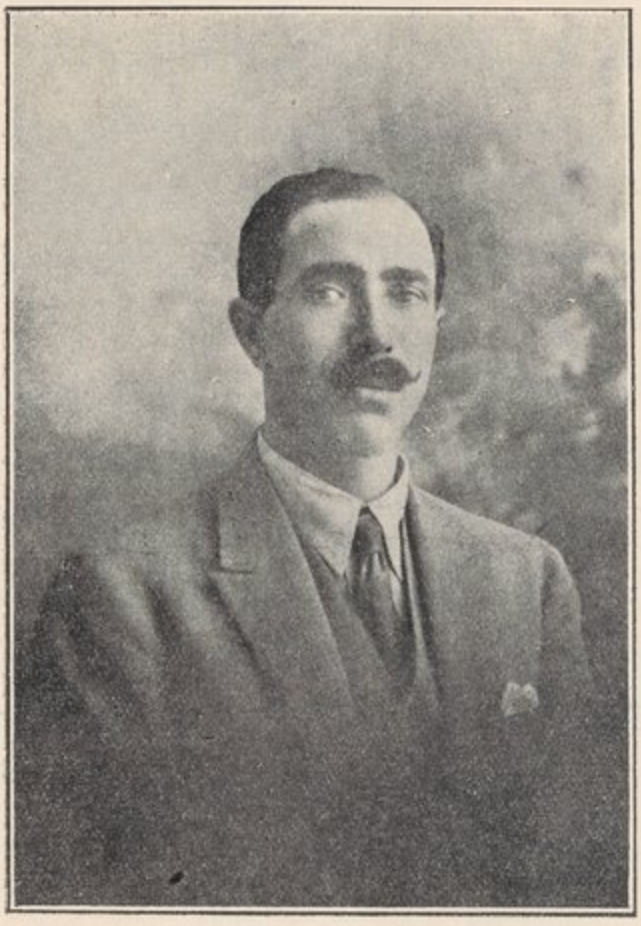

حضرة صاحب العزة الدكتور محمد حسين هيكل بك

مدير جريدة السياسة

الرأى العام كأداة للرقابة الاجتماعية

لحضرة صاحب العزة الدكتور محمد حسين هيكل بك

لئن كنت صحفياً وكنت بذلك خاضعاً فى الحديث عن الصحافة لاعتبارات ذاتية قد يكون لها فى حكمى على الموضوع الذى أعالج الآن أثر، فانى سأقف من بحثى هذا موقفاً موضوعياً الى غاية ما أطيق وسأكون من الصحافة والصحفيين فى اتصالهم بالرأى العام وفى تعبيرهم عنه حكما عدلا غير متأثر بعملى الصحفى ولا ناظر إلا للحقائق الواقعة كما هى، أو على الأقل كما أراها. ذلك لأننى أعتقد أن توخى الحقيقة لذاتها ومحاولة تصويرها فى أدق صورها أكفل بتوجيه الرأى العام وجهة صحيحة، أكفل بأن يؤدى الغرض من هذه المحاضرات التى لا يقصد بها الدعوة الى رأى معين ولا التبشير برسالة معينة، وانما يراد به التصوير الصحيح لتطور الحضارة المصرية من بعد الحرب.

اوضحت المقدمة التى وضعها جناب مستر كيلاند لهذا الكتاب أن الغرض منه بيان تفاعل العوامل التى تتأثر بها حضارات الأمم جميعاً: المكان — والعمل — والناس. وقد سبق الشىء الكثير القيم من هذا فيما سبق من هذا الكتاب. وقد رأى القارىء الأطوار التى مرت بها الزراعة والصناعة والتجارة والصحة العامة والتعليم والتشريع والدين فى هذه الآونة الأخيرة فى مصر. وها أنا الآن بدورى أوضح ما كان لاتجاه الرأى العام من أثر فى هذه التطورات وما كان من أثره فى هذا الطور الأخير من أطوار حضارتنا كما أحاول فى نفس الوقت الذى أتحدث فيه عن الرأى العام كاداة للرقابة الاجتماعية أن أقارن بينه فى أداء هذه المهمة وبين الحكومة كأداة للرقابة الاجتماعية هى الأخرى وكيف أدى وتؤدى هذه المهمة مقارنة سريعة بطبيعة الحال تاركا لحضرة المحاضر الذى يختم هذه السلسلة أن يبين من جانبه رسالة الحكومة فى الرقابة الاجتماعية بالايضاح الذى يكفله له استئثار محاضرته بهذا البيان.

وما دام حديثنا عن الرأى العام وعن الصحافة وعن مهمتهما فى الرقابة الاجتماعية وعن أثرهما فى حضارة مصر اليوم محدوداً فيما كان من ذلك بعد الحرب فيجب أن نقف

وقفة قصيرة عند غداة الحرب وأن نجيل النظر برهة فيما قبلها وما بعدها لنقدر الانقلاب الحقيقى الذى أحدثته فى شؤون مصر كلها بمقدار ما أحدثت فى الأمم التى كانت جبهات حرب تصلى من النيران ومن الغازات مالم تعرف مصر . وليس فى ذلك شىء من العجب. صحيح أن مصر لم تكن جبهة حرب الا أياماً معـــدودات عند هجوم الأتراك على قناة السويس فى فبراير سنة ١٩١٥ هجوماً لم يعرف المصريون عنه شيئاً معيناً دقيقاً إلا بعد حدوثه بزمن غير قليل . لكن مصر كانت طوال سنى الحرب الأربع ميـدان حرب لا يقل نشاطاً ولا يقل عسكرية ولا يقل طلعة ولا قلقاً عن ميادين الغرب فى فرنسا والشرق فى روسيا وعن الدردنيل وسائر الجبهات التى عرفنا خلال هـــذه السنوات الأربع الملتهبة الدامية . وخلال هذه السـنوات الأربع كان الرأى العام المصرى متوتراً أشد التوتر رغم أنه كان حبيساً فى أغلال الحكم العرفى القاسية ، وكان له من الطلعة عن الحرب وأخبارها ما لا يقل عمن لهم فى جبهات ميادينها العـــديدون من الأهل والأبناء . ومصدر اللهفة والقلق تلك الحال غير العادية التى كانت تكتنف مصر يومئـذ اذ كانت مستودع جنود الحلفاء يجيئون اليها ويقيمون فيها عشرات الألوف ومئات الألوف من جنسيات مختلفة : الانكليزى والفرنساوى والهندى والأسترالى والنيوزيلاندى وماشئت من مختلف الأجناس والألوان والملل ، كما كانت مخزن تموين الحلفاء فى ميادين الشرق تأخذ السلطة العسكرية منها الغلال ومواد الوقود ودواب الحمل مما يتصل بطبقات المجتمع كله من أصغر فلاح فيه الى أكبر أغنيائه وسراته . أضف الى هذا عاملا جعلها أشد قلقاً من الأمم المحاربة نفسها . كانت تلك الأمم كلها تجاهد فى سبيل النصر لتأخذ من مغانم الحرب بنصيب . أما مصر فلم تكن تعرف أى مصير قدر لها ، سواء انتصر الحلفاء أو انتصرت دول الوسط . وأشد الناس يومئـــذ تفاؤلا كان أحد رجلين : رجل يثق بوعود انكلترا التى سبقت إعلانها الحماية على مصر والتى كانت تعتبر الحماية والحكم العرفى ضرورات للحرب تزول متى انتهت الحرب بنصر الحلفاء ، ورجل يظن ان النصر اذا تم للالمان وحلفائهم الأتراك جلت انكلترا عن مصر وعادت رابطة التبعية التى بينها وبين تركيا رابطة اسمية لا تقيد من سيادتها ومن حريتها فى شىء . وكلا هذين المتفائلين لم يكن يعبر عن موجة الرأى العام المصرى لأن هذه الموجة كانت مضغوطة لاتتنفس عنها الصحافة ولا يتنفس عنها حديث أو خطاب سياسى ، وكانت بسبب ضغطها لا تدرى أيان يكون اتجاهها المستقبل.

وأعلنت أمريكا على لسان رئيس جمهوريتها يومئذ الدكتور وودرو ولسن شروط

الهدنة ومن بينها حق الشعوب فى تقرير مصيرها فلم يترك ذلك فى الرأى العام المصرى الأثر العميق الذى ترتب عليه من بعد ، لأن هذا الرأى العام كثيراً ما سمع الوعود تقطع ولا تنفذ ، والحق والعدل يشاد باسمهما فى الخطب السياسية ثم اذا من ورائهما أسباب الهلاك والدمار تؤيدهما فى صف من صفوف الانسانية لتقضى عليها قضاء وحشياً لا شىء من الحق ولا من العدل فيه فى الصف الآخر. وقف الرأى العام أمام نظرية تقرير المصير مرتاباً فى مبلغ ما تنطوى عليه إلى أن تقدم سبعة رجال هم الذين تألفت منهم النواة الأولى للمطالبة باستقلال مصر يريدون أن يكون لمصر حق تقرير مصيرها . تقدموا تؤيدهم وزارة مصر فى ذلك الظرف لأنها ولأنهم شعروا بشىء من المسؤولية عن ما وقع فى بدء الحرب حين أعلنت انكلترا الحماية على مصر فعليهم لذلك شىء من التبعة فى اقتضاء ماقطعته انكلترا لهم من الوعود فى المفاوضات التى سبقت إعلان الحماية الانكليزية على مصر .

لسنا بصدد رواية تاريخ مصر السياسى فى هذه المحاضرة . لكن هذا التاريخ كان له من الأثر على اتجاه الرأى العام المصرى فى السنين التى عقبت الحرب سواء فى توجيه مصير مصر السياسى أو فى رقابة الرأى العام لأقدار البلاد الاجتماعية مالا يمكن إغفاله . ومن هذه الناحية الأخيرة وحدها نرانا مضطرين لنقف أحياناً وقفات قصيرة نصل فيها بين هذا التاريخ وبين حياة البلاد الاجتماعية . وقف الرأى العام متردداً إزاء هذا التوجيه السياسى الذى وجهه له أولئك المصريون السبعة بتأييد الوزارة القائمة يومئذ وان نظر الناس بأشد العطف الى هذا التوجيه عطفاً كان مظهره هذا الانفجار الفجائى الذى حدث حين اعتقلت السلطة العسكرية أربعة من هؤلاء الدعاة للاستقلال . يومئذ أخذ الرأى العام اتجاهه ، لا بازاء مصير مصر السياسى وحده ، ولكن بازاء مصائرها الاجتماعية كذلك . فقد كان هذا الرأى العام قبل الحرب مقسما بين المحافظة والحرية ، بين العمل المباشر السريع والسعى التدريجى المستمر ، بين الرجعية المعتصمة باسم تقاليد الدين أحياناً و باسم الوطنية أخرى ، وحرية الرأى والعمل المستندة الى الدعوة الاسلامية الحرة والدعوة التى تسايرها . بين تحرير المرأة وحجابها ، بين استقلال مصر الاقتصادى وسياسة الباب المفتوح فى التجارة . بين الرجعة التقليدية الى أدب العرب القديم والدعوة الى التجديد دعوة كانت تبلغ من التطرف أحياناً الى حد القول باتخاذ اللغة العامية لغة الكتابة والأدب . بين عوامل و آراء متشعبة قد يدهش ابن اليوم أن يعلم أن بعض

متناقضاتها كانت تعتبر فى نظر البعض وحدة متسقة برغم تضاربها وتناقضها . ولن أطمع فى أن أفصل اليوم شيئاً من هـــذا رغم جدارته بالتبويب والتفصيل ، فتبويبه وتفصيله يحتاج الى دراسة طويلة والى عشرات المحاضرات لا إلى محاضرة أو محاضرتين أو عشر .

هذا التباين فى الميول والآراء الأجتماعية ما لبث أن اختفى تحت سلطان الموجة القوية التيار التى أدت الى انفجار الرأى العام فى سنة ١٩١٩ . ويرجع اختفاء التباين فى الميول والآراء الأجتماعية الى سببين : أولهما الفكرة القومية التى اقتضت أن يقف النـاس جميعاً من مختلف الطوائف صفاً واحداً فى النضـال . فكما وقف القسيس الى جانب الشيخ وكما وقف المعمم الى جانب الأفـندى ، وقف المتعلم الى جانب الأمى وشعر الـكل بروح من التسامح الخالص بأزاء بعضهم البعض تسامحاً لا بد منه لأمكان الوحدة والتعاون . والناس جميعاً يذكرون ذلك اليوم الذى خرجت فيـــه سيدات مصر وأوانسها من أكرم العائلات متظاهرات احتجاجاً على ما أصاب الحرية من عدوان وكيف وقف فى وجههن الجند الانكليز ، وكيف كن مثال كرامة وعزيمة . والناس جميعاً يذكرون كيف كان المسلم والمسيحي يدخل الأول كنيسة الثانى والثانى مسجد الأول . لو أن شيئاً من ذلك وقع فى غير هذا الظرف لثـار الرأى العام به ولاعتبره جناية لا يمكن السكوت عليهـا . لكن روح التسامح التى سادت الجميع يومئذ جعلت من هذه الأعمال فى نظر الرأى العام مظاهر إخلاص للوطن وتضحية قومية جديرة بالأعجاب والتقـــدير . بل اندفع الرأى العام الى أكثر من هذا . اندفع الى اعتبار هذه الأعمال مثلا صالحة جديرة بالأحتذاء والتقليد . السبب الثانى لاختفاء التباين فى الميول والآراء الاجتماعية يرجع الى موجة عالمية جرفت الأمم كلها ، موجة التحلل من كل القيود والتقاليـد والنهل من الحرية بنصيب كان يعتبر قبل الحرب تخطياً حدود الحرية الى حمأة الرذيلة أو على الأقل الى حدود الاباحة . كل قيـد كان غداة الحرب ممقوتاً مرذولا . اختلطت فى النفوس صور الخير والشر والـكمال والنقص واضطربت أمام البصـائر حدود الصفات والأعمـال وأصبح قانون العقوبات المقياس الخلقى الذى لا جناح على من يظل عند احترامه فى أن يستمتع بكل ما لاتتناوله حدوده وعقوباته . وكانت هذه الموجة يومئذ طبيعية لأن الناس رأوا الموت ورأوا النفى والتشريد والتعـذيب خلال سنوات الحرب الأربع رأى العين فاستهانوا بالحيـاة والقوا بأنفسهم فى حمأتهـا وكأنهم ما يزالون يحسبون أنفسهم لا يعرف الواحد منهم إن كان قد

قدر له أن يبقى إلى الغد فهو لا يضن على نفسه اليوم بمسرة ولا بلهو ولا بشهوة من الشهوات . وطبيعى ما دام ذلك هو قدره الأمور فى شأن نفسه أن يكون هو كذلك قدره الأمور فى شأن غيره . لذلك عمت العالم غداة الحرب موجة فوضى خلقية نظر اليها الرأى العام كأنها الصورة الطبيعية للحياة . اليس الناس كانوا الى أمس يموتون أو تصيبهم العاهات أو العلل بلا حساب ، فليأخذوا من الحياة ما شاؤا بلا حساب كذلك . وبديهي عند تمكن هذه الحالة من النفوس أن تختفى الفوارق فى الميول والآراء وأن يصل كل انسان بازاء غيره الى غاية حدود التسامح وأن يحسب كل رأى سائغاً وكل عمل مقبولا .

واقترنت بالحرب حالة اقتصادية أيدت هذا التحلل من القيود واعانته . تلك حالة الرخاء الاستثنائية التى رأتها مصر ورآها العالم بعد الحرب بأشهر ، فى ذلك الظرف بيع قنطار القطن بأربعين وخمسة وأربعين جنيهاً وضوعفت مرتبات الموظفين وأجور العمال والفلاحين وأصبح ورق النقد لعبة فى الأيدى ، واستطاع كل انسان أن يسد جميع مطالب أهوائه ، وخيل للناس أن لم يبق للثروة حدود فلم تبق أمامهم للاخلاق حدود ولا للتفكير حدود ولا لشىء من الأشياء أو لاعتبار من الأعتبارات فى هذا العالم حدود . انمحت كلمة المستحيل من النفوس كلها لا من النفوس التى تسمو فوق حدود العظمة الطبيعية فتقول ما قال نابليون : كلمة المستحيل ليست فى قاموسى . أصبح كل فرد نابليون وكل فرد ركفلر وكل فرد فيما بينه وبين نفسه العلم الفرد فى عوالم الكون كلها ، فليفعل اذن كل ما يشاء على شريطة البقاء فى حدود القومية المصرية والحركة الاستقلالية التى حدث انفجار مارس سنة ١٩١٩ مؤيداً لها .

فى رعاية هذا الرأى العام وتشجيعه وفى ظل رقابته بدأت صور النشاط الاجتماعى تظهر يدفع اليها أفراد يؤمنون بها . فالرأى العام لا يخلق الظواهر الاجتماعية وانما يرعاها ويؤيدها أو يحاربها حتى يقضى عليها . والأفراد هم الذين يخلقون هذه الظواهر . ففى رعاية الرأى العام وتياره الجارف أول النهضة وبعد هدنة الحرب قامت حركة العمال ناشطة يغذيها جماعة ممن يؤمنون بمبادىء التعاون ونظام النقابات . وكانت لحركة العمال هذه مظاهر سمعتم عنها فى المحاضرات السابقة ما لست بحاجة الى العود للكلام عنه . وفى رعاية هذا الرأى العام بدأ النشاط النسوى فى العطف على الفقير والطفل قوياً مثابراً حتى رأينا اليوم من ثمراته تلك الدار الفخمة التى أقامها الاتحاد النسائى . وفى رعاية هذا الرأى العام بدأ الفن المصرى يأخذ المكانة اللائقة به . وفى رعايته بدأت نهضة الأدب القومى

تأخذ اتجاهاً قوياً واضحاً لا تقف فى سبيله عقبة من العقبات . وليقدر الانسان قوة هذا الرأى العام فى رعاية هذه النهضة الاجتماعية المختلفة النواحي والتى لم نشر منها هنا الا الى قليل نذكر ما كان من حماسة الرأى العام لتمثال نهضة مصر . لو أن هذا التمثال كان قبل الحرب لوجد من يقوم فى وجهه باسم الدين أو باسم آخر . لكن قوة التيار يومئذ جعلت الأصوات جميعاً ترتفع محبذة وتعضد الفن ورجال الفن وتدفع بالفنون الجميلة الى نهضة ظلت قوية زمناً غير قليل

وكما جرف تيار الرأى العام الرجعية وجعل الحرية المطلقة لا يقيد منها غير الاعتبار القومى كذلك جرف الصحافة ودفع بها جميعاً لمناصرة النهضة الاجتماعية التى كان يرعاها كما دفع بها لمناصرة الآراء السياسية التى كان ينادى بها . وانك ليأخذك العجب اليوم اذا حاولت أن تقارن بين صحافة سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٢١ و بين هذه الصحافة نفسها فيما تلا ذلك من السنين . خضعت الصحافة الى تيار الرأى العام يومئذ وجعلت تغذيه وتقويه وتمد له فى أسباب سلطانه وسيادته . ولوان الزعماء السياسيين الذين كانت البلاد تنظر اليهم يومئذ بملء الثقة أتاحت الظروف لهم أن يولوا النهضات الاجتماعية ما هى جديرة به من رعاية لاستمرت مظاهر النشاط الاجتماعى ولرأينا فى مصر اليوم من آثارها أضعاف ما نرى . لكن هؤلاء الزعماء الفوا أنفسهم بأزاء قوى سياسية اضطرتهم الى أن يحصروا نشاطهم فى الميدان السياسى وأن يتركوا الميدان الاجتماعى يغذى نفسه بمقدار ما يستطيع الافراد الذين وجهوا جهودهم لنمائه وقوته . بل انصرف هؤلاء الافراد هم الآخرون الى نواح من النشاط السياسى كما حاولت القوى السياسية المختلفة أن تستغل هذا النشاط الاجتماعى لفائدتها . ونشأت على مر السنين عن ذلك نتيجته الطبيعية : فتور الرأى العام بازاء مظاهر النشاط الاجتماعى بمقدار انقسامه تحت ضغط القوى السياسية المختلفة

وترجع العلة فى هذا الى الوضع السياسى الخاص الذى تخضع مصر لأحكامه والذى لا يوجد له نظير فى غيرها من الأمم . ففى الأمم الأخرى يقوم النضال عادة بين فكرتين تؤيد كل واحدة منهما قوة أو مجموع من القوى وينحاز الرأى العام بوزنه الى ناحية أو الى الأخرى ، هاتان الفكرتان تدوران جميعاً حول النظام الذى يجب أن يجرى عليه الحكم فى البلاد . أهو يجرى على اعتبار أن الحكومة قوة مستقلة عن الأمة متحكمة فيها بدعوى العمل لخيرها كما يتحكم الأب فى ابنه والوصى فى القصر الذين يكونون تحت وصايته واذن فهذه الحكومة تستمد سلطانها من قوة اكبر هى قوة الفتح أو الغلب أو

هو السلطان الدينى الذى يجعلها خليفة الله فى الأرض والوكيل عنه على عباده . أم هو يجرى على اعتبار أن الحكومة وكيل عن الأمة خاضع فى تصريف شؤونها لسلطان رأيها العام . وبعبارة اكثر ايجازاً وتحديداً : أهو يجرى على طريقة استبدادية أوتوقراطية أم هو يجرى على طريقة نيابية ديمقراطية . وقد انتهت الفكرة الديمقراطية بالتغلب حتى فى البلاد الخاضعة لنوع من الاستبداد الدكتاتورى لأن الدكتاتور الذى يقوم فى العصر الحاضر يزعم دائماً أن الشعب راض عنه وان لم يتمكن من إظهار علائم هذا الرضى بصورة حرة لأسباب خاصة . ومن أجل هذا قيل أن الصحافة سلطة رابعة الى جانب السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية لأن الصحافة تعبر عن اتجاه الرأى العام وتنطق بلسانه . ولما كان الرأى العام هو السلطة العليا التى تستمد السلطات جميعاً منها وجودها كانت الصحافة هى التى ترشد تلك السلطات وتوجهها وكان لها من القوة ما أتاح للسنيور موسولينى أن يقول فى أول عهد حكم الفاشست فى ايطاليا : انه قدير على الاستغناء بالصحافة عن البرلمان . فى الأمم الديمقراطية التى غلب فيها حكم الشعب وأصبح الرأى العام مصدر السلطات أصبحت الحكومة أداة اجتماعية خاضعة لرغائبه تعمل فى حدود رضاه ، ولا بقاء للوزارة التى تهيمن عليها ما لم تكن حائزة لهذا الرضاء . وفى مصر يقال اليوم وقيل قبل اليوم أن هذا المبدأ هو الذى يجرى عليه الحكم كذلك . وفى دستور مصر أن مصدر السلطات كلها الأمة . والطبيعى الذى يقره العقل أن هذا معناه أن نظام الحكم فى مصر استقر على صورة معينة كاملة أو ناقصة ولكن مسلم بها من جميع المقيمين فى البلاد ، مسلم معها بأن للامة ولرأيها العام السلطان الأتم فى الأمور جميعاً . وقد ظن أن الأمر كذلك يوم كانت هذه الفورة التى أشرنا اليها وفى بعض السنين التى تلتها . لكن الزمن أثبت أن الواقع غير هذا وأنه اذا لم يكن الحكم فى مصر يجرى على قاعدة أوتقراطية استبدادية مطردة فأنه يخضع لعوامل كثيرة لايخضع لها فى غير مصر من البلاد . فهناك الاحتلال الانكليزى وهناك الأمتيازات الأجنبية وهناك الأجانب المقيمون فى مصر ، وهناك السلطان المالى الأجنبى ، وهذه كلها قوى إذا القت بوزنها فى ناحية أو فى الأخرى ،ناحية الأوتوقراطية أو ناحية الديموقراطية أفسدت ميل الرأى العام المصرى الصحيح لأيهما وجعلته سريعاً الى القلق والى الأضطراب وعدم الثقة بقوة سلطانه . وقد أبدت تلك القوى فى تلك السنوات الأولى عطفاً ظاهراً على

الديمقراطية المصرية . لكنها من بعد ذلك جعلت ترجح كفة وترجح أخرى حسبما تقضى به عليها المصالح التى تمثلها .

كان لهذا الظرف نتائجه الطبيعية . بدأ التباين الذى كان قبل الحرب بين الميول والآراء يعود الى الظهور وأن فى صور مختلفة . واستغلت تلك القوى ومن ناصرها من المصريين هذا التباين بتشجيع أضعف الميول وأشدها عجزاً . والقت فى روع ذوى الميول الرجعية ما شجعهم على البروز الى ميدان الحياة بعد أن كانوا قد اختفوا منه أو كادوا يختفون إلى غير عودة . وهى فى هذا قد لجأت الى سياسة مادية مكشوفة . فهذه الطائفة من الناس كانت تعيش عيشاً ضنكا ولا تمكنها ملكاتها ولا مواهبها من كسب مشجع على الاستمرار فى صفوف الطائفة . فلنزد فى كسبها المادى لتكون فى قبضة يدنا نوجهها كما نشاء . وهذه الطائفة قسم من الرأى العام كان قد بدأ يندمج فى عناصره الصالحة ويأخذ من قوتها بأسباب قوته . لكن هذا الاستغلال أعادها الى مثل موقفها الأول والى مثل آرائها الأولى . فلتقف اذن حجر عثرة فى سبيل الرقى الأجتماعى ولتحاول أن تخلق حول المنشآت الاجتماعية الحديثة التى آزرها الرأى العام جواً فاسداً ان لم يستطع القضاء عليها قلل من قوة نشاطها واندفاعها . ولم تقف هذه السياسة المادية عند ذوى الميول الرجعية . بل امتدت إلى طوائف العمال الذين وعدوا منذ سنوات ماضية باصدار تشريع ينظم حالهم ثم لم يصدر هذا التشريع بعد ووقف الأمر عند ارضاء زعماء العمال فى صور مختلفة من الرضاء ، وامتدت كذلك الى الشبيبة والى طلبة المدارس والى الموظفين والى كل من أمكن أن تمتد اليه ومن عهد فيه أن يكون ذا أثر عند التفكير فى تحويل دفة الرأى العام إلى ناحية أو الى أخرى تحويلا ان لم يوجهه توجيها إيجابيا أو سلبيا فأنه يقفه مذعنا لكل أمر واقع يحل بمصر مهما بلغ من انكاره لهذا الأمر الواقع فى أعماق نفسه

اذا وصل الرأى العام الى هذه الحال من التشعب والتمزق ضعفت قوته على الرقابة الاجتماعية رقابة تشجع ما يحسبه نافعاً وتقف فى سبيل ما يعتقده ضاراً ، ومن المستطاع ملافاة حظ عظيم من هذه الحال لو أن الزعماء الذين يثق بهم الشعب وقفوا من الشؤون الأجتماعية موقفاً مستقلا عن نشاطهم السياسى فلم يأبوا أن يشجعوا ما يرونه جديرا بالتشجيع ولوكان المحرك له من خصومهم أو يقفوا فى وجه ما يخشون نتائجه الأجتماعية البعيدة أو القريبة ولو كان المحرك له من أنصارهم . وأخشى أن أقول ان هؤلاء الزعماء

لم تمكنهم الظروف من القيام بهذا الواجب على وجه يوازن مجهود تلك القوى التى تخرج بالرأى العام عن الطريق الطبيعى الذى كان يسير فيه لو أنه كان فى ظروف عادية كالتى تواجه الرأى العام فى غير مصر من الأمم. قد يكون لهؤلاء الزعماء من العذر أن مقاومة تأثير هذه القوى فى مراقبة الرأى العام لشؤون مصر الأجتماعية غير ممكن حتى ترد هذه القوى الى أقرب الميادين للحياة الطبيعية. وهذه حجة لها من غير شك قيمتها ووزنها. لكننا نعتقد ان حسن توجيه الرأى العام فى الشؤون الأجتماعية من شأنه أن يزيده قوة فى الناحية السياسية لأنه إذ ذاك يلمس ما تعطل هذه القوى من تطور حضارة مصر الى الحد الذى يجب أن تصل اليه فيكون منها على حذر ويكون أقل خضوعا لها، ثم يكون فى نفس الوقت بمنجاة من أن يقع تحت تأثير المصريين الذين يعاونون هذه القوى المعطلة حرصا على مطالبهم العاجلة و بسبب اسراع اليأس الى نفوسهم من الناحية السياسية. وهذا رأى أراه من ناحيتى وجيها وأعتقده ينطوى على جانب من الحق عظيم.

واذا كان لنا أن نبدى بشأن الزعماء مثل هذه الملاحظة فانا يجب كذلك أن نوجهها للصحافة. فقد طغت الوجهة السياسية عليها طغيانا جعلها تقف من الشؤون الأجتماعية عند التسجيل ورواية الأخبار ولا تأخذ فى التوجيه الاجتماعى بالنصيب الواجب أن تأخذ به. وكثيراً ما فكرت أنا كصحفى فى هذا وفى الواجب على أن أقوم به. لكننا معشر الصحفيين نرى الجمهور منصرفا الى الناحية السياسية انصرافا يجعله يمر على ماسواها من غير أن يأبه لها أو يعنى بها، بل من غير أن يقرأ ما يكتب فيها. ثم أحسينا معشر الصحفيين نجد الميدان السياسى أسلس فى الكتابة قياداً كما أنا فى شغلنا بهذه التقلبات السياسية العنيفة المتصلة التى كانت مصر مسرحا لها منذ سنة ١٩١٩ لم يقف أحدنا عند مسألة من المسائل الزمن الكافى الذى يسمح له بتقليبها وتمحيصها والوصول الى الأيمان بها إيمانا لا سبيل معه الى أن تصرفنا أحداث السياسة أو غير احداث السياسة عنها. ثم أن السياسة دخلت فى مصر فى كل شىء واخضعت لسلطانها كل شىء وكل طائفة من الطوائف حتى من لا صلة لعملهم قط بالحياة السياسية. اخضعت رجال الدين والمعلمين وطلبة المدارس والعمال والعمد والفلاحين والموظفين ورجال المهن الحرة من أطباء ومحامين فصرت اذا رفعت صوتك بدعوة اجتماعية من أى نوع كان، لم يكن تقدير المصلحة العامة وحده هو الذى توزن به الأشياء، بل كانت الأعتبارات السياسية هى صاحبة الحكم الأول والأخير فى

الأمر . ولم ينس احد الحركة التى قامت منذ بضع سنين لأحلال القبعة محل الطربوش كغطاء للرأس وقرار جمعية الأطباء بما فى ذلك من الفائدة ثم تداخل السياسيين فى الأمر وتقدم رجال الدين للفتوى فى أمر القبعة والطربوش ، ورجال الوطنية للقول فيما اذا كان الطربوش شعارا قومياً أم لم يكن . يومئذ وقف الرأى العام ووقفنا نحن الصحفيين فى حيرة لم يكن مصدرها أن الطربوش خير من القبعة أو أن القبعة خير من الطربوش وانما كان مصدرها ما اذا كان الأخذ برأى دون آخر ينصر حزبا سياسياً على حزب آخر أو على الأقل يكون له شىء من التأثير بالفائدة أو بالمضرة على ما لحزب أو لآخر من السلطان

على أن الأخذ والرد والجذب والشد وهذه الهزات العنيفة المتوالية التى شهد الرأى العام المصرى المستنير ، ان كانت قد ترتب عليها شىء من فتوره بازاء الشؤون الأجتماعية ، فهى قدا أثمرت عنده من قوة الملاحظة والنقد أضعاف ما كان له قبل الحرب وفى اعقابها ، كما أنها جعلته يعتبر الحرية فى مظاهرها الصحيحة مقيـــاس الحكم على ما للاشياء من فائدة .الحرية يتمتع بها الغنى والفقير والقوى والضعيف . وبهـذا المقياس أصبح ما يمكن لهذه الحرية من المنشآت والنظريات موضع تأييده وعنايته كما أصبح ما يضعف منها موضع اعراضه أو ازدرائه أو قلقه

قد تكون احداث السياسة التى أشرنا اليها جعلته لا يبدى من الحرارة فى التأييد وفى الأنكار بازاء الشؤون الأجتماعية ما يقوم الرأى العام به فى بلاد لا تخضع الى الأقدار التى تخضع لها مصر . لكن هذه الظاهرة الصالحة ، ظاهرة قوة الملاحظة والنقد عنده تبشر المستقبل بأحسن الثمرات . ذلك بأن الموقف السياسى لا بد له من أن يصـل الى نوع من الاستقرار على صورة من الصور فى زمن طويل أو قصير . وعندها تعود الشؤون الاجتماعية لتأخذ مكانتها الأولى من عناية الناس واهتمامهم . ويومئذ يكون ما أفاده الرأى العام المصرى من ملاحظة ونقد جديراً بأن يجعل رقابته الشئون الاجتماعية كفيلة بأن تدفع الصالح من هذه الشؤون الى الامام وأن تقف فى وجه الضار منها بما يبعد عن الجماعة أذاه . ويومئذ تؤدى الصحافة على وجه صالح مهمتها فى الرقابة الاجتماعية بما يجعلها مستقلة فى ذلك عن احداث السياسة استقلالا يسمح لها بأن تعير هذه المهمة السامية أعظم عناية .

حضرة صاحب العزة احمد بك صفوت
رئيس محكمة شبين الكوم الأهلية

التنظيم الاجتماعى بواسطة الحكومة

لحضرة صاحب العزة احمد بك صفوت

اختص كل موضوع من الموضوعات السابقة بتنظيم حالة اجتماعية معينة كالصحة العامة والتسلية والتجارة والعمل والعمال .

اما هذا الموضوع فيعم سائر الأحوال الاجتماعية لمعرفة مدى إمكان تنظيمها بواسطة ادارة الحكومة والى أى حد تقوم الحكومة بها .

ولا يخفى أن ادارة الحكومة لا يجوز لها أن تتعرض للمسائل الاجتماعية الا عند الحاجة القصوى وعند عجز الأفراد عن تنظيمها بأنفسهم ، لقلة مواردهم أو لضعف الابتكار والتنظيم عندهم .

وسأبدأ ببيان معنى التنظيم الاجتماعى ثم بتحديد اختصاص الحكومة فيه ثم ببيان المدى الذى يتسع اليه هذا الاختصاص فى الوقت الحاضر .

ومراعاة لضيق المقام سأختصر واتجاوز عن التعاريف والاصطلاحات العلمية اكتفاء بتقرير الواقع .

معنى التنظيم الاجتماعى

تفرض الحياة الاجتماعية على الانسان واجبات لا بد من مراعاتها وتقوم إما على الآداب morals والتقاليد traditions وإما على القانون ، ولزيادة الأيضاح أضرب مثلا مقابلا أرقى بلد فى التنظيم الاجتماعى ببلدنا واجعل المقابلة بين الأفراد وبين الجمعيات.

فبين الأفراد نقابل حياة عمدة من أعيان الريف يقيم فى القاهرة بحياة رجل أمريكى هو جناب المحترم المستر كليلاند رئيس قسم الخدمة العامة . فلنقابل بينهما فى حياتهما اليومية فى العمل وفى التسلية وفى تنظيم أوقات الطعام وفى آداب المائدة وفى المقابلات ولنتصورهما معاً يسامران فى حفـــلة سيدة مهذبة . ولا حاجة بى الى تصوير كل منهما لكم فى هذه الحالات .

وفيما بين الجمعيات أقارن الجامعـــة الامريكية تقوم بها جمعية بالجامعة المصرية الأميرية قام بها أفراد وعجزوا عنها وتقوم بها الحكومة . وأقارن نقاباتهم ومصارفهم التى بلغت ذروة التنظيم والاحتكار ، فكل صناعة أو تجارة تكاد تكون محتكرة بين شركات منضمة بعضها إلى بعض فى مجلس واحد trust ، بنقاباتنا ومصـــارفنا وعصاباتهم بعصاباتنا .

فالتنظيم الاجتماعى يزداد كلما تحضرت الأمم وازدحم السكان ويقـــل جداً كلما بعدنا توغلا فى بدء الحياة الاجتماعية . ولذلك هو أظهر فى المدن منه فى قرى الريف . وأساسه المحافظة على صحة الفرد وتحسين طرق معيشته وتوفير الرغد والهناء له . انما اذا أراد الفرد القيام بكل شىء لنفسه عجز . لذلك تقوم الحكومة به لمصلحة الجميع فتكون أقل تكاليف واكثر إنتاجاً

ولكى ندرك ذلك حسبنا أن نقابل التنظيم الاجتماعى فى المدن بالتنظيم الاجتماعى فى الأرياف . فسكان شارع قصر العينى يستيقظون صباحاً فيجدون عمالا كنسوا الشارع أمام منازلهم . وسبق ان غرسوا لهم فيه أشجاراً تجمله وتظللهم . ويجدون تراماً ينقلهم والماء والنور والتليفون متوفرة فى منازلهم . ومواســـير تحتها تنظفها لا يعلمون متى ركبت ولا أين تنتهى . والمدارس قريبة لأولادهم من روضة الأطفال الى الجامعة الى قسم الخدمة العامة . ويجدون بوليساً يعمل لراحتهم ليلا ونهاراً . ويجدون أنواع المستشفيات قريبـــة منهم من قصر العينى الى العباسية . وأنواع التسلية الرياضية نهاراً والنفسية ليلا على قيد خطوات منهم . والفقراء يجدون مطاعم الشعب والعيادات المجانية قريبة اليهم .

فشارع قصر العينى اكثر الأحياء تمدنا وتنظيما اجتماعياً . أما ساكن قرى الريف فيكنس بنفسه أمام منزله . ويوقد بنفسه النار ليلا فى منزله . ولا يجد سائر الأشياء

التى يتمتع بها ساكن قصر العينى . فهـذا هو التنظيم الاجتماعى فى مظهره الفعلى بعضه تقوم به الحكومة وبعضه يقوم به الأفراد بالتعاون فيما بينهم .

التنظيمات الاجتماعية التى تقوم بها الحكومة فى مصر

ليست التنظيمات الاجتماعية واجبة أصلا على الحكومة وهى لا تقوم بها إلا عند عجز الأفراد عن القيام بها لأنفسهم إما لعـــدم توافر رأس المال عندهم وأما لفقد قوة الابتكار لديهم أو ابتغاء المصلحة العامة من قبل الحكومة .

وأحسن مثل يوضح ذلك تاريخ نشوء الجامعة المصرية فقد فكر فيها أفراد أنشأوها وعجزوا عن القيام بها لما تحتاج اليه من مال ومجهود مستمر فقامت بها الحكومة . والجامعة الامريكية قام بها أفراد قادرون . وفى الأمم الراقية الغنية يقوم الأفراد بكثير من أعمال البر وتنظيم أحوال الفقراء بانشاء ملاجىء ومدارس ومطاعم ومستشفيات لهم ونقابات لترقية سائر أحوالهم

والواجبات الحكومية الأساسية التى لا تقوم حكومة بدونها هى حفظ الأمن فى الداخل والخارج بالبوليس والجيش وضمان الحقوق بالمحاكم وحماية الضرائب للانفاق منها . والدليل على أن هذه هى الواجبات الاساسية انها هى كل ما قامت به الحكومات القديمة وهى كل ما يقوم به رؤساء القبائل وهى الواجبات الوحيدة التى تقوم بها الآن الحكومة فى قرى الريف فلا يعرف سكانها من فضل للحكومة عليهم إلا حفظ الأمن بطريقة غير كافية وضمان الحقوق بطرق معقـــدة متعبة ثم جباية الضرائب . أما سائر التنظيمات الاجتماعية التى ينعم بها ساكنو شارع قصر العينى فهم منها محرومون .

وفيما عدا هذه الواجبات الأساسية نرى الحكومات الآن تقوم بأعمال كثيرة جدا لم تقم بها الحكومات فى العصور الماضية . نراها مثلا تقوم بادارة البريد ولم يكن البريد واجباً على الحكومات القديمة فكل شخص كان يرسل بريده على يد رسول . وتراها تقوم بادارة السكك الحديدية و بادارة التليفونات وكان ذلك قبلا فى أيدى شركات . ونراها تقوم فى بعض المدن الكبرى بالانارة وترشيح المياه وبيعه للاهالى .

وهذه الأعمال جميعها فيها وجهة اقتصادية لأن الحكومة تربح منها جميعها وتقوم بادائها لأنها أعمال تعم سائر الناس ولا يمكن إلا أن تقوم بها هيئـــة واحدة تحتكرها

وتكسب منها لأن اكثر الناس يشتركون فى الانتفاع بها فبدلا من أن تحتكرها شركة تحتكرها الحكومة وتستغلها .

وهناك أعمال أخرى عامة غير رابحة تتولاها الحكومة وتنفق عليها مالا كثيراً وهى ليست من واجباتها كادارة التعليم بسائر أنواعه من رياض الأطفال والتعليم الالزامى والتعليم الصناعى والتجارى الى الجامعة الأميرية والازهرية . ولم يكن التعليم من واجبات الحكومة قبلا . وكالعناية بالصحة العامة التى لها فى مصر وكالة وزارة وفى كثير من البلاد لها وزارة مستقلة .

هذه الأعمال بنوعيها من تجارية وغير تجارية هى أعمال عامة نافعة تقوم بها الحكومة لأنها تمس كل الناس أو أغلبهم ولذلك تسمى بالأعمال ذات المنفعة العامة œuvres d'utilité publique وقد مثلت عليها لتبيان نوعها وهى متعددة

فقد أصبح من واجب جميع الحكومات تناول كل المشاريع ذات المنفعة العامة من مد الطرق وشق الترع واقامة المعارض وتنظيم الموانى وأسواق الحاصلات ، والعمل على تنمية جميع الموارد من زراعية وصناعية ، ومكافحة الآفات والأمراض البشرية والحيوانية والنباتية .

ونراها تقوم بنوع آخر كمطاعم الشعب وملاجىء العجزة ومستشفيات مجانية وصندوق التوفير ومساكن للعمال ومنع تشغيل الأحداث فى المحالج وانشاء لجنة للتوفيق بين العمال وأرباب العمل . ومقاومة البطالة وتنظيم أحوال العمال على وجه العموم وانشاء النقابات الزراعية . وهذا النوع الأخير من الأعمال لا ربح منه ويحتاج الى نفقات كبيرة ولا يعم كل السكان بل يخص فريقاً أو طائفة هى طائفة العمال أو صغار الزراع . أو على العموم يمس الفقراء من الأهالى .

والحكومة تقوم به تحسيناً لحالهم وترقية لهم من الوجهة الصحية أو المالية أو الاجتماعية وهذا ما يطلق عليه التنظيم الاجتماعى الحقيقى . والحكومات جميعها تقوم به للاسباب الآتية : —

(١) عجز الفقراء عن مقاومة ضغط الحالة الاجتماعية لضعف مواردهم وجهلهم .

(٢) ان تركهم عرضة للحاجة ونتائجها الوخيمة يؤدى الى انتشار الاضراب والافكار الثورية ويضعف قوة الانتاج فيهم .

(٣) ان تفشى الامراض فيهم يؤدى الى أخطار عامة لأن الأمراض لا تقف عند حدود منازلهم بل تتعداها الى منازل الأغنياء .

(٤) ان فى ترقية أحوالهم على العموم رفع مستوى الأمة العام لأنهم من الأمة بمثابة القاعدة من الهرم فاذا ارتفعت القاعدة وقويت وتجملت ازداد البناء متانة وصلابة وجمالا .

وقد بلغت عناية بعض الدول الاوربية بأحوال الفقراء حد التدليل والرفاهية فللعاطلين فى انكلترة اعانة وكان بعضهم يستغنى بها عن السعى للعمل و يتنزه فى باريس أيام نزول قيمة الفرنك . وللعمال تأمين ضد الامراض . ولهم أطباء يعالجونهم بنصيب من هذا التأمين . ولهم تأمين ضد الشيخوخة فمن شاخ منهم يتناول معاشاً . فضلا عن تحديد ساعات العمل ونقص الأجور .

وقد كانت العناية بالفقراء آخر القرن الماضى تعتبر فرضاً دينياً على الأغنياء . وكان هذا الفرض يؤدى فى بعض الأوساط تأدية تامة . ولمثل ذلك شرعت الزكاة وجعل الاحسان من وجوه البر والثواب . وكان الاحسان الى القرن الماضى كافياً للقيام بهذه الوظيفة الاجتماعية . وظيفة معاونة الفقير وتحسين حاله . فلما ازدحم السكان وتنوع توزيع الثروة واشتدت حاجة الفقراء شعر بالضرر العام الناتج من تركهم عالة على عاطفة الاحسان واتضح أنه من مصلحة الأمة كلها أن تترقى معيشة الفقير فيبعد عنه شبح العدم وشبح الامراض . فتحول القيام بذلك من فرض كفاية يقوم به الأغنياء من تلقاء أنفسهم الى واجب اجتماعى تقوم به الدول وتجبى من أجله الضرائب .

ولن أقصر بحثى على التنظيم الاجتماعى للفقراء بل سأتناول ذكر الاعمال ذات المنفعة العامة أيضاً لأنها نوع آخر من التنظيم الاجتماعى العام لكل السكان .

ولكى نميز بين التنظيم العام وبين التنظيم الاجتماعى أى بين الأعمال ذات المنفعة العامة للجميع وبين أعمال البر بالفقراء والعناية بهم نركن الى مقياس لا يخطىء . فالاعمال التى يستفيد منها الاغنياء و ينتفعون بها هى أعمال ذات منفعة عامة وهى تنظيم عام والاعمال التى لا ينتفعون منها هى التنظيم الاجتماعى الحقيقى الخاص بعامة الشعب

فالأغنياء أمثال البدراوى عاشور وأمين فكرى طموم ينتفعون بالطرق والمدارس وقد ينتفعون بمضخات اطفاء الحريق وبجمعيات الاسعاف لكنهم لن ينتفعوا أبداً بصندوق التوفير والمستشفيات العامة ومساكن العمال ومطاعم الشعب .

والآن ما الذى تعمله الحكومة المصرية من هذه الناحية

تعمل الحكومة المصرية على التنظيم والاصلاح فى ثلاث نواح معاً : —

(١) تعمل من الوجهة الاقتصادية لترقية موارد البلاد والافراد .

(٢) تعمل من الوجهة الصحية لتحسين الصحة ومنع الأمراض .

(٣) تعمل من الوجهة الاجتماعية لترقية الحالة عموماً بالتعليم و بتحسين أحوال المعيشة على وجه العموم .

(١) الوجهة الاقتصادية

تعمل الحكومة على ترقية وتحسين الحالة الاقتصادية بجهد كبير جداً لا يشعر به إلا الذين يمسهم مباشرة من الزراع والصناع والتجار والعمال . وقد زادت جهدها اضعافاً فى السنتين الأخيرتين بسبب الأزمة المالية وأظهرت نفسها حكومة قوية عاملة منظمة يحاكى جهدها جهد اكبر حكومات العالم تفكيراً وتنظيما وتنفيذاً .

و بدأت سياسة الحكومة الاقتصادية الايجابية من سنى الحرب حيث شعر بحاجة مصر الى التجهز محلياً من المصنوعات بقدر الامكان فشكلت سنة ١٩١٦ لجنة لبحث موارد مصر الصناعية وكيفية استثمارها وكانت برآسة دولة اسماعيل صدقى باشا فنشرت تقريرها وما زال هذا التقرير أساس السياسة الاقتصادية فى مصر . وبناء عليه انشئت مصلحة التجارة والصناعة . وقد بدأت بعض الصناعات تنتشر كالغزل والنسيج والدباغة وعمل السجاد و بعضها تنشأ كالزجاج والصباغة وتنظيم الصادرات وأسواق المحاصيل حتى أسواق الفاكهة والخضروات وانشئت النقابات الزراعية وأدخل النور والماء المرشح فى كثير من المدن .

وقد كللت هذه الجهود بأعمال عظيمة تمت فى السنتين الماضيتين منها انشاء بنك التسليف الزراعي ، يقرض الزراع على المحاصيل فلا يلجأون الى المرابين يبتزون أموالهم . ومشروع التسليف العقارى لمنع نزع ملكية الاطيان المرهونة بدفع قسط عنها للمصارف الاجنبية . ومشروع التسليف الصناعى لاقراض الصناع على آلاتهم

وتوصلت الى إنشاء محل للجزارة لتحديد سعر اللحوم أقبل الناس عليه ووقفوا امامه صفوفاً، والى تحديد أسعار المبيعات بالقطاعى، ثم انها تعمل لتحسين الانتاج الزراعى بجميع الطرق منها انتخاب البذور والتقاوى وتحسين انتاج المواشى والدواجن وانشاء مصانع نموذجية للالبان والجبنة والزبدة ويكفى رؤية مزرعة الجميزة بالسنطة وحقول التجارب الكثيرة بها لمعرفة مدى هذا المجهود الذى ستظهر نتائجه بعد بضع سنين.

(٢) من الوجهة الصحية

كذلك مجهود الحكومة من حيث الصحة العامة والانفاق عليها .ويكفى القاء نظرة على مصلحة الصحة سنة ١٩٣٠ لمعرفة مبلغ هذا الجهد ومداه . يبدأ بالتعاون الدولى ضد الأوبئة والامراض الوافدة ، ويشمل مكافحة جميع الأمراض ، والمباحثات العلمية فى المكروبات والجراثيم لاستئصالها .

فهنالك مصلحة الصحة البحرية والمحاجر لحماية القطر من الأوبئة التى تفد من الخارج فتراقب كل قادم وتتبعه حتى يثبت لها انه غير مصاب بأمراض وبائية . ثم انها تكافح جميع الامراض المتوطنة والوافدة وأهمها الرمد والأنكليستوما والبلهارسيا والسل وسائر الامراض المعدية .

وفى هذا السبيل عممت مستشفيات الرمد، بعضها ثابت وبعضها متنقل ويبلغ عددها ٤٦ وبلغ عدد المعالجين مجاناً سنة ١٩٣٠ - ٤،٣٥٠،٠٦٢ أى نحو ٣٠ فى ٪ من السكان

ولزيادة العناية بمرضى الريف أنشىء فى بعض المستشفيات مأوى يسكنه المريض ويبيت فيه اذا كان من بلدة بعيدة

وكذلك مستشفيات البلهارسيا والانكلستوما بلغت ٥٧ وعدد المرضى ٧٤٨،٠٨٢ كلهم يعالجون مجاناً ومستشفيات للامراض السرية عددها ١٧ عولج فيها نحو ٤٠،٠٠٠ مريض

وفى كل العواصم وبعض المراكز والقرى مستشفيات عامة عددها ٧٤ فيها ٦٤٩٥ سريراً وعدد الذين عولجوا بها سنة ١٩٣٠ نحو ٤،٢٥٥،٩٣٧ أى ٣٠ ٪ وهناك فرع خاص يعنى بالأمومة والطفولة له مستوصفات خاصة، واحد فى كل مديرية تقريباً كما فى مصر واسكندرية وأسيوط مستوصفات خيرية فيها تلد الفقيرات ويعالج

الأطفال والوالدات ، ويوزع اللبن مجاناً وبلغ عدد الوالدات فيها ٢٢،٢٨٧ وعدد الأطفال الذين عولجوا ٢٧٧،٠٦٠

وآخر هذه الاعمال ، وهو لا يقل عنها أهمية ، انشاء ٩١٤ مرحاضا صحياً فى قريتين بجهة بلبيس على سبيل التجربة لفحص نتائج علاج البلهارسيا والانكلستوما

والأعمال الصحية فى زيادة مستمرة . ففى ميزانيـــة السنة القادمة ٢٧٤،٠٠٠ جنيه للمنشآت الجديدة .

وكذلك تقوم المصلحة بنشر الدعوة الصحية على طريقـــة مبتكرة بعرض أشرطة سينمائية فى المدارس وعلى الخفراء وعلى الناس عموماً فى الموالد الأربعـة النبوى والزينبى والحسينى والأحمدى ، وفى هذه القاعة وفى الجمعية الجغرافية وعندها الآن ٣٨ شريطاً

ومن أهم ما يسعى اليه تعقيم المرضى بعقولهم حتى لا يخلفوا نسلا ضعيفاً

(٣) الوجهـــة الاجتماعية

تختص الوجهة الاجتماعية بتحسين حال الفقراء من الناحية العلميـة والخلقية بتثقيفهم بمبادىء القراءة والكتابة بالتعليم الالزامى الذى تعمـل الحكومة على نشره تدريجياً حتى يعم سائر الناس وبمدارس ليلية فترتفع غشاوة الأميـة فيقرأون بأنفسهم كلام الله المنزل ثم النشرات الصحية ويمكنهم المحافظة على حقوقهم فيمضون على السندات بدل أن يبصموا بأختامهم ثم ينكرون

وكذلك من ناحية تنظيم العمـل فالحكومة جادة فى بحث حالة البطالة وحالة العمـل لتنظيمه وتقرير يوم للراحة وتحديد ساعات العمل والحد الأدنى للأجور ولمنع تشـغيل طبقات من العمال فى أعمال لا تناسبهم سناً أو خلقاً كمنع تشغيل النساء فى الأعمال الشاقة الليلية [١] كما منعت تشغيل الأحداث [٢] والقاصرات فى البارات [٣]

---

(١) جريدة الاهرام فى ١٩ مايو سنة ٩٣٢

(٢) قانون نمرة ٤ سنة ١٩٠٩

(٣) قانون نمرة ١ سنة ١٩٠٤

ثم انها تسعي فى بناء مساكن نموذجية صحية للعمال وأقامت فعلا أبنية واسعة بجهة السيدة زينب الا أنها جاءت أرقى من حالة العمال فسكنها غيرهم . وتسعى الآن لجنة بوزارة المالية فى تنظيم بناء مساكن لهم مكان تل زينهم وراء السيدة زينب . وأنشأت لهم مطاعم عامة رخيصة ، أربعة فى القاهرة وواحداً فى كل عاصمة تقريباً ، وصندوق التوفير فى البريد تقبل فيه الودائع من خمسة قروش ، وآمنت صغار الزراع على أرضهم فحرمت نزع ملكية ما دون الخمسة أفدنة .

ثم ان الحكومة تعين جميع الملاجىء التى تقوم بها الجمعيات الخيرية ومن أهمها ملجأ العميان والصم والبكم .

وعممت مضخات أطفاء الحريق وجمعيات الاسعاف فى سائر العواصم وبعض المراكز . واشتركت فى مؤتمر العمل الدولى بجنيف سنة ١٩٣٢ وأنابت عنها معالى فخرى باشا .

وتقوم بتنظيم مصايف لأولاد الفقراء لتصييف ثلاثة آلاف منهم كل سنة مجاناً وتقوم بذلك لجنة من الأعيان برآسة محافظ القاهرة وعناية دولة صدقى باشا ورعاية جلالة الملك .

وشرعت فى إيواء العجزة المتسولين توطئة لمنع التسول وتقوم بذلك لجنة برآسة محافظ القاهرة ورعاية دولة رئيس الوزراء

والمحاكم تقبل دعاوى الفقراء بدون دفع رسوم

ومن آخر وألطف ما قامت به تنظيم طائفة الصعايدة بالاسكندرية وانشاء ناد لهم يحسم الخلافات بينهم بطريقة ودية وكانت تؤدى الى الانتقام بالقتل ، وقد قرأت بالجرائد أن هذه السلطة نفسها تسعى الى تنظيم طائفة الفتوات والخدمة والبوابين النوبيين .

فهذا مجهود الحكومة وهو كبير مستمر ومتسع وشديد ، ولا أقول أن أعمالها نحو الفقراء وسعت كل شيء فنحن فى بدئها ، ولا نهاية الا بالقضاء على الفقر وايجاد التوازن بين الثروة وعدد السكان . ولا تزال أعمالنا قاصرة عن أن تشمل جميع الفقراء وتتناول كل حاجاتهم . انما لا يمكن أن يقال ان الحكومة مقصرة نحوهم . ولا يظن أن ذلك

إحسان بل هو واجب اجتماعي نشعر به ويجب أن نقوم به لأن الأمة جسم واحد الفقراء أعضاء فيه وما دام عضو ضعيفاً أو عاجزاً فالجسم كله ضعيف عليل .

فالدولة قيمة أو وصية على الشعب تعمل لمصلحته ما يعجز الأفراد عن عمله لأنفسهم بأنفسهم إما لضعف الابتكار فيهم ولجهلهم وإما لعجزهم مالياً . أما الطبقات المتوسطة فيمكنها دائماً أن تنظم أحوالها بنفسها وهم يعملون لذلك فالموظفون مثلا وهم الطبقة المتوسطة ذات الدخل الثابت بدأوا ينشئون نقابات تعاونية لسد جميع حاجاتهم .

وقد شرع فى أكثر وأغلب الأعمال التى عددتها فى عهد الحكومات الوطنية أى من سنة ١٩٢٢ الى الآن وكلها فى عهد جلالة الملك بوحيه ورعايته .

هذا ما تم فى عشر سنين وهو حقاً مجهود يجب أن نذكره بالحمد والشكر

الاستاذ سابا حبشى
المحامى

علاقات مصر الدولية

لحضرة الاستاذ سامي مهنى

(١)

تناولت الموضوعات السابقه البحث عن العوامل الداخلية التى أثرت فى تكوين مجتمعنا المصرى بحالته الراهنة سواء اختصت هذه العوامل بالمكان الذى وضعتنا فيه الطبيعة أم بالبيئة البشرية التى نحن منها أم بنشاطنا فى الأخذ بأسباب الحياة .

وقد بقى عنصر هام من العناصر المؤثرة فى نشوئنا الأجتماعى — ليس داخليا مما بيننا أو حولنا وانما هو خارجى عنا — وهذا العنصر هو علاقات بلادنا بالدول الأخرى

وسأتناول فى بحثى أولا أهمية العلاقات الدولية كعنصر من العناصر المؤثرة فى نشوء المجتمع واهمية علاقات مصر الدولية على الخصوص . ثم أثر علاقات مصر الدولية فى تاريخها القديم .

وانتقل منه إلى بيان أثر علاقات مصر الدولية فى تاريخها الحديث وفى أحوالها الأجتماعية الحاضرة .

وفى هذا القسم الأساسى من موضوعى احتاج على الخصوص الى طول اناة القارىء وسعة صدره لصعوبة البحث ودقته .

أما صعوبته فلأن مهمتى ليست مهمة المؤرخ الذى يتولى سرد الحوادث واستنباط ما بينها من علاقات وانما هى مهمة الباحث الأجتماعى الذى يتوخى دراسة الأثر الذى تنتجه الحوادث فى أحوال المجتمع وفى مجرى نشوئه .

أما دقته فلأن الموضوع شائك قد يضع الباحث بين عاملين — حبه لوطنه وحرصه على كرامته وحبه للعلم وحرصه على أن يتوخى الحقيقة المجردة فى بحثه .

على أننى اعتقد أن عاطفة حب الوطن وعاطفة حب الحق لا تنافر بينهما لأن الوطن يخدم بالحق لا بالأهواء ويعتز بمواجهة الواقع لا بالأوهام .

ثم أن البحث الذى نقوم به بحث اجتماعى وليس بحثا تاريخيا — غير أن التاريخ يقدم المادة التى يبنى عليها الأجتماع مباحثه .

لهذا لا نتعرض للحوادث إلا بالقدر الذى يستدعيه الحال لبيان أثرها فى نشوء أحوال مجتمعنا المصرى مادياً وأدبياً .

اذا راجعنا تاريخ بلادنا الحديث تبين أن أهم الحوادث التى وقعت فيه بالنسبة الى علاقاتنا الدولية ما يأتى —

أولا — الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١) وحكم محمد على باشا .

ثانيا — حفر قناة السويس .

ثالثا — المنافسة الأنجليزية الفرنسية وتغلب النفوذ الأنجليزى فى آخر الأمر وتقهقر النفوذ الفرنسى أمامه .

رابعاً — علاقاتنا بالدول الأخرى ونظام الأمتيازات الأجنبية والقضاء المختلط وقد نتطلع ببصرنا إلى المستقبل لنحاول أن نتكهن بما يخبئه القدر لبلادنا العزيزة فى خاتمة هذا الموضوع .

(٢)

أهمية العلاقات الدولية كعنصر من العناصر المؤثرة فى نشوء المجتمع وأهمية علاقات مصر الدولية على الخصوص .

الأمم والدول لا تعيش الواحدة منها بمعزل عن الاخرى ولكنها تلتقى فى الحرب والسلم وتتصل بعضها ببعض بعلاقات الأخذ والعطاء والتجارة والسياحة والصداقة والمودة والتحالف أو تنقطع علاقاتها فتلتقى فى الحرب والعدوان والغدر والغزو .

وكلما ازدادت المواصلات سرعة ازدادت الصلات توثقاً وقرب تحقيق ذلك الحلم الذى ينسجه خيال الحالمين من محبى خير البشرية حول جنيفا مقر عصبة الأمم ، وهو ان يدرك الجميع أن الدول ، وأن تعددت واختلفت وتباينت فى انظمتها وأغراضها وسياستها ، هي أعضاء فى جسم واحد هو الأنسانية تتضامن فى الخير والشر وفى الألم والصحة وتتعاون على تحقيق الغرض الأسمى وهو السلام والرفاهية والسعادة للعالم الأنسانى أجمع . وقد كانت بعض الأمم فى الماضى تباهى بأنها فى عزلة عن المشاكل الدولية فكانت انجلترة تعتز بوحدتها Splendid isolation وكانت أمريكا تحرص على مذهب منرو Monroe Doctrine

أما الآن فليس من المستطاع أن تتجاهل دولة ما يجرى عند الأخرى أو ان لا تتأثر

به. لقد كانت المسافة بين البلد الواحد والبلد الآخر تقاس فى الماضى بالسنة للسريع المجتهد. أما الآن فتكفى سحابة نهار وظلمة ليل للانتقال بالمراكب الهوائية من قارة إلى قارة ولعبور المحيط من بر إلى بر. وقد سمعنا مؤخرا كيف اجتاز منطاد جراف زبلن فى يوم وبعض يوم القارة الأوربية ووصل إلى اقاصى آسيا الشرقية، فأصبح ذلك الشعار الذى كانت تتباهى به بعض الممالك (اسبانيا) وهو non sufficit orbis حقيقة عن البشرية بأجمعها على أنه الى أن يحين الوقت الذى يكمل فيه التضامن الدولى ويعم السلام ربوع المسكونة يتعين على كل دولة فى تصريف أمورها الداخلية وتنظيم أحوالها أن تحسب حساب علاقاتها الداخلية بجاراتها.

فى السياسة تنازع بقاء بين الدول كما أن فى الطبيعة تنازع بقاء بين المخلوقات فقد تقضى العلاقات الدولية على إحدى الدول أو على احدى الأمم بأن تتكيف بتكيف مخصوص بل أن تتخلق بخلق مخصوص.

ما الذى جعل المانيا وفرنسا أمتين حربيتين ورقى فنون الحرب البرية فيهما. ما الذى جعل انجلترة أمة بحرية متاجرة، وغرس فى الانجليز حب السياحة والأستعمار وتعمير الأقطار البعيدة. تنازع البقاء الدولى الذى قضى عليها إما أن تكون سيدة البحار وإما ان لا تكون. وقد قال انجليزى عظيم لقومه فى برلمانهم — احترسوا لأن البحر يخدمكم ولكنه يهددكم — يحميكم ولكنه يحاصركم.

كانت علاقات مصر الدولية منذ فجر التاريخ على درجة عظيمة من الأهمية بالنسبة الى مركزها الطبيعى بين العالم القديم والجديد. ففى حوض البحر الأبيض المتوسط وعلى شواطئه دار تاريخ العالم القديم. وحول مصر دار تاريخ البحر الأبيض المتوسط.

تقع مصر فى ملتقى الطرق بين البلاد والأمم — تمد ذراعيها نحو الشرق والغرب وتصل بين الشمال والجنوب وتلتقى عندها ثلاث قارات.

تمتد أراضيها الى شواطىء بحرين عظيمين يصلها أحدهما بالبحار الأوربية ويصلها الثانى بالبحار الهندية. هى مفتاح الشرق وقاعدته وأداة الوصل بينه وبين الغرب. لهذا ليس بالغريب أن يقول عنها نابليون فى منفاه بجزيرة سانت هلينا ذلك القول الذى يردده اللورد كرومر بعد قرن من الزمان فى فاتحة كتابه مصر الحديثة « مصر أهم بلد فى العالم »

قال نابليون هذا وقد كان على رأس الحملة الفرنسية — ولم تكن قناة السويس قد حفرت بعد. ولم تكن تجارة الشرق والغرب تمر فى المياه المصرية بعد.

هـذا المركز الممتاز له مزايا وعيوب — له ورد وأشواك — له شهد وإبر . وقد جنت مصر بعض هذا الشهد ولـكن لذعتها الابر . قدمت مصر جسمها ليمد الغرب يده إلى الشرق فوقه فلم تجز إلا جزاء سنمار .

(٣)

أثر علاقات مصر الدولية فى تاريخها القديم

وصلت مصر الى السماكين فى عهد الفراعنة . وأثر رقيها تأثيراً عظيما فى البـــلاد الأخرى التى أخذت عنها حضارتها وعلومها وفنونهـا .

فيخبرنا التاريخ أن الفينيقيين نقلوا حروف الهجاء من مصر الى اليونان وانتشرت من اليونان إلى سائر البلاد الواقعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط . ويخـبرنا التاريخ أن هيرودوت أبا التاريخ زار مصر وكتب عن حضارتها وعجائبها لأهل بلاده وللاجيال المقبلة .

وقد كتب العـــلامة البلجيكى Revillot كتاباً أثبت فيه أن قانون روما المعروف بالألواح الاثنى عشر La loi des XII tables مأخوذ عن القانون المصرى القديم حيث نقـله اليونان عن المصريين الأقدمين ثم أرسل الرومان عشرة رجال إلى بلاد اليونان لنسخ قوانينهم وحملها اليهم Decemviri legibus scribundis

ثم غربت الشمس على هذه العظمة ودار الفلك دورته واذا بمصر تهبط من مكانها بين السماكين إلى مرتبـــة نجم يدور فى فلك الأمم التى تناوبت صولجان القوة على ممرّ العصور وعفت حضارتها وصارت مقلدة تأخذ عن غيرها بعـــد ان كان يؤخذ عنها .

تغلب عليهـا البابليون والفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك الى أن انتهى أمرها الى المماليك وبهذا اختتمت صحيفة تاريخها الماضى واستقبلت عصرها الحديث الذى يبدأ بالحملة الفرنسية .

وقد قال نابليون فى خطاب له فى أثناء الحملة الفرنسية فى أول مجلس اختير من مشايخ مصر للتشاور فى أمورها — وكان على رأسه الشـيخ الشرقاوى — ونقل العبارة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى تاريخه « ان قطر مصر فريد فى مركزه وانه أخصب البلاد وكانت تجلب اليه المتاجر البعيدة . وان القراءة والـكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الاوائل . ولـكون مصر بهذه الصفات طمعت الأمم فى تملـكها فملـكتها بابل واليونان والعرب والترك . . . »

(٤)

أثر علاقات مصر الدولية فى تاريخها الحديث

الحملة الفرنسية وحكم محمد على باشا

يضع المؤرخون عادة بدء تاريخ مصر الحديث عند تقلد محمد على باشا زمام الحكم. ولكن الأصح أن تعتبر الحملة الفرنسية فاتحة هذا التاريخ لأن تلك الحملة هى التى مهدت الطريق وأعدته لمحمد على باشا وهي التى وضعت نواة المشاريع والأنظمة العظيمة التى وقع له تنفيذها .

لا بد أن يكون نابليون قد قرأ قول الفيلسوف ليبنتز الذى قال للويس الرابع عشر عندما أراد أن يصرفه عن غزو هولاندا ويغريه بغزو مصر حتى يدفع الخطر عن البلاد التى ولد فيها ذلك الفيلسوف « مصر هولاندا الشرق ، فاذا كانت لفرنسا السيادة على تلك البلاد كانت لها الكلمة العليا فى البحر الأبيض المتوسط وقبضت على طريق الهند ، و بعبارة أخرى على تجارة العالم »

وكان نابليون يحلم بأن يجعل من مصر قاعدة أمبراطورية شرقية عظيمة كامبراطورية الاسكندر الأكبر.

وقد تحطمت هذه الآمال مع أسطول الحملة الفرنسية فى موقعة أبو قير وفشلت الحملة فيما يختص بالأغراض الحربية والسياسية التى أريد تحقيقها . ولكن أمراً واحداً عاش فيها وسيستمر باقياً ما شاء الله له أن يبقى . وهذا الأمرهو الأثر الاجتماعى الذى أحدثته الحملة فى مصر .

ولست أجد فى بيان هذا الأثر الخالد أحسن مما كتبه الدكتور محمد حسين هيكل بك فى مطلع مقدمته لكتاب الشوقيات الذى تضمن شعر أمير شعرائنا شوقى فى السياسة والتاريخ والاجتماع .

قال الاستاذ هيكل —

« كانت مصر الى حين قدوم الحملة الفرنسية اليها فى سنة ١٧٩٨ بعيدة عن الاحتكاك بدول أوروبا وكانت بحكم خضوعها لاستبداد المماليك تحت سيادة تركيا تسود فيها الدسائس و يعمل كل من أمرائها لما يجر اليه النفع . وكانت الحركة العلمية والأدبية خامدة فيها خمودها فى سائر بلاد الدولة العثمانية . وبلغ من ذلك ان تدلى علماء الفقه

الاسلامى الذين كانوا فى مختلف العصور فخر مصر وزينتها وفتر نشاطهم وفسد انتاجهم فى ذلك العصر ، أما الأدب من شعر ونثر فلم تقم له إلى ذلك العصر قائمة منذ امتد سلطان الأتراك على مصر .

« فلما جاء الفرنسيون الى مصر وتغلغلوا فيها وسارت مع حملة الجنود حملة العلماء رأى المصريون مظهراً جديداً من مظاهر الحياة لم يكن لهم عهد به فى تاريخهم الأخير . ولما جاء محمد على فى سنة ١٨٠٦ وقام بما قام به من الاصلاح فى مصر بأن بعث البعوث من أبنائها الى أوروبا وبعث إلى جوانب الحياة من صور النشاط ما حرك النفوس وأثار طلعتها هب على البلاد نسيم صالح لعله أول بشائر البعث لامم الشرق العربى كافة . ثم لما عاد المرسلون من أوروبا وكانوا قد شهدوا فيها نشاطاً ضاعفه ما خلفته الثورة الفرنسية وراءها من حمى الفكر والقلب والعاطفة كانوا هم طلائع هذا البعث والعاملين عليه وكان من بينهم الأطباء والمهندسون والصناع والقواد . لكنها كانت حياة تحيط بها ظلمات ماض طويل لذلك كان سريان نورها ضئيلا قصير المدى . ولكنها مع ذلك كانت بدءا له ما بعده ، فلما كان عهد اسماعيل سارت فى سبيل النضج والقوة »

والحق أن علماء فرنسا مشوا فى أثر جنودها واليهم يرجع الفضل فى وضع الثقافة والتمدين الحديثين فى مصر .

فلاول مرة سمعت مصر فى تاريخها الحديث صوت الحرية والمساواة والاخاء فى أول اعلان كتبه بونابرت قائد الحملة جاء فى مطلعه كما يترجم الجبرتى فى ركاكة عربية بعد البسملة —

« من طرف الفرنساوية المبنى على اساس الحرية والتسوية . . . »

وقد اثيرت هذه الأفكار الجديدة بعد خمسين سنة ونيف وكان أثرها ظاهراً فى مجلس شورى النواب المصرى وفى مطاليب كبار رجال الثورة العرابية . وفى الحركة القومية المصرية التى لا تزال منذ عشرات السنين تدأب فى المطالبة بالحياة الدستورية كاملة ولأول مرة وضع فى مصر أساس النهضة العلمية وأساس الثقافة الحديثة حيث أنشأ نابليون بونابرت المجمع العلمى المصرى الذى لايزال باقياً الى الآن .

استصحب نابليون فى حملته أحسن علماء العصر جونار وشامبليون والرسام دينون والنقاش ريدويه والمهندس لبير والرياضيين مونج وفوريه والطبيعين والكيمائيين نوتيلو وجودفرى سنت هيلير ودولومين والميكانيكيين هاسنفراتز وكونيه والأطباء ديسنجيت

ولارى لتنظيم الصحة العامة والكتاب ارماند و بارسيفال جراتيون اللذين توليا تحرير أول صحيفة علمية أدبية فى مصر تحت عنوان La Décade Egyptienne وأول صحيفة سياسية Le Courrier d'Egypte

وأنشأت الحملة المصانع الحديثة لسبك المعادن وصب المدافع ونسج المنسوجات القطنية والحريرية ودبغ الجلود وضرب النقود .

وأدخل نابليون الاصلاحات الحديثة فى جمع الضرائب وفى تنظيم الادارة والتعليم . ولننقل شهادة مصرى كتب أخيراً باللغة الفرنسية كتاباً طبع بمصر سنة ١٩٣١ عنوانه « مصر الحديثة والتأثيرات الأجنبية فيها » — وهذا المصرى هو سعادة احمد سعيد باشا حيث قال —

« وبالاختصار فان أعمال هؤلاء الرجال جميعاً كانت أثراً ثميناً . وعنـــد ما ترك الفرنسيون مصر بقى فيها هذا الأثر الذى يمثل التأثير الفرنسى »

وننقل أيضاً شهادة مؤرخنا محمد رفعت استاذ التاريخ بمدرسة المعلمين فى كتابه « تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة » —

« كان نابليون يؤلف المجالس الوطنية بالقاهرة وفى البلاد ليستعين بهم على إدارة الحكومة وليستشيرهم فى شؤونها ....

« على أن الهزيمة العنيفة التى سببتها الحملة للمصريين أيقظتهم من سبات كانوا فيه منذ العصور الوسطى وفتحت عيونهم لعصر جديد ومدنيـــة جديدة تنطوى على معلومات وعدد وأفكار وأنظمة لا عهد لهم بها من قبل . فآنس المصريون من هذا الضوء بريقاً لامعاً وتنسموا فى الهواء عنصراً منعشاً من ناحية أوروبا فاندفعوا بالطبيعة نحوها واصبحت اوروبا من ذلك الوقت موضع أعجابهم وارهابهم فى آن واحد فالحملة كما أنها أيقظت المصريين من سباتهم كذلك لفتت أنظار دول أوروبا إلى مصر ومركزها التجارى بين العالم . وأصبح للفرنسيين المركز الأول فى نظر المصريين واصبحوا هم ممثلى المدنية الغربية والرقى الحديث فلما حان الوقت واحتاجت مصر الى رجال يصلحون شؤونها استعانت بضباط فرنسيين على تنظيم جيوشها وبمهندسين فرنسيين على تنظيم ريها وطرقها وبأطباء فرنسيين واساتذة ومشرعين فرنسيين . واصبحت الصلة التى تربط فرنسا بمصر صلة اشبه بالصلة التى تربط الأستاذ بتلميذه »

ثم ذكر المؤلف نشـاء المجمع العلمى المصرى وقال ان نابليون عهد الى العلماء الذين أنشأوه بالبحث فى أحوال مصر المختلفـــة فقاموا بمباحث خالدة والى هذه الجماعة يرجع

الفضل فى درس مشروع وصل البحر الابيض بالبحر الأحمر درساً هندسياً بهمة لبير الذى كتب فى الموضوع تقريراً فنياً كان موضع اعجاب واستفادة دلسبس .

كذلك قام المعهد العلمى بوضع خريطة جغرافية صحيحة عن مصر و بدرس تاريخ مصر القديم والتنقيب عن الآثار القديمة التى أجادوا فى وصفها ورسمها وقد طبعت جميع مباحث العلماء فى مجلدات عنوانها وصف مصر وهى أوثق المصادر التى نستمد منها تاريخ مصر الطبيعى وأحوالها عند دخول الفرنسيين . أما حجر رشيد فقد كشفه ضابط فرنسى اسمه بوشار ولكن استولى عليه الانجليز فى اثناء حملتهم الأولى وهو الآن فى متحف لندن .

وفى سنه ١٨٢٢ توصل شامبليون الى حل رموز اللغة المصرية القديمة المنقوشة على حجر رشيد والى الحملة يرجع الفضل فى إقامة الصنائع والمعامل وتنظيم الطرق وانشاء مطاحن للغلال والمستشفيات والحدائق والمتنزهات والعناية بالرسم والنقش والتصوير وانشاء المكاتب وطبع الجرائد وغير ذلك من الاصلاحات التى و إن لم تكمل إذ ذاك فقد كونت النواة التى تجمعت حولها الاصلاحات التى قام بها محمد على فى المستقبل .

وفى الواقع نجد نواة جميع الاصلاحات التى قام بها محمد على فى مباحث الحملة الفرنسية هذا فضلا عن أن محمد على استعان بالفرنسيين على وضع مشاريعه العظيمة . فالكولونيل دى سيلف Colonel de Selves المعروف بسليمان باشا الفرنسوى الذى كان أركان حرب المارشال ناى قائد نابليون هو الذى نظم لمحمد على جيشه . وسيريزى و بوسو Cerisy et Bossu هما اللذان أنشآ ونظما أسطوليه فى البحر الأبيض والأحمر وكان يتألف من ٦٠ إلى ٨٠ قطعة وكان فيه ٤٠٠٠ بحار و ١٣٠٠ مدفع .

وكان منشئو دور الصنعة والترسانات التى صنعت الأسلحة لجيش محمد على باشا وأسطوليه من المهندسين الفرنسيين . وكان من تولى تحصين سواحل مصر باقامة القلاع والاستحكامات من الفرنسيين . وكان من أنشأ مدرسة الطب المصرية التى احتفل مؤخراً بمرور مائة سنة على انشائها كلوت بك . وقد أخذ طلبتها من أنجب طلبة الازهر وأنشأ كذلك محمد على باشا مدرسة خرجت نخبة من رجال مصر فى القرن التاسع عشر وهى مدرسة الألسن التى كان من خريجها العلامة محمد قدرى باشا . كما أنشأ مدارس للحربية والبحرية والهندسة والزراعة والفنون والصنائع بمساعدة مستشاريه ومعاونيه الفرنسيين .

وأخيراً — وهذا لا يقل فى الأهمية عن جميع ما تقدم — قام محمد على باشا بمشاريع التجديد الاقتصادى بانشاء الترع والجسور والطرق و بانشاء قناطر الدلتا بواسطة مونجل بك

ولينان دى بلتون وكان من نتيجة هذه الأعمال العظيمة أن زادت المساحة المزروعة من مليون فدان كما كانت وقت الحملة الفرنسية الى ضعف هذا الرقم . وزاد عدد السكان من مليونين كما قدر وقت الحملة الفرنسية إلى أربعة ملايين كما قدر فى عهد محمد على .

أما التجديد الاقتصادى فى الصناعة فيكفي لاعطاء فكرة عنه أن محمد على أنشأ ١٨ مصنعاً للغزل والنسج ثم أدخل زراعة القطن وقصب السكر الى البلاد لتموين مصانعه بالمادة الاولية .

(٥)

حفر قناة السويس

كان مشروع القناة من أغراض حملة نابليون الأساسية وقام ليبير بدراسة المشروع والتقرير عنه غير أنه أخطأ فى حساب منسوب مستوى البحرين .

وقد عرض المشروع على محمد على باشا فرفض أن يسمح به حيث قال انه إذا أنشأ القناة أوجد لمصر بسفوراً والبسفور سيكون سبب ضياع تركيا .

ولكن فرديناند دلسبس تمكن من إقناع سعيد باشا وتعاقد معه فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ وفتحت القناة فى عهد اسماعيل باشا فى سنة ١٨٦٩ .

وقد زادت القناة أهمية مركز مصر الدولى زيادة عظيمة وجعلت التنافس بين انجلترة وفرنسا على النفوذ فيها حاداً — وهو اهم طريق بحرى فى العالم . وقد حاولت انجلترة أولا احباط المشروع فلما نجح حاولت ان تستأثر به ولم يكن هناك مساهم انجليزى واحد فى الـ ٤٠٠٫٠٠٠ سهم ولكن الفرص اتيحت لها بسبب الصعوبات المالية التى لاقاها اسماعيل باشا حيث اضطر ان يبيع نصيب مصر من الاسهم وعددها ١٧٦٫٦٤٢ فاشترتها انجلترة (Disraeli) فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥ بنحو اربعة ملايين من الجنيهات فى. حين أن قيمتها الآن تقدر بنحو ٢٥ مليوناً وتزداد اهمية القناة الدولية من سنة الى سنة وقد تسبب من حفره أن اصبحت جميع الدول التى لها بواخر تخترقه ذات مصلحة فى مصر . وكان وجود القناة فى الاراضى المصرية من أهم الصعوبات التى اعترضت المفاوضات الانجليزية المصرية الى الان .

وزالت الصعوبة الدولية المتعلقة بمركز القناة الدولى باتفاق سنة ١٨٨٨ الذى ضمن حياد القناة . ولكن القناة جزء من الاراضى المصرية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحظ مصر كما يرتبط حظ مصر بها ولنا عودة اليها فى خاتمة المحاضرة .

(٦)

المنافسة الانجليزية الفرنسية وتغلب النفوذ الانجليزى وأثره فى حياة البلاد

كان شراء اسهم القناة اهم خطوة فى مد النفوذ الانجليزى فى مصر وتقهقر النفوذ الفرنسى أمامه

وقد عقب استدانة مصر ان وضعت الرقابة الثنائية على ادارتها ثم خلع الخديوى ثم وقعت حوادث الثورة العرابية التى انتهت بالاحتلال الانجليزى وقبض الانجليز على ازمة الحكم بواسطة مستشاريهم فى الوزارات تحت سيطرة القنصل الجنرال اللورد كرومر وعقب ذلك تنافس واحتكاك بين انجلترة وفرنسا انتهى بمعاهدة سنة ١٩٠٤ .

ولا تهمنا هنا الحوادث التاريخية وانما يهمنا ان نسجل اثر النفوذ الانجليزى فى المجتمع المصرى . . . هل كان ضاراً ؟ هل كان نافعاً ؟ هل كان متردداً بين النفع والضرر ؟

اذا قرأنا كتاب مصر الحديثة للورد كرومر أو انجلترة فى مصر للورد ملنر وجدناهما يتغنيان بما صنعته انجلترة لمصر وبما للنفوذ الانجليزى عليها من الايادى البيضاء.

واذا قرأنا كتاب تاريخ مصر السرى لسكاون بنت أو كتاب خراب مصر لروذشتين وجدناهما يستمطران اللعنات على هذا النفوذ الانجليزى وما جره على مصر من النكبات

والحق ان ذلك النفوذ لم يكن نافعاً نفعاً محضاً ولم يكن ضاراً ضرراً محضاً وكان نفعه يغلب فى مرافق البلاد المادية بينما كان الأمر بالعكس بالنسبة لمطامح البلاد الساميه واحوالها وشؤونها الأدبية .

ليس من طبع المصرى انكار الجميل ولا يستطيع أحد أن يتجاهل أعمال الرى العامة التى قام بها رجال أمثال السير كولن سكوت منكريف والسير وليم ولكوكس والسير وليم جارستن . ولكن هل كان للصناعة المصرية حظ من الاهتمام كما كان للزراعة وهل لم يبالغ فى تخصيص القطر بالزراعة لأن هذا يوافق أغراض الصناعة الانجليزية .

ولا يستطيع أحد أن ينكر فضل سكوت فى اصلاح القضاء الاهلى . ولكن هل كان سكوت يستطيع هذا الاصلاح لو لم يجد من رجال القانون من تغذوا بالثقافة الفرنسية وتخرجوا عن يد تستو ولمبيير من كبار أساتذة القانون الفرنسى .

ولا يستطيع أحد أن ينكر تنظيم الأمن واستتبابه وتحسن الادارة وكفاية مصر شر الاعتداءات الأجنبية .

ولكن هل لم يكن ثمن هذه المزايا فاضحا وهل لم تشترها مصر على حساب عزتها القومية وسيادتها .

كانت مصر قد قطعت شوطاً فى اختبار النظام الدستورى وكانت اميال قادة الرأى فيها تستحق كل العطف من جانب كل محب للحرية . وكان يجب الأخذ بيد مجلس شورى نوابها ولكن انجلترة عندما استتب لها الأمر أوفدت اللورد دفرين لوضع أساس نظام الحكم المستقبل وقد كان قاسياً على النظام الدستورى حريصاً حرصاً زائداً فى النصح بالتدرج فى الحكم الذاتى فأشار بايجاد مجالس لا نيابية بل شورية لأن قيام الحياة النيابية الحقة فى البلاد لم يوافق خطته أن يكون الأمر بيد المحتلين .

وكذلك كان الحال فى التعليم فقد كان الغرض الاساسى من خطة التعليم التى اتبعت والتى أشار بها اللورد دفرن إيجاد الموظفين المصريين للوظائف الحكومية فضحت باغراض العلم السامية .

ويخبرنا المستشار مارشال بأنه منذ سنة ١٩٠٤ عرض على اللورد كرومر مشروع إنشاء جامعة مصرية فكان جواب اللورد ان الوقت لم يحن بعد .

وأخيراً أنشئت الجامعة المصرية من غير مساعدة الحكومة وعلى رغمها تقريباً .

هذا ملخص ما كان للاحتلال من مزايا ومضار .

وقد سلم الانجليز أخيراً بأن نظام الحماية أو الاحتلال ليس أساساً مرضياً للعلاقات بين البلدين . واتفق الجميع على انه يجب أن تحل محله معاهدة صداقة وتحالف بين البلدين ولا يزال الخلاف قائماً لم يحل لا من حيث المبدأ بل من حيث التفاصيل .

(٧)

نظام الامتيازات الاجنبية والقضاء المختلط

مهما كانت علاقات بلادنا وثيقة بدولة من الدول العظمى على الخصوص كبريطانيا العظمى فى الوقت الحاضر فان لمصر علاقات بالدول الأخرى يتغلغل أثرها فى أحوالها الاجتماعية وفى حياتها اليومية .

فى مصر بطبيعة موقعها الجغرافى عدد كبير من الاجانب يبلغ الآن نحو مئة وخمسين الفاً ولنشاطهم أثر ظاهر فى تجارة البلاد وصناعتها .

وهؤلاء ينقلون الى البلاد حضارة بلادهم وعلومهم وفنونهم ويستثمرون فيها رؤوس أموالهم .

وقد أدى هذا الى نشاط وتقدم اشار اليهما اسماعيل باشا فى الخطاب الذى وجهه الى نوبار باشا فى سنة ١٨٧٨ لانشاء مجلس النظار وباهى بأن بلاده انقطعت عن أن تكون من أفريقية وأصبحت جزءاً من أوربا .

ولكن هذا دعا الى وجود نظام الامتيازات الاجنبيه التى اصبحت غلا فى عنق مصر وقيدت سلطة البلاد فى التشريع والمالية والقضاء وقد خففت المحاكم المختلطة من عبء الامتيازات الأجنبية . ولكن ما زالت حمى يحتمى وراءه بعض الطبقات المجرمة المنحطة فى تجارة المخدرات والرقيق الأبيض وغير ذلك من أمراضنا الاجتماعية التى تجد فى نظام الامتيازات سلاحا تحارب به العدالة والانسانية .

كل هذه النظم تحتاج الى مراجعة وتعديل لكى توافق حاجات الزمن .

والاختبارات القاسية التى مرت بها البشرية فى الحرب العظمى تمخضت عن أفكار جديدة.

وسياسة الاثرة والاستعمار أصبحت سياسة بالية تجر الوبال والويلات على الانسانية وتدور دائرتها على الباغى .

ينادى محبو السلام والخير فى العالم أجمع باحلال التضامن والاخاء الدولى محل الشحناء والمنافسة

ومصر خطر على كل دولة تريد الاستئثار بها .

كل بلد وضعته الطبيعة فى مركز ممتاز بحيث يقدم الى البلاد الأخرى خدمات يجب أن تكون خدماته لا موضع طمع البلاد الأخرى بل موضع تقديرها فلا تجر وبالا عليها .

يجب أن لا تكون مصر كالشمعة التى تحترق لكى تنير الآخرين .

عندما تنال مصر ماتطمح اليه فى علاقاتها الدولية وتتبوأ مكانها بين الأمم الحرة المحبة للسلام تكون سبب بركة للآخرين بدلا من أن تكون مثار المشاحنات والبغضاء .

13789250

MAY - 1976

DT
70
A6
1933
c.3

- LIBRARY

DATE DUE